

أيمن الحسن

سلسلة الرواية (2)

2011

أبعد من نهار

(دفاتر الزفتية)

البريد الالكتروني: E-mail net.sy@Vuneeri
aru@net.sy
موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.com

الإخراج الفني: سنديا عثمان
وفاء الساطي
تصميم الغلاف: أكسم طلاع

❑❑

أيمن الحسن

أبعد من نهار

(دفاتر الزفتية)

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة الرواية (2)
2011

إلى:

ـ أبـي قاسـاني، فـازددت ضـعفاً في الحـياة، وصـلابة في مـواجهة الورق، كي أثبت ذاتي.

ـ أقاربي، جافوني، فاغتربت.

ـ الزفتية، لمت غربتي.

ـ إعدادية الميدان الأولى، عـرَّفتني بالأستاذ عدنان رسـلان، فأخذ بيدي على دروب القراءة.

.. فيما بعد سيشتري أبي: حسن قومندار مصطفى الحسن أرضاً في المشتل قـريباً مـن أهـل قـريته، وبين أقاربه، مع ذلك مازالوا يجافونني، وتتضاعف غربتي يوماً بعد يوم.

إهداء خاص

إلى روح صديقي الشاعر زياد أحمد أبو خولة....
الفلسطيني.. مواليد مدينة القنيطرة

ملحوظات

1 في الرواية عدة لهجات محلية، تم ضبطها بالشكل الأقرب إلى اللغة الفصحى. ويمكن عند النطق بالحوار تصحيح اللفظ حسب مقتضى اللهجة المحكية.

2 لا داعي للدخول في مسألة شخصيات حقيقية، فالرواية، أي رواية، محصلة واقع وخيال.

3 الشعر والزجل بلا أقواس للمؤلف.

فيروزية خالدة

ركبوا عربيات الوقت
وهربوا بالنسيان
تركوا ضحكات ولادن
منسية ع الحيطان
تركوا لي المفاتيح
تركوا صوت الريح
وراحوا ما تركوا عنوان
وينن؟

أول الغيث

وليلتها، حين انسكب ضوء بهيٌّ على المدينة المحررة، طارداً شبح غيمة سوداء، ظهرت على شكل نجمة سداسية، توهجت الحكاية، إذ تبدى المكان ذاكرة أرحب، تنفتح على الغد المأمول، فيصير أقرب من ذي قبل.

لقد امتطى الدكتور حلمي غانم حلمه بساطاً للريح، وطوى الأرض بسيارته اللاندروفر المكشوفة، يمينه تحرك المقود، وباليد اليسرى رفع علم فلسطين.

حاولوا إيقافه، قبل الوصول إلى المسجد الأقصى، لم يستطيعوا. ها هو ذا يقف خلف الإمام، ويسوي المصلون صفوفهم بمحاذاته: "**صحيح أن الطريق طويلة من القنيطرة إلى القدس. لكن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة.**"

"التاريخ

ذاكرة

المستقبل"

الدفتر الأول

أيام جولانية

" أيها الناس:
ليحكِ كل منكم حكايته،
كي يزول الجهل"

نازح ونازحون

بانتظار إشارة الانطلاق باتجاه مدينة القنيطرة، الجميع في تهيؤ، يمسحون العرق عن جباههم، بعضهم يهوّي بكرتونة في يده، آخرون لا يعبؤون بشيء قدرَ تلهفهم للوصول إلى مدينتهم المحررة. وأنا نسيت إحضار هدية، أقدمها لنجاة، التي وعدتني على اللقاء هناك....

" قمر أسمر في الزفتية" كلما تذكرتها خطر في ذهني هذا العنوان، كنت أنتظرها بيدي صفيحة، أملؤها من حنفية الجامع، بعدما كنت أحملها على رأسي، صرت أتنكبها على كتفي ـ وفقَ مشيئتها ـ وأُنقّلها من اليمين إلى اليسار خلال الطريق الطويل:" هيك أحسن، لأنك شب."

ـ وإنتِ بنت بتجنني.

تقول لي:" صوتي بيحلى لما أنطُق اسمك."

أرد عليها في أمل:" أتعس وقت لما تقول امي: كفاها الله، امتلا برميل المي. اقعُد ادرُس."

بشرة سمراء، يزينها نمش تحت العينين الواسعتين، أنف صغير، وشعر أسود طويل بجديلتين، تصلان حتى الوركين. أدلق كل ما في صدري دفعة واحدة:" **أحبك نجاة."** نقطة. والسلام.

❖

تصطف الحافلات العامة، وغيرها من السيارات: شاحنة كبيرة، وأخرى صغيرة بيك آب، تبدو إحداها، وهي بمقعد أمامي مزدوج، متهالكة وقد فتح سائقها غطاء المحرك، وراح يصلحها، مع تركتورات تحمل فرشاً ولحفاً، نمليات، وطناجر، وأكياس مونة. فينظر أحد الأشخاص إليها، وهو يُخرج المسجلة من حقيبته المعلقة على كتفه:" شايف ميشيل: كأنن راجعين

على بيوتهن، ليسكنوها فوراً."

يرد عليه زميله حامل الكاميرة:" الأرض غالية. ولا تنسَ يا موفق: صار لهم سبع سنين منتظرين هاللحظة."

-صحيح. بس لازم ما يستعجلوا هيك.

يصمت برهة. ثم يضيف:" بعدين على شو العجلة مادام صبروا سبع سنين؟"

ثمة سيارات لإخوة عرب، وينحشر المواطنون حشراً في الحافلات: بعضهم صعد فوقها، وأعلى السيارات الشاحنة، يرفعون إشارات النصر عالياً، ولافتات تعبر عن الفرحة بتحرير مدينة القنيطرة، ملوِّحين بالأعلام في سرور. بينما يحتج شاب متعجرف على امرأة عجوز، وضعت قفص دجاج أمامها:" كمان جاج بهالزحمة؟"

ـ كأنك ما بتعرفني يا ابني: أنا بينادوني أم الجاج. وهالجاجات بغلاوة بناتي عليِّ."

وترفع القفص الثقيل عن أرض السيارة الشاحنة، تضعه على رأسها، ثم تحتضن بناتها الثلاث في حميمية:" منيح هيك؟"

إلى جوارها شخص، يغطس رأسه بين كتفيه، أغمض عينيه، وفتح فمه. إذ تُسمَع أصوات رشقات الرصاص ابتهاجاً بفرحة النصر ينقز واقفاً، فإذا هو مربوع القامة، يلتحف عباءة سوداء، وعلى رأسه عقال غليظ، تحته حطة بيضاء.

يأخذ وضعية الاستعداد للدفاع عن نفسه، كأن أحداً ما يهاجمه. فيسخر منه رفيقه، ممشوق القد، بحاجبين كثيفين، يكادان يُخفيان عينيه، وشعر طويل مجعد، جدَّل بعضه، من دون عباءة سوداء، لا حطة، ولا عقال، وقد وضع عوداً رفيعاً في فمه، ينكش به أضراسه الخلفية، فبدا عند مفترق الشفتين يميناً، أو يساراً، حتى وهو يتكلم:" يا عيب ع الرجال يا شيخ جاسم."

لذا يُخرج الشيخ مسدسه، الذي خبأه تحت عباءته، في مغلف جلدي، أحكم تثبيته على جنبه الأيسر، يبلل طرف إصبعه الوسطى بلسانه، ويمسح

فوهته، ثم يحاول أن يُطلق، فيوبخه ضرار، متحدثاً، بصوت أجش من أنفه، حتى لا يسقط العود من فمه:" خليهن للكلب عامر."

ـ ولا يهمك يا ضرار: الرصاص كثير.

ويكمل:" قول للكلبين. والله لأكومه حدها. بس..."

ويتنهد في حرقة، فيسأله:" بس شنو؟"

ـ يا بن عمي: مو نلاقيه بالأول؟

ـ عنده بناية بثلاث طوابق بالقنيطرة، وبدك ياه ما يجي بهذا اليوم!

❖

تظهر في الأفق أسراب من طائرات الميغ والسوخوي، تقوم بحركات استعراضية، فيلتطي نصر، الذي يلبس بذة خاكي كالحة، وعلى رأسه قبعة عسكرية، بالحائط القريب منه، ناظراً إليها في رعب، بينما يسترجع النقيب ناجي أحداث اليوم الأول للحرب:" كانت الشمس تميل نحو الغروب، بعدما اقتحمنا خندق الـ م.د. حتى أن سيارة المقدم أسامة، قائد سرية الاستطلاع، أبت الوقوف على ذلك المنحدر الموصل إلى بحيرة طبريا. فاستهدفتها قذيفة أحالتها كتلة نار. بدا قرص الشمس مسلطاً علينا كأنه بروجكتور، يبهر عيوننا، ويكشفنا للعدو بوضوح سافر، فلعنت الشمس، قبل أن أعرف أن اختيار وقت الهجوم، في هذا الوضع الفاضح، كان لصالح إخواننا المصريين حيث الشمس، هناك على جبهة سيناء، تعمي عيون العدو عنهم حتى يعبروا قناة السويس."

ويقول في سره:" **يا ريتك معي يا عبير**"....

كان كلما جاء إلى بيتها ـ الحديقة كما يسميه ـ يسألها:" كيف حالك؟" ترد عليه بلهفة:" أعشقك يا روحي." ثم تقترب منه، بعدما أخلى أهلها مقصورة الضيوف، ليدرسا فيها، بناء على طلبها، تحتضنه، ويروحان في قبلة طويلة، تُدخلهما سجل غينس للأرقام القياسية. وقبل أن يخرج، عائداً إلى بيته، تقسم رغيف خبز بينهما، تشبعه بالعسل الصافي قائلة:" كرمال يصير بيناتنا خبز، وعسل، وقبلات."

❖

ترتفع تهليلات الفرح، وتعلو الأناشيد إذ أعطيت إشارة تقدم المسير. فتطلق مجموعة نساء، يركبن سيارة شاحنة إلى جوار أغراضهن المنزلية، حناجرهن بزغاريد متتابعة، كأنهن في عرس. وتشرد بشرى، التي تركب سيارة البيك آب المتهالكة، فإذا هي عروس في ثوب زفافها، بينما يأتي الشبان بالأستاذ ملحم، ليجلسوهما على كرسيين مرتفعين، صنع الأطفال حلقة دبكتهم الصغيرة في الجوار. وانعقدت أمامهما الدبكة وسط ساحة كبيرة، حيث وقف أحد المهنئين أمام أبي معروف، الذي يرتدي لباسه التقليدي، مثل أهل جبل العرب، وقد جلس في المقدمة، ليهنئه رافعاً صوته الواثق: "ألف مبارك يا أبو معروف، والله الأستاذ ملحم زينة الشبان."

فتعلو الزغاريد صاخبة، وسط العزف على الشبابة بشجو، وغناء عواد الصادح:

"يا ربي ليش هيك فينا عامِل؟

شردتنا وكل واحد راح ع ميل..."

بغتة، كأن صاعقة تضرب المكان، تزلزل الأرض، فينبق منها موشي دايان، مثل قرصان، غطى عينه اليسرى بعصابة سوداء، خلفه جنود، يظهرون كنبت شيطاني غريب، وهم مدججون بالأسلحة، والحقد، والنار، مع طائرات سود، تحجب فضاء السماء، ليحوِّم الموت طائراً أسود فوق الرؤوس.

تحاول بشرى التمسك بملحم، لا تجده على الكرسي إلى جوارها، فتصحو مرعوبة على صوت إغلاق غطاء محرك سيارة البيك آب، يطبشه بقوة السائق نايف، الذي بقيت عيناه طوال الطريق معلقتين بها، يُرقِّص لها جفونه، كأنه يغمزها، وهو يُفتِّل شاربيه الرفيعين: "**ما أحلاكِ يا بشورة.**" هكذا يدلعها في سرِّه.

حين يراها تنظر إليه بانزعاج، يتلفت حوله باحثاً عن والدها، يجده وقف على مكان مرتفع، ينظر نحو البعيد. في أمل فيتأمله مع هزة رأس حزينة: "**يمكن أبو معروف مفكر حاله إسا رح يرجع على المجدل.**"

ثم يقترب من بشرى مبتسماً:" بس كرمال عيونك، السيارة بدها تمشي غصباً عنها."

ويسير الموكب الطويل من حولها، تجلس في امتعاض، بينما ينظر نايف إليها من خلال المرآة أمامه: فتاة جميلة، في الخامسة والعشرين من عمرها، ترتدي ثوباً وردياً، وقد ثبتت ذراعيها على شباك السيارة، كأنها بانتظار شخص ما:

حين ودعني الحبيب انفجر نهر الدموع

بكيت بمرارة، فانفطر قلب العالم.

تضحك من نفسها:" **كأني، بعدما غاب الأستاذ ملحم، وترك لي هذه الدواوين، صرت شاعرة مثله.**"

وتشرد مصغية إلى صوته، يقول فيها:

لا شيء يصدق فيكِ إلا شعري

هو منكِ زهرة يا موسم الزهرِ

إذ يتجاوزها باص مزركش بألوان زاهية، يخفق فوقه علم بنسر ذهبي، يلوّح لها حازم:" سبقناكِ. مع السلامة."

فتبتسم له مع تلويحة من يدها:" **قديش حلو هذا الولد! كأني أعرفه من زمان.**"

❖

يقف حازم، ابن السنوات السبع، داخل الباص إلى جوار أمه، علقت على مسند الكرسي أمامها مذياعاً، ماركة توشيبا، موضوعاً داخل محفظة جلدية قديمة، بهت لونها، غير أن الماركة، المكتوبة بحروف نافرة على اليمين، بقيت جديدة، وهي تريه الآن صوراً لمدينة القنيطرة، مؤكدة في اعتزاز:" هي الصور صورها أبوك يا حازم."

يأخذها، ليتفرج عليها وحده، ممعناً النظر فيها كمصور محترف: السرايا الحكومية تعج بالمراجعين.. الحوانيت مشرعة الأبواب.. تبيع المواطنين حاجاتهم.. الأبنية الجميلة ذات أسطحة القرميد الأحمر.. على شرفاتها أصص

نباتات الزينة.. والورود اليانعة.. سينما.. ومقاه عديدة.. مساجد.. وكنائس.. ومصلون...

تتأمله في لهفة، وقد علّق خيط الكاميرا على رقبته، فوصلت حتى بطنه، مثلما كان يفعل أبوه:" **لو أنك معي يا عزمي يا... أستاذ الرياضيات.**"

تقولها سراً في حنين مفعم....

لقد تمددت على بطنها، تبدو صبية جميلة، أمامها دفتر، تنهمك في الكتابة عليه، تحت ضوء مصباح كاز نظيف البلورة. بينما أمها تجلس قبالتها، تنسج في أناة قطعة صوف. فجأة يُقرَع الباب. تقوم مسرعة باتجاهه. وعلى الفور تسألها:" مين يا مريم؟"

- هذا الدكتور عزمي يمه.

السماء مزاريب في الخارج، ويُسمع بوضوح صوت ارتطام حبات المطر على زجاج النافذة، فتدعوه مريم:" أهلا وسهلا، تفضل."

يحاول تجاوز الباب هرباً من البلل، لكنه يبتعد، ليصبح جسمه كله في الخارج عندما يرى أمها:" بعده ما صار دكتور يا عيني."

يبتسم:" مسا الخير مرت عمي."

ودون أن ترد، تنظر إلى مريم التي وقفت مستسلمة:

- وبعدها صغيرة على الزواج.

ينظر إليها بدوره مستنجداً. فتحضه على الدخول بحركة مضطربة من يدها:" طيب فوت.. عن المطر."

تنهرها أمها:" الوقت تأخر. والأحسن يفل."

لكن مريم تهمس في أذنها:" قلت لك إذا ما حليت المسائل ح يطردني الأستاذ."

حينئذ تقول بسخرية، وقد تغيرت لهجتها:" يا... دكتور: بنت عمك عندها كم مسألة حساب."

وبانزعاج تسحب الدفتر من يد مريم، لتعطيه له، يرد:" أمرك. على عيني."

ثم ينسحب مرتجفاً. فتغلق الباب في قهر، بعد أن يغيب عن نظرها، بينما تعود إلى جلستها مع صوت أمها: " أنا داخلة أنام."

تجلس مريم شاردة أمام مصباح الكاز، تقترب منه لتتوصّه. بينما تمتد يد عزمي، يرفع ضوء مصباحه المشحر البلورة، لتضاء غرفته بخفوت.

يبدو مبتلاً على الآخر. فيُخرِج من تحت معطفه المبلول دفتر الحساب، يضعه على الطاولة، وهو يُنشِّف رأسه، الذي يقطر ماء، مقلباً أوراق الدفتر في استغراب:" شو هذا؟ مسائل السنة كلها يا مريومة؟"

فجأة تظهر ورقة مطوية، يلتقطها، ويقرأ مطلع قصيدة"ارجع إليَّ" لنزار قباني، يرددها في تأثر، كأنه يسمع صوت مريم، تقول له:

" متى ستعرف كم أهواك يا أملاً

أبيع من أجله الدنيا وما فيها..."

فتمتد يده تلقائياً، بعدما تمدد في فراشه، إلى مذياع التوشيبا، الموضوع داخل محفظة جلدية تلمع، يشغله في أناة، ثم يدير مفتاح الموجات مراراً، حتى يصل إلى الأغنية ذاتها، تصدح بها نجاة الصغيرة في اشتياق ولوعة.

❖

تصحو مريم من شرودها على حازم، يكرر بصوت عال:" مع السلامة." وهو يلوِّح بيديه كلتيهما. فتُقبِّل رأسه في حنان غامر....

لقد اجتُثَّ من حضن طفولته. فافتقد مداعبات أبيه، إذ كان جنيناً حين التحق بخدمة الجيش. ثم حدثت الهزيمة، فضاع كل واحد في طريق. ولم يعرفه إلا في تلك الصورة، المعلقة في صدر البيت، يتأملها طوال الوقت، ثم يسأل:" وشو بيعمل أبوي؟"

ـ طبيب.

ـ يعني دكتور؟

وقبل أن ترد عليه، يردف:" طيب ليش خليتيه يسافر يمه؟"

وتتذكر، في حزن موجع، كيف ولدته على الطريق، في سيارة شحن، يوم النزوح المشؤوم من مدينة القنيطرة إلى دمشق.

مجدداً تُمسِّد شعره، ثم تقبله في أسى، لتمسك ذلك المذياع، ترنو إليه في لهفة، وتمسحه، فيلمع قليلاً، تشغله فيعلو صوت المذيع:" السادس والعشرون من حزيران يوم خالد في ذاكرة الوطن، بعدما انسحبت اسرائيل صاغرة من مدينة القنيطرة، عاصمة الجولان. لقد استمر القتال عنيفاً شرساً طوال (81) يوماً، قاتلنا خلالها وحدنا، بعدما توقف القتال على الجبهة المصرية في العشرين من تشرين الأول."

فيسترجع النقيب ناجي بدء مفاوضات فصل القوات، هناك في الكيلو متر 101 التي أوصلت إلى معاهدة كامب ديفيد المشؤومة، مستعيداً نبوءة الشاعر المصري أحمد فؤاد نجم:

" يا خوفي يا خوفي من هالنصر

يمكن ترجع سينا ونخسر مصر..."

فهل تنازل السادات عن النصر بالموافقة على سحب القوات المصرية إلى غرب قناة السويس في مفاوضات فض الاشتباك الأولى؟ كما يؤكد رئيس أركانه الفريق سعد الدين الشاذلي.

❖

تحتضن مريم مذياعها إلى صدرها في اشتياق مغمضة عينيها. فترتسم ابتسامة وضاءة على وجهها، وهي تقول لعزمي:" تسلم ايديك على حل المسائل."

ثم تردف:" لتكون مفكرني كسلانة؟"

- كيف؟

- حبيبي هدول حجة مشان وصِّل لك الرسالة، وترضى أمي عنك.

فيهز رأسه في أسف:" وأنا فكرت حالي أستاذ رياضيات!"

❖

عند مدخل مدينة القنيطرة يتقدم الناس أفواجاً، أتقدم معهم، وأنا أسترجع رسالة صديقي جهاد الذي يدرس الإخراج في جامعة موسكو، جاء فيها:" سمعت تعبيراً أعجبني يقول: المدينة الخالية من صالة سينما تشبه

مقصورة امرأة جميلة، لكن ليس فيها مرآة."

ثم يضيف:" ما الحياة إلا فيلم، نؤدي فيه أدوار الممثلين. والمهم ألا تقضي حياتك في الكومبارس يا أيمن."

بعد ذلك يطلب مني أن أكتب مشاهداتي عن الزفتية، وما أسمعه من حكايات ساكنيها، دون أن أفوت شيئاً:" فقد نعمل فيلم سينما. ولتعلم، يا رفيقي، أن المشهد الجميل ـ كما يعلموننا هنا ـ هو المشهد الضروري."

❖

تمتد الطريق أمامي، أحمل دفتراً وقلماً، أرى نفسي أشهد على ما كان: تفصيلات حياة لأناس نزحوا عن بيوتهم، إلى العاصمة دمشق، حاملين معهم الطيبة والنباهة، والاستعداد للتعلم بسرعة، لقد عاشوا ظروفاً اقتصادية واجتماعية بالغة الرداءة، ناهيك عن إهمال الحكومة، فبقيت أحلامهم هناك حيث بيوتهم، ومزارعهم، ذكرياتهم، وتقاليدهم التليدة. ومن بقي على أرضه المحتلة أصبح لزاماً عليه أن يخوض معركة يومية شرسة للحفاظ على انتمائه، وهويته السورية، في مواجهة همجية إسرائيل، واضطهادها العرقي. أتذكر معهم ليالي الشقاء، والبرد، والعراء، وعوالم خاصة خبأتها الروح سيرةً ذاتية بخط مائل.

وبينما أنا أسير وحدي، بعيداً عن الجموع لمع الخاتم في يدي....

/ وسط سوق الصناعات التقليدية بدمشق كثيراً ما وقفت أمام ذلك المحل، أنظر إلى الخواتم، وأعاينها في تلهف مرير، إلى أن دخلت قائلاً للبائع:" بدي محبس."

وفيما أنا أعد أنصاف الليرة وأرباعها، كي أكمل له المبلغ المطلوب بلا مجادلة، ودون نقصان، قال باسماً:" مبين عليك ابن حلال، ما فاصلتني على سعره، لهيك رح أعطيك خاتم سحري."

اندهشت غير مصدق، فأردف:" صحيح قديم، بس إذا لمع بيحقق لك أمنيتك."

وأمنيتي الآن أن أراها، كما وعدتني:

- رح أنتظرك، بتجي؟

سألتها:" أين؟"

- بالقنيطرة.

قلت في مرارة:" لّما تتحرر يا نجاة."

ردّت:" طبعاً. بكرا بتتحرر ورح تشوفني هُناك، لأنها رحمي الأول."

حدقتُ في عينيها متعجباً، فأكدت في حزم:" تحت التراب بدي أرجع لها مهما صار."/

❖

يتوقف الباص المزركش، فتبدو على مقدمته لافتة حديثة، كُتب عليها بخط جميل: دمشق ـ القنيطرة. تنزل منه امرأة، تمد يدها لعجوز هرمة محذرةً:" على مهلك خالتي."

وقبل أن تنزل تضع أم عايد طرف عصاها على الأرض، تحاول المرأة التي سبقتها أن تأخذ بيدها. فترفض. لذا يتحرق عايد للحاق بأمه، التي مضت وحدها، لا تلوي على شيء، لكن حازماً يسبقه ليملص عن يمينه، فيكاد يُسقطه، وهو ينزل غير عابئ به، ثم يصفّر لحمامته البيضاء، التي مازالت ترفرف حول العلم المرفوع فوق الباص، فتنزل إلى كتفه الأيسر، وهي تهدل باستمرار، بينما ينظر إليه عايد شزراً، يريد أن يؤنبه، وربما يؤدبه بقسوة، لكنه ينحرف أخيراً، ليلحق أمه معتذراً لها:" طولت عليك يمه. عطيني ايدك."

ترفض متقدمة في ثقة واصرار، تسبقها عصاها المتوثبة مثلها، ثم ترفع أنفها المتقدم قليلاً على وجهها، لتستنشق الهواء العذب النقي، وتتشممه بعمق، كأنها تتذوقه في استمتاع:" **مظبوط هذا هوا القنيطرة**."

من يشاهد أم عايد لا يلحظ اختلافاً بين لونها، ولون التراب البني المائل إلى السمرة في مدينة القنيطرة، كأنها جُبلت منه يوم شكلنا الله من طين، وقال: كونوا، فكنا.

إن نظرتَ إلى نضارة عينيها، وخضرتهما اليانعة، تحسب أنها ماتزال في مرحلة الشباب. لكن إن حدقتَ بعروق يديها البارزة، كأنها جذور شجرة

ضاربة في الأرض، ستقول:" هي عجوز بالفعل."

إنها تتعرف على الأماكن من رائحتها، دون أن تخطئ أبداً، وعلى جيرانها من خلال وقع أقدامهم.

ويتذكرونها تمضي نحو مقبرة الشهداء وسط الريح، فلا تقوى، مهما اشتدت، على زعزعتها. لتتماهى في عيونهم شجرة تين، أو زيتون، تضرب في التراب عميقاً، ورأسها شامخ نحو السماء، لا ينحني.

تمشي بضع خطوات، حتى تحس بأن تحت قدميها تربةً طرية، فتنحني، لتأخذ بيدها كمشة تراب تتفحصها، ثم تشمها، كما يُشمُّ العطر: **" وهذا هو تراب القنيطرة."**

تخفض صوتها، كأنها تهمس لأحد ما إلى جوارها:" وريحتك فيه يا أبو عايد."

ثم ترفع يديها صوب السماء:" الحمد لله اللي جمعنا من جديد، وإن شا الله ما نفترق."

بعد ذلك تعقب بصوت مسموع:" شامة ريحة تخريب يا عايد."

ـ صحيح يمه: ما هي إسرائيل مخربة القنيطرة!"

يقول ذلك، وهو يتلفت حواليه متحسراً. ترد في ثقة:" بكرا نعمرها."

وإذ يتململ في انزعاج، وهو يلاحقها خطوة بخطوة:" خايف عليك تضيعي بالزحمة يمه."

ـ لأني عميا. مو هيك؟

يصمت. فتردف في ثقة:" عمرك سمعت حدا ضاع ببلده؟ ولا مفكرني مثل أيام الزفتية كل خطوة بوقعة؟"

وتبصق:" يقطع الزفتية وسيرتها."

ثم تمضي وحدها:" اتركني امشِ لحالي الله يرضى عليك يا عايد."

ويدهش إذ بعدما مشت خطوتين قالت:" ولا تخاف عليِّ هون معي أبوك."

فيهز رأسه في أسى، وهو يتبعها عن بعد:" الله يرحمك يابا."

مسترجعاً صورة والده الذي أصيب، في عملية فدائية جريئة داخل فلسطين، ب 19 رصاصة في أنحاء جسمه، وفق التقرير الطبي، رغم ذلك استطاع الوصول إلى بيته، ليموت فيه، ويدفن في مقبرة الشهداء على الطرف الجنوبي الغربي لمدينة القنيطرة.

ويشرد عايد في حنين:" **بعد أيام رجعنا لزيارته، لقينا شجرة صغيرة، نبتت فوق القبر، وصرنا، كلما جينا لعنده بأي وقت، نلاقيها خضرا.**"

ترفع مجموعة إخوة عرب أيديهم بالتحية نحوهما. بينما يلتقي رجال طاعنون في السن، يرددون مسرورين:" والله زمان يا جماعة. مباركة علينا رجعتنا على البلاد."

ثم يتصافحون في حميمية، فتبدو فرحتهم طافحة على وجوههم، إذ يتعانقون في لهفة المشتاق مرات ومرات.

يومها نوَّر وجه" أبو يوسف عميشة" مسترجعاً أيامه الجميلة في قريته....

أقام عرساً لابنه البكر، وكان يدوم سبعة أيام بلياليها، على عادة ذلك الزمان. في اليوم الثاني توفي رجل من القرية، فأزال مظاهر الزينة، وخيمة العرس، وراح يشارك، مع أبنائه السبعة، في مراسم الدفن. لكن، بعد ذلك، جاء أفراد عائلة الميت إلى منزله، قائلين:" الميت ميتنا، ودفناه، الله يرحمه، والعريس يوسف عريسنا: عاود نصب الخيمة، وزينها من جديد يا أبو يوسف، عشان نتمم العرس مع بعض."

ها هو يمشي بخطوات واسعة، لا تحدُّ ـ كأنه يخشى التوقف قبل أن يصل إلى بيته في قريته الحدودية ـ إلى أن يصطدم بشريط شائك، يحيط بالقنيطرة من جهة الجنوب، فيستوقفه مكرهاً، وهو يمسح دموعاً، تذرف من عينيه.

❖

/ يعودون بعد غياب طال، يعلو البشر وجوههم، تكاد تطفح عيونهم بدموع الفرح، وأنا النازح واللا نازح أعود معهم أفرح برجوعهم. لكنني لم أنزح بسبب الاحتلال عام 67. كنت أسكن الزفتية، التي أمست، بين ليلة وضحاها، تجمعاً واسعاً من البيوت المكتظة، عُمرت من اللبن، والطين

المخلوط بالتبن، فيما بينها زواريب ضيقة، لا تتسع لمرور أكثر من شخص أحياناً، حيث تسير المياه الوسخة عبر مجرى محفور وسطها، وإلى جوار كل بيت توجد حفرة صغيرة، تملؤها مياه الاستعمال اليومي، كثيراً ما نضحتها، بواسطة سطل، أو صفيحة تنك، إلى ذلك المجرى.

أتذكر أن بيوت النازحين أحاطت ببيتنا كالسوار. لدرجة أنني، حسبت نفسي منهم، إلى أن عرفت أنني لست من الجولان، بل نزحت أسرتي من قرية نائية على نهر الفرات.

كانوا، في مدرسة جلال الدين السيوطي، يعيرونني: "نازح" لأنني أسكن الزفتية، وفيها يفرقونني عنهم: "شامي" نسبة إلى أمي، لذلك كثيراً ما سررت بهطول المطر فجأة، مع أن الجو كان صحواً قبل قليل، كي ألتجئ إلى غرفتي، أقرأ وأقرأ، معتزلاً أهلي والآخرين. شيئاً فشيئاً رحت أتذوق حديث الذات....

شاءت الأقدار ظروفاً قاسية داخل أسرتي، فإذا أنا بلا حصانة من اهتمام أبي، وحنان أمي، لذا توجهت إلى رفاق الزفتية، أشاركهم ألعابهم التي يجعلها بعضهم لا تخلو من الخبث، كأن يُنزل أحدهم بنطالي بينما الآخر خلفي، زاعماً أنه يختبر قوتي، أمام أفراد شلته، وهم يصفقون في صخب، مشجعين على المزيد. فإذا ما انتفضت رافضاً الاستجابة لنزواتهم ازدادوا جلافة، ما يضطرني للدفاع عن نفسي باستخدام قبضتي. لكن أين لي منهم؟ وهم شلة الأشرار، كما يسميهم لطيف.

مرةً واجهت أحدهم بشجاعة، مما زاده إصراراً على هزيمتي، تحرضه الشلة إياها. فما كان منه إلا أن سحب قشاطه الجلدي المزود ببزبوزات حديدية، على عادة أحزمة تلك الأيام، وراح يضربني كيفما اتفق، تصديت له، حامياً، بيدي الاثنتين، وجهي ورأسي من لسعات قشاطه المؤلمة، وجاهدت للإمساك بطرفه، بعدما أدمى وجهي وذراعيَّ، وشطَّب ظهري.

خلال هذا الوقت، وبعدما حمي العراك بيننا إلى درجة الخطر المميت: هو يريد استرجاع قشاطه، فيحاول خنقي ضاغطاً على رقبتي بذراعيه، وأنا مستميت، أتشبث بالقشاط، خشية أن يعاود ضربي به، سارع لطيف إلى

بيتنا لإخبار أبي:" رح يمُوت ابنك".

ـ مين؟

صمت لطيف لبرهة، كأنما أُرتج عليه، وهو يرى أبا قادر في ضيافتنا، ثم نطق بعد إلحاح أبي:" قادر."

اسمه الحقيقي عبد القادر، لكنهم ينادونه هكذا.

❖

في تلك اللحظة كان القشاط معي، فأسرعت إلى والده، الذي تقدم والدي، وأنا أنشج بوجع:" والله العظيم ما عملت له شي."

فما كان من والدي إلا أن نهرني:" بسيطة بتظلوا صحاب"

بينما وبخه والده عن بعد:" لاه يا تور، أصغر منك، ويشلحك القشاط!"

ومع أنه توارى من وجه والده، تحفزت شلته للانقضاض علي كعادتهم، كلما انغلب واحد منهم. لكنني، لافتاً نظره إلى ما يحيكون لي، ناديت بأعلى صوتي:" القشاط عمي أبو قادر."

فأخذه من يدي المرتجفة، وهو يتوعد الشلة، التي راحت تحكم حصارها حولي:" ناويين تعملوا زلومية هلق. مش هيك؟"

ثم أمرهم:" اللي بيمد ايده عليه أكسرها، وأحمّله ياها. يللا انقلعوا من وجهي."

❖

هأنذا أجلس إلى طاولتي، يُسمَع صوت المطر على زجاج نافذتي المطلة على الطريق. فأمدُّ يدي إلى دفتر، أدوِّن عليه أمنيتي في صمت:" **أن أعيش في كنف عائلة، تحيطني بالدفء، ورفاق يحبونني، دون نيات خبيثة."**

لكن فجأة يدلف السقف، فوق ذلك الدفتر، قطراتٍ كبيرةً.

يوم عيد

ـ تشعرك القنيطرة بالإلفة

حتى.. وأنت غريب عنها.

أمام الباص تلتقي مريم جاراتها القديمات. فيصافحنها بحرارة، مع قبلات ندية، دموع سخية، وسؤال مجروح:" بعدك متذكرتينا؟"

تسترجع صورهن، كأنهن لم يفترقن سبع سنوات:" **معقول ينسى الواحد أهله؟"**

ثم يردفن:" يا عيني على هديك الأيام بالقنيطرة، ما أحلاها."

على حين غرة تتقدم منها امرأة عجوز منفوشة الشعر، تكثر التجاعيد على وجهها:" الست مريم. صحيح؟"

تهز رأسها بالإيجاب، فتتقدم تحتضنها بلهفة:

ـ كيف أحوالك يا غالية؟"

ـ كيفك انتِ يا أم حسين؟ وكيفها بنتك حسنة؟

تشير إليها، إذا هي جميلة، لا تشبهها، وقفت على بعد خطوات، تبتسم في فرح. فترتسم الدهشة على وجه مريم:" ما شا الله صارت صبية."

ترد حسنة مازحة:" بدك أظل صغيرة يا خالة؟"

وتتقدم تعانقها:" كيفك خالتي مريم؟"

-الحمد لله. وإنتِ كيف حالك يا حسنة؟

فتعقب أمها في غصة:" سبع سنين ما شفتك يا حبيبتي."

- أيام القنيطرة ما بتنّسى، يا أم حسين.

- الله يذكرها بالخير.

- وإنتِ تغيرتِ كثير.

- السنين تغيِّر الحجر. متذكرة قديش كنت حلوة!

وتقترب مريم منها، لتهمس في أذنها: "بعمرك ما كنتِ حلوة يا وطفة."

فتضحكان معاً. وبينما هما كذلك تنفصل امرأة عن مجموعتها، وتأتي تسلم على مريم، كذلك تفعل ثانيةٌ وثالثة. كل واحدة تأخذها بالأحضان، وتقبلها كثيراً، ثم يسلمن على بعضهن، ويتعانقن في حميمية، تكاد عيونهن تطفر بالدمع.

توشوش امرأة رفيقتها: "مش هي مرت الدكتور عزمي العايش؟ اسأليها: وين زوجها؟"

ترد عليها رفيقتها في إفحام: "نعم؟ ذكية والله: لو كان عايش كنتِ شفتيه معها، يا.. فهمانة!"

يلتصق حازم بأمه: "كلهن صحابك؟"

- هدول جيراني من أيام القنيطرة يا عمري.

وإذ ينتبهن إليه تسأل إحداهن: "مين هذا الشب الحلو؟"

- حازم ابني.

فتتقدم الجارات، يقبلنه بحرارة، لكن حين تقترب أم حسين يخاف منها، فيهرب. تلحقه، يفر بعيداً، وسط تعليقاتهن الساخرة: "خوّفتيه منك. الله يعين أبو حسين عليكِ."

- قولن: الله يرحمه، صارت عظامه مكاحل.

وتستغرب مريم ما تسمعه: "أبو حسين مات؟"

- من أيام النزحة يا أم حازم. الإسرائيليين قتلوه.

تعم لحظات حزن موجعة، فيبتلعهن صمت كثيف موحش، يفترس الروح، كأنهن استعدن الأحداث المؤلمة عام 67....

على طريق النزوح، أصر أبو حسين على البقاء، وعدم المسير مع الآخرين. وإذ أخذ طريقه بالرجوع إلى مدينة القنيطرة، صوب إليه أحد الجنود الإسرائيليين رصاص رشاشه، فسقط، مضرجاً بدمه، من أعلى التلة إلى أسفلها، على مرأى من الجميع.

بدت حينذاك فوهات البنادق والرشاشات المعادية - كأنها أفواه وحوش مفترسة، ستبتلع الناظرين إليها - وهي مصوبة إلى الرؤوس التي جحظت عيونها في رعب، وهلع كبيرين.

أخيراً تنسحب النسوة حزينات، بعد أن يقبلن مريم بحرارة أكثر. فما إن تودعها الواحدة منهن وتمشي، خطوة أو خطوتين، حتى تعود، لتقبلها من جديد. وإذ تأتي أم حسين، وهي تمسح دموعها الغزيرة، تقول في نشيج حزين:" يللا خيتي مريم أشوفك بعدين."

تقبلها، وتخطو بضع خطوات، ثم تعاود لتقبلها مرة أخرى. أخيراً تفطن إلى حازم، وقف بعيداً، لذلك تودعه بقبلة عن بعد:" بخاطرك حبيبي."

مع ذلك يمسح خده، ويمضي كأنما يتذكر شيئاً....

مساءً في أحد أزقة الزفتية تمسك بيده:" تعرف ليش اسمي نجمة؟"

يرفع رأسه، يجيل نظره مرات في الأعلى، فتسُر لبحثه عنها هناك، وتبتسم في انتصار:" برافو حازم. وهونيك أنا."

تشير إلى مكان في السماء. فيحدق طويلاً حيث أشارت:" أي ماني شايف شي!"

- طبعاً لأني معك هون.

وبينما يفكر بما سمعه، تحاول تقبيله، فيهرب منها، لذلك تودعه بقبلة عن بعد:" بخاطرك حبيبي."

حتى إذا ما غابت عن عينيه نظر إلى المكان، الذي أشارت إليه، فرأى نجمة تشع في بهاء.

❖

يجمع الشيخ جاسم طرفي عباءته، وهو يمشي في القنيطرة، باحثاً عن الأستاذ عامر، ثم يُحكم حطته البيضاء قائلاً:" مو أحسن نرجع لعند الربع يا ضرار؟"

إذ لا يرد عليه يضيف:" أخاف يصير بينا مثل فردة الحذاء بالبير."

- وشنها هاذي؟

- اسمع: يقولون إن الشيخ...

يقاطعه متسائلاً من أنفه بسبب العود الذي في فمه:" شيخ قبيلتنا؟"

- يا ولد: أي شيخ. هاذي قصة. اشترى حذاء جديد. تعرف شنهو الحذاء؟

ومع أن ضراراً يهز رأسه بالإيجاب:" إي إي أعرف."

إلا أن الشيخ جاسم يكمل ساخراً منه:" يعني صباط يا ضرار، وما راد يلبسه إلا يوم العيد، بس حرمته خافت بهالمزوية المقصبة، والصباط الجديد شي بنية مزيونة من القبيلة تعشقه، فلما جهز الشيخ حاله يريد يطلع عند ربعه لقى فردة اليمين، وفردة اليسار اختفت. دوَّر بكل مكان ما في فايدة. بعد عشرين عام كبر ابنه، وصار عريس، فلما راد الشيخ يطلع على الزفة، وهو عجوز ما تلحظه العين، برجله شاروخ قديم، قامت حرمته، وأحضرت فردة الصباط اليمين، وقالت له:" الفردة الثانية ببير المي المهجور، طلعها، والبسه، يا بعد عيني."

- إي وشنهو اللي صار؟ يسأل ضرار.

- قلت لك: عشرين عام، والفردة بالبير. طلعوها، بس كانت مهترية وتلفانة.

- والله يا شيخ ما أدري ليش تخبرني هاذي القصة البايخة.

ويفكر الشيخ جاسم لبعض الوقت، ثم ينتفض في وجه ضرار كعادته:" امش من وجهي سوَّد الله قراك، نسيتني ليش فتنا بهذا الهرج."

ويسيران كل في جانب من الطريق، بينما يحاول الشيخ جاسم تذكر سبب سرده لهذه القصة.

❖

تظهر بضع طائرات هيلوكوبتر في الجو، ترفع أعلام صنوف الأسلحة، فينبطح بسرعة نصر، واضعاً يديه حول رأسه لحمايته، كأن غارة جوية وقعت. إذ يراه أخوه اسكندر، الذي يمشي قربه، يدنو منه، ثم يوقفه في لين:" خيي نصر هي طياراتنا."

- يعني سورية؟

- إي سورية.

ويسأل نصر في شبه هذيان:" يعني صار عنا طيارات؟"

يهز اسكندر رأسه بالإيجاب، بينما يصمت نصر لبرهة ثقيلة من الزمن، كأنها دهر، وهو يقول داخله في غصة حارقة:" **أنا بحرب حزيران ما شفت إلا طيارات إسرائيلية بالسما، عم تقصفنا طول الوقت، وقتلت كل رفقاتي بالموقع"....**

يتذكر نفسه، وهو يلوب خائفاً في رعب داخل فتحة مستورة، حيث صُفت بضعة براميل مفتوحة على بعضها، وضعت في قعر الوادي المجاور لموقع تل الفخار، ثم أهيل عليها التراب، حتى سويت بالأرض من حولها: لقد واجه، مع رفاقه المقاتلين، لواء جولاني المدرع، لواء النخبة كما يسميه العدو، فدمروا 33 دبابة، وقتلوا أكثر من 100 جندي إسرائيلي، ولم يسمحوا للعدو بإحكام الحصار على مواقعنا الأمامية في الجبهة، وقطع خط الإمدادات عنها.

يومذاك راح نصر يهجس في سره:" **إذا كنا بموقعنا هذا قتلنا كل هالعدد من الإسرائيليين، ودمرنا هالدبابات كلها، فبالتأكيد انكسرت إسرائيل، وحررنا فلسطين."**

بعد ذلك تقوم الطائرات الإسرائيلية بأعداد كبيرة، بحرث الموقع شبراً شبراً، بالقنابل الثقيلة، والصواريخ، وقذائف النابالم، فسقط رفاقه من حوله مضرجين بدمائهم، ودمر الموقع بالكامل.

يقول له اسكندر، وهو يجذبه كي يسيرا معاً:" يللا خلينا نمشي لعند الساحة العامة مطرح ما بدو السيد الرئيس يرفع العلم."

- علم شو؟

ـ العلم السوري فوق القنيطرة.

ـ ليش تحررت؟

ـ لكان نحنا وين هلق؟

رغم ذلك يظل نصر يرقب الجو في حذر، وهو ينفض التراب العالق ببذته الكالحة، المثقبة في أكثر من مكان. ثم يضع قبعته العسكرية، التي يحملها بيده، على رأسه، كيفما اتفق. بينما يستعيد الرقيب الأول طلعة في حنين المعارك التي حصلت قبل يوم السادس من تشرين الأول عام 73....

ـ لم نكن نخاف، رغم هزيمة حزيران، بل تعلو أصواتنا، بالتهليل والزغاريد، كلما ردت طائراتنا سرياً معادياً، اخترق أجواءنا، أو عندما تقصف طائراتنا أحدَ المواقع الإسرائيلية على الخط الأمامي للجبهة. وكم نحزن حين تكون الطائرة المصابة سورية، أو ذاك الموقع المقصوف لجنودنا."

هو ذا يحدث ـ بصوت مسموع الآن ـ زوجته الشامية، ذات النظارة الطبية السميكة، عن الجولان الذي مر منه كل الثوار إلى فلسطين:" أكلوا من خبزنا.. وشربوا ماءنا يا هدى.. قاسمناهم بيوتنا.. وأوصلنا لهم البواريد والذخيرة إلى فلسطين.. على ظهورنا.. من بين الدروب الوعرة.. والوديان الصعبة."

تنظر إليه مستغربة أن يفعل كل هذا، وهو الآن في مقتبل الشباب. فيردف مستدركاً:" هيك خبرني أبوي."

ثم يسهب في الحديث عن زمن المقاومة الشعبية قبل احتلال الجولان، حين كان الفلاحون يعملون في أراضيهم نهاراً، وفي الليل يحملون بنادقهم ساهرين على حماية تلك الأراضي، من أي هجوم إسرائيلي مباغت، بعدما بنت لهم الدولة مساكن نموذجية، كي يستقروا فيها، ومددت الكهرباء والمياه إليها، مستعيداً في فخر واعتزاز أيام الوحدة مع مصر، إذ كانت قواربنا السورية تخوض في بحيرة طبريا حتى منتصفها دون أن يجرؤ الإسرائيليون على اعتراضها.

❖

يقف أبو عزيز، كأنه في الجنة، مزهواً بعباءته البيضاء، عند مدخل بيته، واضعاً الركوة النحاسية على المصطبة أمامه. ها هو يبتسم بفرح غامر، وتشع عيناه في ألق، يهنئ الجميع من حواليه بالعودة، وتحرير مدينة القنيطرة، ثم يدعوهم إليه بإصرار: "القهوة المرة ترد الروح يا أخوان. والله لتتفضلوا."

فلا يلبي أحد منهم دعوته، كأنه يتحدث بلا صوت. لذلك يجلس مستوحشاً ـ كعادته أيامَ الزفتية ـ على كرسي خيزران مهلهل، وكلما مر به شخص، أي شخص، وقف في وجهه متهللاً: "وعليكم السلام." لكن بلا رد أيضاً كأنه طيف.

فجأة يحس بنفسه يرتفع عن الأرض كريشة في الهواء، مع أن وزنه ثقيل، وكرشه بارز، بينما بلبله يجتاز ـ رغم أن الباب مفتوح ـ قضبان قفصه بسلاسة، كما لو أنها غير موجودة، وهو يغرِّد، لكن ببحة صامتة، لا تُسمع، ويغشى الكون من حولهما ضباب شفيف.

❖

/ كانت الطريق طويلة ومرهقة، بسبب الازدحام، وكثافة السيارات من كل الأنواع، حتى إذا ما وصلتُ إلى مدينة القنيطرة، وتقدمت مني نجاة، أحسست بفرح غامر، وأنا أنظر إليها، فأراها لم تتغير رغم مضي سنوات على غيابها. بانت تلبس ثوباً أبيض، وتضع على رأسها شالاً أزرق. فأشرق وجهها هالةَ نور. لكن حزناً هام حول عينيها، كأن مأساة وقعت. نظرتُ حولي، فلم أرَ إلا الخراب. صُدمت أكاد أسقط من طولي. فقبلتني بين حاجبي: "حرارتك مرتفعة."

*ووضعت يدها على جبيني للتأكد. قلت: "من الصدمة." وحملتُ جسدي المتهالك، عيني الدامعتين، ومشيت، أشعر بالخوف بعد أن تركتني: "**كيف أدخل مدينة، لا أعرفها، بلا زاد من الحب؟**"....*

وحيداً رجعت أحرس ذكرى من ذهب: نجاة عند الحنفية الجديدة، التي دشنتها بلدية الميدان على طريق الزاهرة، ساقان ممشوقان، تحركان شهوتي، عيناها تأتلقان مثل ضوء باهر في آخر النفق ـ إنهما أيقونتي طوال

العمر ـ شعر طويل ناعم، يهفهف كالحرير، وأنا أغني لعبد الحليم حافظ: " بتلوموني ليه؟"

كانت البيوت مخربة، الأشجار محروقة، رائحة تخريب في كل مكان: " لا أرى بيتاً قائماً، أو زهرة متفتحة في هذه المدينة، التي كانت عامرة بالحيوية والنشاط."

جلست على حجر، أنظر إلى اللاشيء، فإذا شيخ، لحيته بيضاء طويلة، يمشي في تؤدة، حسبته التاريخ إذ قال: " في الثامن والعشرين من نيسان عام 1937 هجم الطيران النازي على مدينة جيرونيكا الإسبانية، ودمرها بالكامل، فباتت أطلالاً موحشة."

قلت: " وخلدها بيكاسو في لوحة شهيرة، أسماها الجيرونيكا، على ما أعتقد."

يهز رأسه: " صحيح. جيرونيكا بيكاسو تعبير عن الإنسان في مقاومته لمدمري حضارته."

بعد ذلك راح يعاين مدينة القنيطرة.. بيوتها.. مدارسها.. مساجدها.. وكنائسها.. فظهر الدمار شاملاً: جدران مهدمة.. أعمدة مكسرة.. سقوف متصدعة.. خراب وأنقاض في كل مكان.. حتى المقبرة نبشوها.. وسرقوا من أفواه الموتى أسنانهم الذهبية.

يشاهد بيتاً.. يقف على عضاضة واحدة.. فيبتسم ابتسامة صفراء.. شجرة يابسة.. حولها عشب محروق.. مشفى الجولان الكبير.. عليه آثار رمايات القذائف والرصاص.. كنيسة استهدف صليبها.. ومئذنة اقتلعت هامتها.

علقتُ: " جعلوا من بيوت العبادة أهدافاً عسكرية، يصوبون عليها يا سيدي."

تطالعنا مجموعة نساء، يجلسن على أنقاض بيوتهن، متشحات بالسواد، وقد جلل الحزن الأسود وجوههن. فأردف: " لكن القنيطرة لم تتدمر خلال الحرب، كما تعلم!"

يرد عليَّ:" خراب واحد، يحدثه الهمجيون في كل أنحاء المعمورة يا ولدي."

كانت الريح تعوي في صخب بين البيوت المخربة، كأنها أم فُجعت بأولادها، فأستند الشيخ إلى جدار مهدم، ثم مسح وجهه، يزيل عنه غبار الجريمة، مردفاً في حكمة بليغة:" ينتصر المعتدون بعض الأحيان، ويسود الظلام، فترتفع راية المغتصب. لكن هناك دائماً بصيص أمل في نهاية المطاف."

*وأضيفُ داخلي:" **لتشرق شمس من جديد، ويكتمل النهار.**"*

مشى الشيخ، وقد تقوس ظهره أكثر من ذي قبل، فاحدودب بشكل واضح، وتهدل رأسه حتى لامست ذقنه صدره، ثم قال في غصة خانقة:" على المدينة أن تعود عامرة بالحياة، كما كانت، فعمروها."

أخيراً غاب تشيعه بكائية حزينة، تمتد من جيرونيكا الإسبانية إلى مدينة القنيطرة السورية./

❖

مجدداً يحدِّث الرقيب الأول طلعة زوجته الشامية عن قريته المطلة على بحيرة طبريا:" وقت وصلوا اللاجئين الفلسطينيين قريتنا رحنا نمازحهم:"جبتوا لنا البلا." فيردون واثقين:" يا جماعة، جاييكم البلا فينا، وبلانا."

ثم يتذكر في حنين مرَّ ذلك اليوم العظيم، إذ كانت تُبَثُّ الأغاني الحماسية من إذاعة دمشق:" يوميتها يا هدى حوّم طيرانَّا بالجو.. وراح يقصف اللانشات الإسرائيلية الموجودة بالبحيرة.. لما استعصى واحد منها.. بعدما رمى عليه الطيار أكثر من مرة.. وما أصابه.. ارتفع لفوق في السما.. فظن العساكر على اللنش أنه انسحب.. وهللوا مسرورين.. لأنهم قدروا يخلّصوا حالهم. فجأة ظهرت من جديد الميغ 17.. لتنقض على اللنش المعادي مثل الصاروخ.. فتدمره وتتدمر معه. فيما بعد عرفت اسم الطيار البطل: غازي الوزوازي."

❖

تمشي مريم بضع خطوات، وهي تتذكر زوجها الدكتور عزمي، يرد على الهاتف أيام القنيطرة بعصبية:" يا أخي ابنك آخذ ضربة شمس، لازم أول شي نخفض الحرارة بكمادات المي الباردة، بعدين يمكن يحتاج إبرة."

يردف، بعد فترة إنصات للمتصل:" لا. مش ممكن أعطيه إبرة قبل ما تنخفض حرارته."

ثم حين يشكو لها معاناته مع مرضاه، إذ يطلبه أحدهم على أحر من الجمر، ويسرع إليه متعجلاً كالبرق، فإذا هو مجروح جرحاً بسيطاً، لا يستدعي الاستعجال. ويسألها:" شو رأيك؟"

أوعندما يقول لمريض:" هذا الدوا ضروري."

يرد عليه:" ما موجود عندك؟"

-لا. صدقني.

-دوِّر منيح يا دكتور، بركي تلاقي علبة منه.

أو عندما كانت تقول هي لمراجع:" الدكتور غير موجود."

فيرد عليها في استجداء:" كرمال الله ست مريم فيقيه من النوم."

تصمت، يعييها الرد، فيردف:" طيب إذا كان بالحمام أنتظره."

تحدس داخلها في حنين:" **كان يحكي لي متاعبه، كل مساء وقت نشرب الميرمية، تحت الياسمينة** "

وتنقز إذ يأتي حازم يمسك بيدها. تنظر خلفها تشاهد حسنة ابنة أم حسين، تحتج على أمها في عصبية ظاهرة:" تأخرتِ يمه."

ترد عليها:" هي مرت الدكتور عزمي العايش، فضايله على كل الناس."

ثم تردف، وهي تهز رأسها في حسرة:" بس شو الفائدة كنتِ صغيرة، وما رح تتذكري قديش تعب معك"....

تأتيان مساء باتجاه تلك العيادة، التي تظهر مضاءة بوضوح.

ثمة رجال يخرجون، بينهم عجوز، يظهر في إعياء شديد، رغم ذلك يلهج بالدعاء:" الله يوفقك، ويكثر من أمثالك يا دكتور عزمي."

يعاين الطفلة الصغيرة حسنةَ، وقد بدا وجهها مصفراً، ثم يُحضر من خزانة الأدوية الخشبية علبة، يفتحها ويخض الزجاجة التي بداخلها، ثم يُخرج ملعقة، يملؤها شراباً، يقدمه لحسنة. تمانع أول الأمر، فيداعبها في مرح، حتى تشربه من يده. بعد ذلك يقدم علبة الدواء لأمها: " كل ست ساعات معلقة يا أم حسين".

تحاول أن تدفع له أجرة، لا يقبل، بل يأخذ في مضاحكة حسنة، التي بدا عليها الارتياح. فانشرحت أساريرها. أخيراً يودعهما بابتسامته الطافحة حتى الباب. وتخرجان من العيادة، بينما القمر في السماء بدر، يضيء ما حوله في ابتهاج.

❖

تبتعد أم حسين مع ابنتها حسنة، التي ترفع صوتها بمودة زائدة:" مع السلامة خالتي مريم."

فتبتسم لها، ويلوّح حازم، بكلتا يديه الصغيرتين، عن بعد. مع اقتراب أم إدريس منهما، وهي تلوك علكتها الكبيرة كالعادة، وقد لطخت بالحمرة شفتيها، فسالت الكحلة، كأنها الدمع، على خديها اليابسين. تنظر إلى مريم شزراً:" إي منيح إننا رجعنا على البلاد، لحتى نتّقي الله."

- ألف الحمد لله.

تصمت لحظة، ثم تقول، وهي تتلفت حولها:" هي رجعنا بتقولي زوجك عايش، وينه؟ ورجيني ياه!"

لا ترد عليها. فتردف:" ولا ضيعتيه مثل ما ضيعتِ أبو مهيب؟"

- روحي من وجهي أحسن ما فرجي عليكِ الناس.

لا تعبأ أم إدريس بالتهديد، بل تضيف:

- وماني شايفة حبيب القلب، تايه أفندي، معك!.

فتقف مريم في عصبية، تصفعها بقسوة، ثم تلوي رأسها بقوة، لتسقطها أرضاً، وترتمي فوقها، صائحة في غضب:" بالزفتية تحملتلك، بس هون راجعة على بيتي، وما عدت أسمح لمخلوق، يحط من كرامتي."

تأتي امرأتان تبعدان مريم عن أم إدريس، التي ينظر الناس إليها بإشفاق، وهي مطروحة على الأرض، فتقوم في تثاقل، تنفض الغبار عن ثيابها، ثم تلم شعرها المنفوش، وهي تطقطق بعلكتها، كأنه لم يحدث شيء.

تُخرِج مرآتها وقلم الكحلة من صدرها، تكحل عينيها، وتطلس شفتيها بالحمرة من جديد، مع قرصات عديدة لخديها، حتى يتوردا في حمرة زائفة. ثم تقبل المرآة عدة قبلات ناعمة بلطف زائد، فتنطبع الحمرة على سطحها، تتمعن فيها للحظات. بعد ذلك تبصق عليها في نفور، وأخيراً تمسحها بطرف كمها، ثم تعيدها إلى صدرها في حنان، متوجهة صوب مريم بصوت عال:" كله مشان الأهبل تايه، مش هيك؟"

فتقوم لمهاجمتها من جديد، قائلة:" يلعن أبو الإسرائيليين اللي خلوني أشوفك."

لكن حازماً يمسك بثوبها:" خلاص يمه. سيبيها، هي عادتها. مش هيك؟"....

ليست جميلة، لكنها كانت غنية، فجاء يخطبها الشاب إدريس الأصغر منها بسنوات، أقنعها أنه يحبها، لذلك أغدقت عليه مالها، بعدما توفي والدها، وترك لها قطعة أرض واسعة، ودكاناً كبيراً. شيئاً فشيئاً باعت الأرض، ليشتري بيتاً في دمشق، راح - على حد زعمه - يؤثثه لهما. لكنه تزوج فتاة أصغر منه بكثير، وأسكنها فيه. يومذاك بكت طويلاً، حزن قليلون عليها، وشمت الكثيرون، فراحوا ينادونها، زيادة في الإغاظة، أم إدريس، إذ لم تنزع خاتم الخطبة من إصبعها، بل نقلته إلى يسراها إعلاناً لرفضها أي خاطب، يتقدم لطلب يدها، حتى تقدمت إسرائيل عام 67، احتلت الجولان، ومعه دكانها، وبالكاد أحضرت سعدة، هذا هو اسمها، ما مكنها من شراء بيت صغير في الزفتية. ولم يتقدم أحد لخطبتها بعدما سرق إدريس السراج والفتيلة، كما يقال. منذ ذلك الوقت بقيت تسمى أم إدريس، رغم أنها لم تتزوج. وصارت تمتاز بلسانها السليط" الطويل على الفاضي" مع أن دمعتها حاضرة على الدوام.

يتمعن حازم في وجه أمه، ثم يعلق، بعد برهة اندهاش:" قويانة هون!"

- والله صحيح. كأني صرت قوية لما رجعت على القنيطرة.

تجلس على صخرة قريبة، تغمض عينيها، كأنها تأسف لما جرى:" يلعن الغضب وساعته."

بينما يدخل حازم كنيسة، وينظر باستغراب إلى الجدران، التي أصبحت عارية، بعدما سُرق رخامها. تدلف خلفه، وتتفاجأ إذ ترى المصابيح الكهربائية مسروقة أيضاً:" **الإسرائيليين مش تاركين فيها شي.**"

تعاين المكان، مشيرة إلى أعلى:" حتى الجرس سارقينه!"

- هي مدرسة يمه، وفيها جرس؟

- لا يا حازم. هي كنيسة. والجرس مشان الناس يجتمعوا للصلاة. يعني مثل الأذان عندنا.

ثم تردف مع تنهيدة عميقة:" هي من أحلى الكنائس. لو إنك تتفرج عليها بالليل، يا حازم، وهي مضوية!"

تسرح بفكرها متذكرة الدكتور عزمي، وهما يتجولان حولها، مضاءة بالأنوار المبهرة، كأنه نهار....

كانا يسيران سعيدين، وقد علق خيط الكاميرة حول رقبته، فراحت تتمايل أمام صدره. يصورها عدة مرات، وتصوره. ثم يترقبان الطريق، فإذا بمطران قادم، يستوقفه طالباً منه أن يصورهما معاً. لكن المطران يتعرف إليه:" الدكتور عزمي. صحيح؟"

فينتبه ناظراً إليه بتمعن:" المطران انطون. كيف حالك؟"

ويتصافحان بحرارة. ثم يصورهما، بينما يُسمع صوت الجرس، يرن بانسجام.

❖

إذ يخرجان من الكنيسة، يحرر حازم يده من يد أمه، التي ما زالت تسرح في ذاكرتها باستمتاع، ويروح مستطلعاً المكان الذي لم يره من قبل. فتناديه:" هيانا بآخر القنيطرة، تعال أدلك على بيتنا."

❖

بوابة خشبية محطمة، نوافذ بلا شبابيك، بيت مخرب على ناصية الشارع، تسير صوبه، حتى إذا ما تأملته بتمعن، شهقت في غصة موجعة:" يا خسارة." مع ذلك تمضي إليه، تستقبله في تلهف، كأنها تعثر على كنز ثمين، فقدته منذ سبع سنوات عجاف:" **بيتي قطعة من روحي**."

فترتسم على محياها ابتسامة ساطعة، وهي تتلمس وجه المصطبة الخارجية بحنان.

ينظر حازم إلى البيوت المدمَّرة، والمتشابهة فيما بينها. ثم يسأل في استغراب:" كيف عرفتيه يمه؟"

- هو ناداني يا حازم.

تدور حول بيتها الذي أُنزل سقفه، وتحولت بوابته الجميلة إلى كومة أحجار. وتهمس:" شميت ريحته، سمعت صوته، عم يقول: أنا هون يا مريم انتِ وينك؟ صار لي سبع سنين ما شفتك."

وتنظر إلى حازم مكملة حديثها:" ومين هذا الولد الحلو اللي معك؟"

يبتسم:" عم يسألك عني يمه؟"

تغصُّ:" وعم يسألني: وين الدكتور عزمي؟"

فيعاود الاستفسار غير مصدق:" هلق هو عم يقول هيك؟"

تمسح دمعتها:" اي حبيبي. ما هي البيوت مثل البني آدمين، تحن لصحابها اللي عمروها، وعاشوا فيها."

تبحث عن مكان، تدخل منه، تجد ثغرة في أحد الجدران الجانبية. حين تصبح في الوسط، تستنشق الهواء بعمق، منتعشة في فرح غامر، ثم ترنو إلى إحدى الغرف المهدم جزء منها:" **هي غرفة الضيوف، لسعها مطروشة من أحسن ما يكون"**....

يدخل عزمي، يشاهدها تطرشها، فيصيح في عصبية منزعجاً:" نحنا مش متفقين هيك يا مريم."

- هي غرفة ضيوف يا دكتور، ولازم تنطرش كل سنة.

وتمازحه:" بعدين أنا عم أشتغل انت ليش متعب حالك."

لكنه يبقى متوتراً ، ويشير في تخوف إلى بطنها المنتفخ:" لتكوني تعبّت الخانم."

- ومين قال لك إنها بنت؟

- يا ستي بنت، وبدي أسميها ريما.

فتصمت في امتعاض، ثم تردف:" يللا غيِّر ثيابك، وتعال ساعدني يا أبو حازم."

ويروحان يطرشان تلك الغرفة معاً ، في محبة بادية وسرور.

❖

يباغتها حازم، تبتسم في حنين:" ما لك يمه؟ كلما إجت سيرة أبوي تشردي، بعد شوي تضحكي!"

فتضمه إلى صدرها ، ثم تقبله بحنان، لتعود ، وهي مازالت تمسد على بطنها ، كي تشرح له أقسام البيت، الذي يراه للمرة الأولى:" وهون كان أبوك يمد بساط، وينام تحت الياسمينة."

تغص بالكلام، وهي تراها يابسة:" هياتها بمحلها. بس يبسانة يا حازم."

تجلس على بقايا مصطبة، ناظرة إليها بحنان. فيقول:" هي أكبر من الياسمينة اللي عنا في الزفتية يمه."

❖

يلتقط ميشيل عدة صور للمدينة، تُظهر التخريب المتعمد، وهو يتحسر في ألم:" شي ما بيتصدق يا موفق. لشو كل هذا الحقد؟"

- مع كل هذا رجعنا ميشيل.

بدت سماء القنيطرة مزدانة بسرب واسع من الحمامات البيض، فخلع مهيب نظارته السوداء، ونظر عالياً ، يحدِّث نفسه:" **نيال هالحمامات**."

مسح يديه ببشكير، علقه بزنار جلدي خفيف، ربطه حول خصره، ثم عاود وضع نظارته الشمسية على عينيه الدامعتين:" **بالتأكيد ما إلهن أب ظالم مثل أبوي"....**

لقد مشى على غير هدى، في دروب لا يعرفها، حتى إذا ما قرر العودة إلى بيته، ولم يعرف الطريق، وجد نفسه أمام رتل من الحافلات العامة، يصعد إليها المواطنون فرحين، فصعد معهم، منطلقاً باتجاه مدينة القنيطرة المحررة. وهو يتخيل الآن أمه المسكينة، كعادتها تبرر غيابه:

- أبو مهيب، من وقت ما نزحنا، مش عاجبه العجب، فهرَّب ابنه، من كثر ما قسي عليه.

ثم تردف في غصة:" الله ينتقم من الإسرائيليين اللي خلُّوا يصير فينا هيك."

❖

فجأة تعلو التكبيرات هادرة:

" الله أكبر كبيرا

والحمد لله كثيرا

صدق وعده

ونصر جنده."

فيسأل حازم:" هاي صلاة العيد يمه؟"

- إي يمه ما احنا بيوم عيد.

لذا يصعد إلى أعلى نقطة في سطح بيته المهدم، وينظر من هناك إلى حيث أصوات المواطنين تهدر في قوة وإباء. بينما يسجل الصحفي موفق بصوته الجهوري:" كان لابد من صلاة شكر، فتداعينا إلى كنيسة الروم الأرثوذكس، الوحيدة التي صمدت في وجه الخراب الشامل. ليلتئم شمل المواطنين، على اختلاف طوائفهم وأديانهم، يصلون خاشعين مبتهجين في هذا اليوم المشهود."

ويهمس المصور ميشيل في أذنه، بعد انتهائه من التسجيل:" أضِف من عندي: وكأنه المسيح، بعد صلبه سبع سنوات، قام."



سكة سفر

ما كادت مريم ترتاح قليلاً على المصطبة القريبة، متأملة ما حولها في أسف، حتى قامت، تزيح الأنقاض عن مدخل بيتها بهمة، يساعدها حازم. وبينما هو يرفع حجراً كبيراً يناديها: " تعالي شوفي شو لقيت!"

تسرع إليه، ترى يافطة حديدية، ترفعها عن الأرض، ثم تنظر إليها في حنين، وتقرأ خطوطها الممحية بعض الشيء، فيتناهى إلى مسامعها صوت المطربة شادية:

" قولوا لعين الشمس ما تحماشي

لَحْسَنْ حبيب القلب صابح ماشي"....

كان ذلك في عز الظهر، تغفو إلى جوار مذياعها التوشيبا، يشدو داخل محفظته الجلدية. وإذ تسمع صوت مكابح سيارة قريبة، تقف متثاقلة. ثم تفتح البوابة، لتنظر إلى عزمي من تحت تلك اليافطة، وقف مرتدياً، للمرة الأولى، بذته الخاكي قرب سيارة جيب عسكرية.

انتبه إليها، فرجع يودعها: " ادعي لي حبيبتي."

ـ الله وقلبي معك.

يشير إلى بطنها المنتفخ: " خلي بالك على ريما."

ترد عليه: " رجعت لسيرة ريما: حبيبي هذا ولد، واسمه حازم على اسم جده."

❖

تتأمل اليافطة في لهفة، تثبتها موضعَها المعتاد إلى جوار البوابة. ثم تنفض عنها غبار سنوات الاحتلال، فتبدو جديدة، لم تتحرك من مكانها، كُتب عليها: عيادة الدكتور عزمي العايش....

كان يود أن تنجب بنتاً:" البنت أم ثانية لأبوها يا مريومة." هكذا كان يردد، وهو يدلعها.

لذلك أخذ، خلال الأشهر الأخيرة للحمل، يتوسد حضنها، حتى إذا ما توالت رفسات الجنين، على يده، بدأ الغناء بصوته الشجي:" يللا تنام ريما..."

ترد عليه:" روح يا حازم لا تصدق/ بضحك ع بابا تا ينام."

يا لصباحات الميرمية جالسَين على المصطبة. ثم قيلولته ما بعد الظهر، تحت الياسمينة، أزهرت في فرح، كأن رف حمام أبيض، حطَّ على البوابة وسط الهديل.

- تعرفي منين أصل تسمية الميرمية يا ست مريم؟

- منين؟

- هي ستنا مريم، أم السيد المسيح، لما هربت من اليهود كانت تعبانة وعرقانة، فراحت تقطف هالعشبة، وتمسح فيها عرقها. لهيك سموها ميرمية.

❖

تأخذ مريم في سد الثغرة المفتوحة في أحد الجدران الجانبية، كي تفتح ممراً أمام البوابة من الداخل، بعدما علقت مذياعها على الياسمينة، وشغلته، فانطلق هادراً، يتحدث عن بطولات جيشنا في حرب تشرين، وما بعدها:" لقد التحمت الدروع وسط بركان يتفجر بكل أنواع الحمم، فلم يبقَ شبر من ربى الجولان بلا نار، وضحايا، وحطام، لينكشف ذلك كله عن أرض غطيت بالحديد، والدم. فقد كانت طائرات الهيلوكوبتر، في أثناء اشتداد المعارك، تقوم بمهمات انتحارية، فتنقض بحمولتها على دبابات العدو، لتدمرها، وتتدمر معها. لقد استمر القتال عنيفاً شرساً، طوال81 يوماً، كبدنا العدو خلالها خسائر فادحة. ولتعلموا أن صواريخ السام ليست وحدها البطل، فقد أثبت طيارونا الأشاوس حضورهم المشرف"

❖

وتتذكر مريم صورة المواطنين، وهم يقدمون الهدايا لجنودنا البواسل، في أول أيام عيد الفطر، بينما المعارك متواصلة....

يومذاك لبست أجمل ما لديها من ثياب زاهية، وقالت لحازم، وهي تمضي باتجاه موقع عسكري قريب:" بكل عيد أشتري لك ثياب جديدة، بس هذا العيد لازم نشتري هدية للمقاتلين."

فسألها:" وأبوي ما له هدية يّمه؟"

- لما يرجع أبوك هي أكبر هدية يا حازم.

❖

يتناهى صوت المذياع إلى أسماع ناجي، الذي رُفّع بعد انتهاء الحرب من رتبة ملازم إلى نقيب، فيسترجع بداية الأحداث عام73:

- لابد من الاعتراف أن الحرب كانت مفاجأة لي، فلقد كنت من الجيل الذي قصمت ظهره هزيمة الـ67: نحن أصحاب حق، ومصممون على استعادة أراضينا السليبة، مرددين ذلك صبحَ مساء، لكننا مع ذلك لا نحارب.

- كأننا نغطي على عجزنا يا سيدي.

هكذا علق المساعد عثمان متجهماً، وهو يعقد ما بين حاجبيه الكثيفين، وقد أسبل شاربيه نحو الأسفل حتى غطيا شفتيه. لكنه أخبرني، بعدما قطعت إجازتي:" أخيراً رح نحارب."

وأخذ يرفع شاربيه المسننين نحو الأعلى، ترتسم على شفتيه ابتسامة وضاءة:" بدنا نعبر هذا الخندق الملعون."

ويقصد خندق الـ م. د. الذي حفره العدو بعمق ثلاثة أمتار، وبعرض يقارب خمسة أمتار، أقام وراءه ساتراً ترابياً بارتفاع خمسة أمتار أخرى، ملأ الأرض بعده مهالك: أنفاقاً، ومراصد مزروعة بالألغام، محمية بسيول قذائف جهنمية، من نقاط استناد، ومنعات حصينة، سمّاها خط آلون.

رغم ذلك كله اجتزناه في ساعات قليلة، وراح جنودنا يلاقون نيران العدو بأجسادهم، بعدما ذهبت إلى الجحيم تلك الخواطر المتشائمة، والعجز الذي كنا نحسه، ونحن قعود في ثكناتنا، نتدرب، ونتدرب، استنفار وراء استنفار.

ثم بدأ الهجوم المعاكس الإسرائيلي. وأصبحت النيران المعادية تحاصرنا،

ونحن بعيدون عن القوات الصديقة، منفردون في هذه البقعة من الأرض، دون حماية تُذكر. ففارقني مرحي المعتاد، وشعرت بحزن ثقيل. لكن المساعد عثمان أخبرني بأن إخواننا في مصر عبروا قناة السويس بنجاح. ففرحت، وأنا أتخيلهم هناك: رجال شجعان من الجنود، والضباط، وصف الضباط، صنعوا معجزة العبور، التي خطط لها، وقادها بجدارة، رئيس أركان القوات المسلحة المصرية، الفريق سعد الدين الشاذلي.

ويتأوه النقيب ناجي في غصة حارقة: "**صورتك ما فارقت خيالي ولا ثانية خلال هذه الساعات العصيبة يا حبيبتي.**"

تذكره مشاهد التخريب في القنيطرة بشجرة الزفتية الوحيدة الجرداء، التي عاش مثلها وحيداً من غير عبير....

شعر أحمر ناري ـ مثل طبعها الحاد ـ منسدل حتى أسفل ظهرها، قميص مفتوح عند مفترق النهدين، تنورة مخمل سوداء، ترتفع قليلاً عن الركبة، وكندرة صغيرة، مفتوحة من الأمام، لتُظهر جمال قدميها، والطلاء الأحمر المغري لأظافرهما، تخلعها لترقص تحت المطر، وهي تلتقط قطراته بلسانها الدافئ.

❖

تجلس مريم ساندة رأسها إلى الجدار ترتاح قليلاً، لكنها تغفو للحظات، فإذا الناس في قرى الجولان ومدنه، يعملون بجد: الرعاة مع أغنامهم وماعزهم.. الفلاحون يحصدون ما زرعوه.. بينما مدينة القنيطرة عامرة بالحياة.. كما عرفتها: بشر يعملون ويحلمون بالغد الجميل.. فتية يتقافزون في الشوارع والحارات.. يلعبون ويمرحون....

أرض تقول التاريخ في صمتها، ترسم على عتبات بيوتها أطياف جدود، يرفعون رؤوسهم عالياً صوب الشمس، ليسقط مجد زائف: أسطح فُرشت بملاحف بيضاء، كي تقصف الطائرات بيوت الجيران، وينجو بياض فاضح مرذول.

وهو الموعد، تحدس داخلها: "**سماء لا تبخل بالمطر، أرض تلد البطولة كل حين، بانتظار نهار يكتمل، وصباح لا يخلف موعده غداً.**"

يحمل حازم الغالون، راكضاً صوب الباص. فيما أمه تتأمل الياسمينة ملياً، ثم تمسد على جذعها: "**يا ريتك معي يا أم مهران**"....

كعادتها تفرغ برميلها الكبير في عدة طناجر، وهو فوق رأسها، ثم تقول: "تعرفي خيتي مريم حلمت فيكِ الليلة الماضية؟"

ـ فيِّ أنا؟ خير بالصلاة على النبي؟

ـ حلمت أنا وياكِ قاعدين تحت ياسمينة يابسة. بعدين قمنا نمشي. فجأة صادفنا نهر، نزلنا فيه. بس ما بعرف: شي مسكني. فوقفت محلي. وأنتِ بقيتِ ماشية للضفة الثانية. وقعدتِ عليها، بايدك قنديل يضوي مثل الشمس، وصرتِ تنادي لي. وأنا أخدني النهر.

ـ الله يجعله خير يا رب. وشو تفسيرك للمنام؟

ـ المعنى واضح. رح ترجعي على القنيطرة، وتلاقي زوجك. بس أنا...

تصمت في غصة خانقة. فتقول مريم: "ألف بعيد الشر عنك. إن شا الله نرجع سوا."

وتقول داخلها الآن: "**هي رجعت فعلاً يا أم مهران، وقاعدة تحت الياسمينة مثل ما حلمتِ.**"

❖

تمر أم الجاج، تحمل، على رأسها، قفصاً فارغاً، وراءها سبع دجاجات، وخمسة صيصان، مع ديك أسود، تتبعها، في الخلف، بناتها الثلاث. فيسألها الشاب الذي احتج عليها في سيارة الشحن، ممازحاً: "بتبيعيني هالجاجات؟"

تحدجه بنظرة قاسية من رأسه إلى أخمص قدميه: "شوف لك شغلة، تتسلى فيها، أحسن لك."

فينصرف مبتعداً عنها، لا يلوي على شيء. وتمضي في طريقها، تنثر لهن، بين الفينة والأخرى، كمشة حبوب من كيس ورق تحمله، وهي تهمس لنفسها: "**أنا روحي بالجاجات**"....

وعت على الدنيا، والدجاجات في بيتها، فراحت تؤنثهن عندما تحكي عنهن. كانت صغيرة، تضربهن بعصا جدتها، لدرجة أنهن هاجمنها ذات مرة

مجتمعات، فألقت بالعصا بعيداً، وهربت إلى حضن والدها.

تتذكر أن ديكاً مزركشاً كان يلاحقها كلما لبست ثوباً أحمر، ويروح ينقرها، فتهرب أمامه مرعوبة، إلى أن رآه والدها، يركض خلفها كالمجنون، فما كان منه إلا أن ذبحه، فحزنت كثيراً، ورفضت أن تأكل من لحمه، لأن الدجاجات حزنّ عليه.

حتى قامت الحرب، وراحت الطائرات، والمدافع الإسرائيلية تلقي حممها على مدينة القنيطرة، وتدمر البيوت فوق رؤوس أصحابها، فبدأ الناس ينزحون.... منهم من ركب حصاناً، أو حماراً حمّل عليه أولاده، فإن كانوا كثيرين ركّب الصغار، ومشى مع زوجته وأولاده الكبار. وآخرون ركبوا عربة جرار" تراكتور" أو سيارة شاحنة، افترشوا صندوقها بعدما غطوه ببطانية، وحملوا أخرى، فلربما قضوا ليلة خارج بيتهم. وغيرهم لم يجدوا ما يركبونه، فساروا على أقدامهم. كلهم أقفلوا أبواب بيوتهم، واحتفظوا بالمفاتيح في صدورهم، على أمل العودة بعد وقت قصير.

كانت ترى ذلك كله، كأنه لا يعنيها، رافضةً أن تترك بيتها الكائن على الطرف الشرقي لمدينة القنيطرة، إلى أن جاءت بناتها الثلاث مرعوبات، والتطين بها، يبكين في هلع، ففكرت بالنزوح كي تنقذهن. شاهدت سيارة جارهم أبي ماجد البيك آب، وقد امتلأ صندوقها الخلفي، قادمة باتجاهها، فأغلقت باب بيتها بإحكام، ووضعت المفتاح في صدرها جهةَ القلب، كما فعل الجميع، ثم ركبت مع بناتها.

خلال طريق النزوح الطويلة كانت مشاهد القتل، والدمار في كل مكان، والقذائف تلاحق تجمعات المدنيين، لتجبرهم على النزوح عن قراهم، من المدافع على الأرض، والطائرات في الجو، حين صرخت ابنتها الصغرى:" الجاجات يمه."

فراحت تخبط على سقف السيارة، إلى أن وقفت بصعوبة، ونزل أبو ماجد:

- مالك شايفة الحرب قايمة، ولازم نبتعد عنها؟ شو بدك يا حجة؟"

- رجعني أجيب الجاجات. الله يخليك.

ـ شلون؟ جاجات؟ الناس تاركين بيوتهم وأرزاقهم !

يصمت برهة، ليردف في غصة خانقة:" في ناس نسيوا ولادهم نايمين، وناس ضيعوهم على الطريق، وإنت زعلانة على الجاجات."

ثم ينظر إلى سيارته التي لم يعد يتسع صندوقها حتى لقشة:" ووين بدك تحطيهن؟"

وتتقدم باتجاه مؤخرة السيارة:" طيب. نزلني أفتح لهن باب القن."

يستوقفها رجل كهل، نزل من حجرة المقدمة، وهي تهم بالنزول، بينما بناتها يبكين بحرقة:" خيتي: بكرا ترجعي، وتفتحي لهن القن."

صفنت قليلاً. فأكد قولته:" ما إحنا بكرا راجعين."

ويلتفت إلى أبي ماجد، كي يصادق على ما يقول، متسائلاً:" مش هيك يا أبو ماجد؟"

فيرد أبو ماجد بتلقائية:" لعاد كيف؟"

منذ ذلك اليوم صارت تلوم نفسها على مدار الساعة:" **كان لازم أجيبهن معي.**"

تصمت قليلاً:" بس كيف، وما في مطرح بالسيارة؟"

تنسى لبعض الوقت، ثم يعاودها تأنيب الضمير من جديد:" **يا ريتني فتحت لهن باب القن، كانن نزحن مثلنا.**"

❖

وراحت، كلما جاء نازح جديد إلى الزفتية، تسأله:" خيي شفتلي سبع جاجات وخمس صيصان، معهن ديك أسود؟"

فأطلقوا عليها لقب أم الجاج، وكأنها استحسنته، فأحبت أن تنادى به.

جمر الذاكرة

يصعد حازم درجات الباص بسرعة. ثم ينزل بعدما ملأ غالونه، فيخيل إليه البيك أبو محروس، على حصانه الأسود، يركض خلفه، حاملاً عصاه المدببة كالرمح، يحاول بها أن يوقفه، فيهرب منه، ليجد نفسه مع جمع من الناس يدخل بيتاً، تسوره الأزهار الجميلة من كل الجهات، إذا جمهرة من الصحفيين، في أيديهم آلات تسجيل، وكاميرات متنوعة، تقف أمامهم امرأة في شموخ واثق.

تتملى في وجوه الحاضرين بابتسامة طافحة، كأنها ترحب بهم في بيتها. وإذ تلمحه تبتسم له في سرور. فيشيع الأمن في نفسه المضطربة من رؤيته لأبي محروس. بينما المصور ميشيل يسأل:" مين حضرتها؟"

يرد عليه الصحفي موفق:" السيدة وداد ناصيف ظلت في مدينة القنيطرة، ولم تغادرها، طوال فترة الاحتلال الإسرائيلي، لذلك نسميها أم القنيطرة."

تتقدم للكلام:" أنا مصرة على البقاء هنا. ولن أترك القنيطرة أبداً. ومن يحبني يأتِ إلي."

تتابع بلغة فصيحة:" أتذكر الإسرائيليين، حين جاؤوا ليهدموا البيوت، كان الجنود يضحكون في وجهي بشماتة، كأنهم يستفزونني. فقلت: بكرا هي البيوت رح نبنيها من جديد."

تعلو موجة تصفيق من الحضور. ويصفق حازم بحماسة أكثر، فيلفت أنظارها. لتعاود الابتسام له. بينما يسألها أحد الصحفيين:" ممكن توصفي لنا كيف دمروا مدينة القنيطرة؟"

تجيب في غصة:" كان يوجد 11 جرافة. وأحضروا ، بالأيام الأخيرة، جرافات غيرها: كانت البيوت الصغيرة تسقط من أول ضربة. أما الكبيرة - من طابقين وأكثر - فكانوا يعملون مدارج للجرافات حتى تصلها."

ويتقدم من المنصة أبو زهدي....

بعد عدوان حزيران عام67، ورغم كل الدمار الذي طال المدينة، بقي مقيماً في بيته مصراً، أن يتسمر في القنيطرة، فلا يغادرها رغم أنف الاحتلال إلى أن بزغت شمس التحرير يوم الأربعاء 26 حزيران 1974.

ها هو يتحدث عن ذكرياته المؤلمة في تلك الساعات العصيبة بلسان فصيح:" الساعة الثالثة عصراً من يوم السبت 10 حزيران 1967 دخلت القوات الإسرائيلية مدينة القنيطرة من جهة الغرب، بعدما كانت أغلبية سكانها قد غادرتها باتجاه العاصمة دمشق، ومناطق أخرى خوفاً من مجازر بشعة، كالتي قام بها الإسرائيليون في بعض قرى الجولان مثل الدوكة، وسكوفيا، والدردارة، وقبلها كفر قاسم، ودير ياسين في فلسطين. وحتى حينه كانت المقاومات الأرضية فوق تلة أبو الندى ماتزال تطلق رماياتها على طائرات العدو التي تسيدت الجو. ولقد شاهدتُ جنودنا عراة الصدر، في مربض للمدفعية المضادة للطائرات قرب مدرسة خالد بن الوليد، وهم يغطّسون ثيابهم بالماء، ثم يضعونها على ماسورات المدافع حتى يبردوها، كي يستمروا في الرمي على الطائرات المعادية دون توقف. مع ذلك كانوا يُودِّعون النازحين عن المدينة بتلويحات حزينة، ووجوه تتصبب عرقاً، وتعباً مضنياً، إلى درجة الانهاك.

بعد قليل قصفتهم طائرة ميراج، دمرت المربض، وأحالتهم إلى أشلاء."

- ماذا تحدثنا عن الساعات الأولى للاحتلال؟

- منذ الساعات الأولى لاحتلال مدينة القنيطرة بدأ الإسرائيليون بتدمير كل ما يقع تحت أيديهم، لكن سرعان ما أوقفوا حملة التدمير هذه عندما أدركوا أن سرقة المدينة أجدى.

- كم عدد الذين بقوا في القنيطرة؟ وكيف تعاملوا معكم؟

- 13 شخصاً، قاموا بحشرنا في عدة بيوت، ووضعوا بكل بيت مجموعة

أشخاص، لا يعرفون بعضهم لتصبح مراقبتنا أسهل. ثم جمّعونا كلنا بالكنيسة الكبيرة وسط المدينة، ووزعوا ـ على الرجال فقط ـ وثائق ثبوتية مؤقتة. ثم شغلونا، مقابل تأمينهم طعامنا، بالسخرة من أجل تفريغ بيوتنا وبيوت جيراننا، كي يتم نقل كل ما يمكن الاستفادة منه في سيارات كبيرة إلى داخل فلسطين المحتلة.

يتابع أبو زهدي:

ـ هكذا بدأت السرقة المنظمة للمدينة، حتى الأبواب والنوافذ سرقوها ولم تنج دور العبادة، وهي ست في القنيطرة، من نهبهم. مع ذلك كنا، خلال فترة الاحتلال، نعتمد على أنفسنا بشكل أساسي: إذ عشنا على مؤونة ادخرناها من طحين، وبرغل، وعدس، وحبوب، وحمص، وفاصولياء... فالأرض تمنحنا بعض الخضروات، والفاكهة، ونساؤنا يخبزن، وأبقارنا تعطينا الحليب، لنصنع منه اللبن، والجبن، بعدما حوَّل الإسرائيليون المدينة إلى معتقل كبير، فقطعوا عنا الماء والكهرباء، وكان الطحين والوقود ينفدان بسرعة.

كانت إسرائيل تمنع التجول بعد مغيب الشمس، وكلما حل الليل أخذوا يطرقون الأبواب ببساطيرهم السوداء بحجة التفتيش وتفقدنا، فإذا أراد أحدنا التحرك عليه أن يحصل على تصريح مسبق. والآن نحن كمن كاد يشرف على الاختناق، ثم تدفق الاوكسجين النقي إلى رئتيه، فنبض قلبه من جديد، وانتعشت روحه.

يسأله الصحفي موفق:" ماذا حدث بعد ذلك؟"

ـ بعد ذلك بدؤوا يمارسون علينا كل أساليبهم الخبيثة لإرهابنا، ودفعنا للنزوح، فلم يتبق، بعد 3 سنوات، إلا السيدة وداد، وأنا مع ثلاثة أشخاص آخرين. كان الإسرائيليون دوماً يسعون لجعلنا نيأس حتى نرحل عن مدينة القنيطرة، لكننا صمدنا بمساعدة الصليب الأحمر، إضافة إلى رسائل كانت تصلنا من العاصمة دمشق، تحضنا على البقاء.

ويعاود أحد الصحفيين الأجانب التوجه إلى أم القنيطرة:" سيدة وداد: لماذا لم تتعلمي العبرية، مع أنك بقيتِ تحت الاحتلال سبع سنوات؟"

ـ لأنني متأكدةٌ أن الإسرائيليين سوفَ يرحلون.

تقولها بنبرة واثقة، ثم تعيدها باللغة الإنكليزية، فيعلو التصفيق من جديد. ويعقب الصحفي موفق هامساً في أذن ميشيل:" السيدة وداد تتحدث الإنكليزية بطلاقة، ويقال إن وزير الحرب الإسرائيلي موشي دايان قابلها، وتحادث معها مطولاً. بعد ذلك أصدر أوامره الصارمة لجنوده في المدينة بعدم الاختلاط بها، أو محاورتها لأنها قادرة على إقناعهم برأيها."

أخيراً تتقدم جموع الصحفيين للسلام عليها، ويتقدم حازم معهم، حتى إذا ما وصل قريباً منها مدت يدها إليه في أمومة طافحة، فحوَّل الغالون إلى يده اليسرى. لكنها تنحني نحوه، تضم رأسه في حنان غامر، وتقبله بين حاجبيه.

❖

/ هكذا تفعل نجاة. أنفض غبار السنين عن قصتي معها: إنها نبع اللذة الذي رواني خلال مراهقتي التعيسة المحرومة، أنا الغريب الوحيد في الزفتية، أُحضر هريسة، أو أصابع عوامة ـ تحبهما كثيراً ـ من أجرة شغلي الليلي في معمل الصابون، وأسرع للقائها، كي نمضي معاً إلى حنفية الجامع....

كنت أنتظرها كعادتي وسط الفسحة الضيقة، أمام غرفتهم الوحيدة، نسميها الحوش، فإذا بها تخرج مسرعة، بعدما استحمت في خشة المطبخ والمرحاض معاً، تلتصق حلمتاها بقميص نومها النايلون الشفاف، فتبدوان مثل كرزتين. أقول لها في خفر:" نعيماً".

فتتقدم، تضم رأسي في حنان غامر، وتقبلني بين حاجبيَّ، وأنا منذهل مما أراه، ثم تناولني مشطها العظمي، بني اللون:" اعمل شغلة منيحة، سرحني".

تقول ذلك بصوت دافئ يتسلل إلى القلب، فيتملكه إلى الأبد.

عشت حياتي قبلها من البيت إلى المدرسة، بعد ذلك أملأ برميلنا الكبير ماءً، لتستخدمه أمي في أعمال المنزل، ما عدا يوم الخميس إذ أعمل ليلاً في تعبئة أكياس البرش سعة 1 كغ في معمل أبي هشام./

❖

يأخذ موفق وميشيل مساراً باتجاه منزل مهدم، سوي بالأرض، يلمحان تحت أنقاضه صندوق ذخيرة، فيعلق ميشيل:" هذا ما خلفه الإسرائيليون وراءهم: رصاص، وهمجية."

بينما يلتفت حازم حواليه في رعب، حين لا يرى أبا محروس يسرع إلى بيته، يصله خائفاً، ليخبر أمه في صوت مرتجف:" بتعرفي إني شفت أبو محروس!"

تستغرب ما تسمعه، وتسترجع صورته القاتمة، هو الذي يسميه أولاد الزفتية" أبو دبوس" بسبب هذه العصا ذات الرأس المدبب مثل الدبوس، التي يلاحقهم بها طوال الوقت، ثم ترد في حنق:" أعوذ بالله منين طلع هذا الشيطان؟"

يعلو صوت حازم، يسألها من خلف الجدار:" يمه. مو على أساس قتله أبو مهيب؟"

- هذا حية بسبع روس يا حبيبي.

وتحدس:" **لو انك معي يا عزمي ما قدر أبو محروس الزفت، ولا غيره، يعملوا فينا كل هذا.**"

يحاول حازم الدخول من الثغرة، يجدها قد سدت. فيسأل أمه كيف يدخل، ترد عليه من الداخل:" فوت من الباب."

- طيب خذي مني الغالون، أحسن ما يوقع.

وإذ ترتقي على بلوكة متكسرة، لتتناول منه الغالون، تشاهد، على بعد، العجوز خطّار راكباً فرسه البيضاء، حوله أبناؤه الخمسة، يسيرون في عنجهية كعادتهم، فتقول في سرها متحسرة:" بكل عرس إلك قرص يا خطار."

ينتبه حازم فيسألها:" مين هدول يمه؟"

- هذا الراكب على فرس عم أبوك خطّار، وحواليه أولاده."

ثم تحكي له عن تلك الأيام العصيبة في القرية....

ها هي تصب كأسين من الميرمية بينما يقول عزمي في انزعاج:" رجعت لقريتي حتى أداوي الناس، وأعيش على أرضي بسلام. يعني غلطتي اني صرت

دكتور، وأولاده بهايم؟"

ـ مو بس بهايم، ومجرمين كمان. ولا نسيت شو عملوا بعيلة أبو حسان؟

ـ بس هذا عمي. والدم ما بيصير مي.

ثم يقف بعدما رشف آخر قطرة من كأس الميرمية: " لكان أنا رايح على حقلتنا."

ـ خذني معك.

ـ انتِ لازم ترتاحي، ريما مشرفة بعد كم يوم.

وتمد يدها، تمسد على بطنها: " قول كم شهر، بعدين: هذا بنت؟ تعال شوف رفساته شو قوية!"

ولا يعبأ بما قالته، بل يأمرها: " إذاً هاتي لي العدة يا أم ريما."

ترد عليه بابتسامة تسامح، وحذق: " تكرم عيونك يا أبو حازم."

الوقت ظهراً، تغلق الباب خلفه، ثم تعود لتفتحه مع عتمة المساء، فإذا هو مدمى الوجه، يتوجع في أنحاء جسمه المُورَّم من الضرب القاسي. لذا تسنده، كي تدخله إلى البيت، وهي تقول: " ما في غير المجرمين أولاد عمك خطَّار. صحيح؟"

تصمت برهة، ثم تضيف: " ما لنا غير أهل النخوة بالقرية، نستنجد بهم."

وبينما حازم ينصت إليها بإصغاء تصمت، كأنها غصت بالكلام فيسألها: " أي وبعدين شو صار مع بيي، وعمه خطار؟"

ـ ولا شي. ما فادنا يا حازم، لا شيخ الجامع، ولا كبارية القرية، لأن خطار وأولاده مجرمين، وأبوك مش خرج بهدلة. لهيك حملنا حالنا، وجينا على القنيطرة.

تنظر إليه في حنان، ثم تسأله: " ما اشتقت لنجمة؟"

يصمت، بادياً عليه الانزعاج. فتردف: " على أساس بتحبها! وبدك تتزوجها!"

ـ هي حكت لك. صحيح؟

ويتذكر حين كانا يلعبان لعبة الخمس حصوات، فيدير وجهه مضرباً عن اللعب. تحاول مراضاته لا يقبل. أخيراً تسأله: " ما لك يا حلو؟ ليش زعلت

حبيبي؟"

- نجمة تتزوجيني؟

يباغتها بهذا السؤال، فتجحظ عيناها غير مصدقة ما تسمع. لذلك تأخذ في الضحك، مع دخول أمه التي تنبهها: " ضروري ترجْعي على البيت يا بنتي، عتمت الدنيا."

لذا تمتشق نجمة طولها الفارع، لتنتعل حذاءها الكاوتشوك. وبعد خروج أمه ترمي الحصوات على الأرض، ثم تأمره في سخرية: " لِّن يا.. زوجي."

ينظر إليها في تحد وانزعاج: " اللي رماهن بيلمُّن."

- بس أنا أكبر منك. والصغير لازم يسمع كلمة الكبير، لُمّن يا شاطر يللا.

لا يتحرك، فتصيح به: " عم قلك لُمّن."

-ما بدي.

وإذ تدخل أمه مجدداً، تراهما يتصايحان كعادتهما: " رجعتوا للمناقرة، مش هيك؟ أنا بلمُّن."

ثم تلتفت إلى نجمة: " خلي حازم يوصلك لنص الطريق. وسلمي لي على امك."

فتمد يدها نحوه، هامسة في أذنه: " لكان هات يدك يا زوجي."

تتناهى إلى سمعه أصوات طبل ومزمار، فيحدث نفسه: " **آخر مرة شفتها يوم العرس"....**

كان الوقت عصراً، المكان ساحة الزفتية الواسعة، أمام" خان أبو عليوي" وقد امتلأت بالرجال والنساء. وكانوا مجموعة أطفال، هو يعزف على شبابة صغيرة من القصب. لكن ولداً، لم يعجبه العزف اختطفها، ورماها بعيداً. فأحضرها، ثم وقف مع تايه، خلفهما مهيب يتحاشى أنظار أبيه، متمنياً دخول الدبكة. لكنه لا يجرؤ على ذلك، لأن أباه موجود. ها هم ثلاثتهم يتفرجون على جماعة الدبكة: لطيف الثلجي يلبس طاقية صوف، يكبسها على رأسه، ليثبتها مع كل خبطة على الأرض، وقد أمسك، رغم صغره، في أول الدبكة، بيده سبحة، يلوِّح بها.

أبو أحمد إلى جنبيه ولداه: أحمد، وحمدون، تحاول أم أحمد، مراراً وتكراراً، أن تمسك بيده، لا يسمحان لها.

أبو مهيب البوابيري، على خصره البشكير المشحر، بسبب إصلاحه الدائم لوابوره ذي الرؤوس الأربعة، كلما دبك مسح به وجهه، وراح يبرم شاربيه الكثيفين، ففاحت رائحة زيت الكاز، وتضايق الذين حوله.

ها هو يسترق النظر، من خلف ظهور الدابكين، نحو جموع النسوة، لعل مريم تحضر.

بعده جهاد النادر، بقبعته المستديرة مثل السوفييت، يتأمل ما حوله. ثم يغلق عينيه لبرهة قصيرة، كما لو أنه يحفظ ما يراه من صور.

ثم طلعة يمسك بيد هدى، التي تعيد تثبيت نظارتها الطبية أمام عينيها كلما قفز في الهواء برشاقة، كي يريها مهارته. إلى جوارهما صبيتان في زي شامي، كلهم يدبكون على أنغام الطبل، والمزمار، وصوت عواد الصادح:

" يا ظريف الطول وين مغربين
وانطينا البوسة يا حلوة ولا تغيبين
حلفتك بالله، ورب العالمين
ما حد زار البيت طول غيابنا..."

ضاربين الأرض ضربات منتظمة، وهم يتحركون بإيقاعات متناسقة في حيوية، تمتع بها الجميع شباناً وكهولاً، وقد احمرت عيونهم، كأن نيرانا اشتعلت بها. بينما تطلق الفتيات من حولهم الزغاريد المتواصلة، كلما قام أحدهم بحركة جميلة، فيثيرون الغبار كثيفاً، رغم المياه التي رُشت بها الساحة قبل قليل، بإشراف مباشر من الحارس أبي عليوي.

وقد بلغت الدبكة مداها حين حضر الشيخ عبد الستار مع أبي هشام الذي يقود سيارة مزينة، كي ينقل فيها العروس نجمة، بينما الأولاد من حوله يصيحون، كعادتهم كلما شاهدوه:" الله يوفّق لنصفق." عندئذ أخرج أبو درغام مسدسه، وراح يطلق طلقة طلقة مع كل خبطة للأقدام الهادرة على الأرض، فاشتعلت الإثارة، وارتفع نبض الفرح....

يومذاك تمنى الشيخ جاسم أن يخرج مسدسه المخبأ على جنبه الأيسر بعناية، ليمسح فوهته في تلذذ، كما اعتاد، كلما أراد أن يطلق رصاصة،

لكن ضراراً ذكره بأنه العريس، فبلل إصبعيه: السبابة والوسطى، ثم مسد شاربيه الخفيفين. بينما النساء في بيت أم مهران يرفعن أصواتهن بالزغاريد الصاخبة، والتهليلات:

" اوها والطول طول الرمح
والخصر مايل ميل
اوها والوجه فلقة قمر
والشعر مثل الليل..."

فجأة تنفرط الدبكة، إذ يقف الجميع مذهولين في حيرة من أمرهم، وتكثر الهمسات:" هربت نجمة. هربت العروس."

❖

يقترب حازم من الياسمينة اليابسة، ثم يسكب الماء، فيراه يغور في الأرض:" الياسمينة عطشانة كثير يمه!"

- الأرض كلها عطشانة يا حازم.

ينظر حوله إلى الأراضي الواسعة:" ومين بيقدر يروي هذي الأرض كلها؟"

- ناسها، أهلها وصحابها يا بني.

يُفرغ الغالون حتى القطرة الأخيرة، ثم يحمله ويتعمشق الجدار، ليسرع ثانية نحو الباص، وإذ يشاهد فوقه حمامته البيضاء، يصفر لها فتروح تدور حوله، ثم تهبط قربه، فيخاطبها:" هي أنا رجعت على القنيطرة وانتِ؟"

- ....

يتابع ناظراً إليها، وهي تهدل باستمرار:" انتِ ما تعرفي وين بلدك. بسيطة بكرا تلاقي أهلك، وترجعي معهم."

فجأة يأتي سرب حمام أبيض، تطير معه. فيلوِّح لها:" مع السلامة يمكن تلاقي أهلك، وترجعي على بلدك متل ما أنا رجعت على القنيطرة."

❖

تجد مريم منكوشاً صغيراً، فتأخذ في توسيع حفرة الياسمينة، مسترجعة صورة الدكتور عزمي، وهو يسقيها صباحاً، ثم يسقي أصص

النباتات من حولها، بعد ذلك يطفئ المصباح فوق اليافطة، التي تحمل اسمه. ليدلف حاملاً صينية، عليها إبريق وكأسان، إلى غرفة النوم، كي تشرب الميرمية معه على المصطبة، فتتأمل تقاطيع وجهه، تراه يطفح بالحب، والأمل، ترقباً للمولود القادم.

ها هي تحدق في اليافطة بحنين، مستعيدة ذكراها....

لقد أحضر كاميرة جديدة من مدينة دمشق، فأسهب في الحديث عن أهمية الصورة ومدلولها:" الكاميرة أهم اختراع بحياة الإنسان، لأنها ممكن تسعده، إذا كانت صورته حلوة، وتزعجه إذا طلعت بشعة."

ثم يسألها:" بتعرفي ليش الصورة مهمة بحياتنا يا مريم؟"

إذ تصمت يجيب:" لأنها تبقى حتى لو مات صاحبها، أو اختفى لسبب من الأسباب."

ثم صورها صوراً كثيرة، بادئ ذي بدء، في عدة أوضاع وأماكن متعددة من البيت: داخل غرفة الجلوس، تحت الياسمينة المزهرة، وفي غرفة العيادة، وهي تحمل سماعته الطبية، بعدما ارتدت مريوله الأبيض، ثم علّمها كيف تصور، فصورته بدورها. لكن حين بحثا عن شخص يصورهما معاً، لم يجدا أحداً. انتظرا طويلاً أمام البوابة. فقال الدكتور عزمي:" يا ريتك هون، يا أبو معروف، كنت صورتنا مع بعض."

والآن تنظر إليها مريم في حميمية، فتومض الصورة، كأنهما يُصوَران تحتها.

❖

تسير أم عايد وحدها دون أن تتعثر في خطوها، وقد وضعت عصاها تحت إبطها. بينما عايد على بعد خطوات منها، كأنه اطمأن فلم يعد يتبعها، بل راح يتأمل ما يراه حوله من خراب وتدمير في صمت خانق:" **الله يكسر إيدين الإسرائيليين مش تاركين بيت على حاله."**

فجأة تتوجه نحو جامع، لتسأله:" مش هذا جامع الداغستان يا عايد؟"

- أي يمه. وكانوا الإسرائيليين عاملينه مقر قيادة.

- إذاً هُناك...

وتـروح تـصف الأمكـنة بدقـة، وتـسميها، كـأنهـا بـالأمس فارقـتها، فيستغرب:

- هو كيف تعرفي المطارح من غير ما تشوفي يمه؟

- ما هو الواحد مش ضروري يكون بيشوف حتى يعرف بلده يا عايد.

ثـم تـردف في ثقـة:" هـي المطارح محفورة جواتي من أنا وصغيرة. ولما بعدت عـنها بعـد الـنزحة صـرت كـل يـوم أحفظهـا مـن جديـد، ويامـا بالليالـي أقعـد لحالي، وأتخيلها مطرح مطرح."

❖

يـتقدم أبـو يوسـف عميـشة مـن جماعـة الختـيارية، بيـنهم الـشيخ عـبد الـستار، يحكـي قصة أمير عربي، احتاج إلى دم من زمرة نادرة، فلم يجدوا يومها إلا شخصاً يهودياً، يحملها، فتبرع له بكمية من دمه، وأجزل الأمير له العطـاء: ثلاثـة جمال، وعشرة رؤوس غنم. وما هي إلا أشهر قليلة رجع الأمير، يحـتاج دمـاً مـن جديـد، فأسـرع اليهودي، وتبرع له، فما كان من الأمير إلا أن قدَّم لـه علبة راحة مع كلمة شكراً، كتبها على ورقة صغيرة، فلما اعترض الـيهودي علـى هـذه الهديـة مقارنـةً مـع سـابقتها، رد علـيه الأمير:" ما هو عشان إنـت تـبرعت لـي بالـدم، فأنـا صـرت نـشِح زيَّـك." ويعـني: بخـيل مـثلك. فيتضاحكون في صفاء....

لم يبرك أبو يوسف يوماً، أي لم يقعد عن العمل. وكان ختيارية قريته، أو الجماعـة، كمـا ينـاديهم، إذا غـاب عـن العمـل في يـوم مـن الأيـام، بـسبب مـرض طـارئ، أو تعـب، اجـتمعوا عـنده مـساء ذلـك الـيوم، وراحـوا يتـناقلون حكـايا القـرية، ونوادر أهلها، فيقوم في اليوم التالي إلى عمله، مثل الحصان أو الجمل، كأنه لم يمرض.

فجـأة يـشعر أبـو يوسـف بنغـزة في صـدره، فيـساعده الـشيخ عـبد الـستار للوصـول إلى بقايـا حـيط قـصير، يجلـس علـيه، ويلـتفون مـن جديـد حـوله، فيسألهم:" أيش اليوم خيِّ؟"

- الأربعاء 26 حزيران ...

ولا يدعهم يكملون قائلاً:" امهلوني ليوم الاثنين يا جماعة."

❖

تقف مريم عند بوابة بيتها، متذكرة زوجها الغالي، وهو يودعها. فجأة تنزل الدموع من عينيها، تمسحها بباطن كفيها، وهي تسمعه يقول:" نحنا متفقين ما بدنا دموع. بعدين هي مش أول مرة ألتحق بالجيش."

- صحيح بس هالمرة في حرب.

يسمع زمور سيارة الجيب، التي تسقط أشعة الشمس على زجاجها، فيلمع بانبهار. عندئذ يضم وجهها بين راحتيه، ثم يودعها بقبلة حارة على جبينها، ويمضي في خطوات متثاقلة. ثم يصعد بقفزة واسعة، مغلقاً الباب، وهو يأمر السائق:" قول يا رب."

فتتحرك السيارة. ويحاذر الالتفات إلى الوراء. لكن بعد برهة يختلس نظرة من خلال المرآة، فيرى مريم تلوِّح له بكلتا يديها. لذا تمتد يده إلى مذياع السيارة يشغله، فإذا بأغنية طروب:" أنا مسافرة ودعوني..."

وإذ تقول:" الله وقلبي معك" يتذكر مريم، وهي تقولها له حين ودعته، فيروح يدندن مع طروب:

" يمكن ارجع بكرا
يمكن تطول السفرة
يمكن تشوفوني
ويمكن ما تشوفوني..."

يلتفت إلى السائق، يراه غارقاً في عرقه:" شد، خلينا نوصل على وقت."

فيزيد من سرعته. بينما ينظر عزمي في المرآة، التي زاد انعكاس أشعة الشمس عليها، فبدت متأججة مثل جذوة نار تلتهب، وإذ يرى مريم توغل في الابتعاد تدمع عيناه معاً.

يعود هذا المساء

على مشارف القنيطرة، تنزل بشرى من السيارة، يتبعها والدها، بعدهما ينزل السائق نايف، متوجهاً صوب غطاء محرك سيارة البيك آب المتداعية، يفتحه، فيخرج بخار كثيف، وهو ينادي:" عمي ممكن كلمتين على انفراد، إذا سمحت."

تظل بشرى على مسافة منهما، تنظر حولها في استغراب، وهي تفكر في طريقة للتخلص من نظراته وتعليقاته المتكررة، فهل تخبره بأنها منذورة للأستاذ ملحم، هكذا تعاهدا، ولن تخلف عهدها معه حتى لو غاب الدهر كله....

كان يود خطبتها، هكذا اتفق مع أمه، وبعد نجاحها في امتحان الشهادة الثانوية يتزوجان، لكنها الحرب اللعينة.

لقد أخبرته بأنها من مجدل شمس، هناك ولد أخوها معروف بعد سنوات طويلة من فشل والدتها أن تحمل، فتحققت النبوءة الأولى للعرافة حين أخبرتها:" معك ولد."

-لكان رح سميه معروف. وبعدين؟

-بيتك ح يكون بحقلتك.

وفرحت أمي، ظنت أن والدي سوف يبني لها بيتاً في الحقل ـ كما وعدها ـ وكيف لها أن تعرف أن ذلك البيت ستحوله قذيفة ملعونة تطلقها طائرة إسرائيلية ملعونة إلى قبر؟ إذ عندما قصفت الطائرات الإسرائيلية حقول الفلاحين في قرى الجولان أصابتها قذيفة قاتلة، فتحققت نبوءة العرافة الثانية.

تكمل بشرى في غصة حارقة:" لهيك ترك بيي المجدل، وجينا على القنيطرة"....

بعد مسافة مضنية افتقد أبو معروف توسلات أمه العجوز بالابتعاد عن الحفر، ولم يعد يسمع بكاء صغيره الرضيع، فأوقف عربته على اليمين، وأزاح رأس بشرى النائمة عن حضنه دون أن يوقظها، ثم نزل بهدوء، ورفع الغطاء عن صندوق العربة مصوباً نظره إلى مكان جلوس والدته، وهي تحتضن معروفاً، وجدها منكبة إلى الخلف، كأنها تحاول الرجوع إلى قريتها، التي فارقتها غصباً عنها، وبشق النفس، بينما نظراتها نحو البعيد، حيث تدحرج معروف من بين يديها، ولم تستطع فعل شيء، لأنها قد ماتت.

من أين له أن يعرف أن الراعية أم مفلح، قد وجدته مرمياً إلى جوار الطريق، في القرية المجاورة، وهو يترعرع الآن بين أبنائها الستة: مفلح وأخواته الخمس بنات؟

وتتذكر بشرى كم كان وحام أمها قاسياً، إذ كانت تصاب بغثيان دائم، وإقياء متواصل، لا يبقي في معدتها شيئاً. بينما أبوها يسأل:" قديش صار عمرها بشرى؟"

ـ 14 سنة.

فيتنهد في أمل:" طول هالسنين وأنا أحلم بالسيد معروف يشرِّف."

فتتحسس أمها على بطنها، وهي تردد:" بدي ياه رجَّال، يتحمل الصعاب مثل بيَّه."

وتنظر بشرى إلى أبيها، الذي يعتز بنفسه، فيرفع رأسه شامخاً. بينما تكمل أمها في فخر:" ويكون بطل مثل جده: بتتذكره يا أبو معروف!"

فينظر إلى صورة معلقة على الجدار القبلي لسلطان باشا الأطرش، حوله مجموعة رجال، يحدق بأحدهم طويلاً. ثم يبتسم لها، وهو يقول:" رح يجي معروف باشا، وبايده كمشة تراب من حقلتنا اللي ما فارقتهاش، حتى وانتِ حامل بآخر أيامك يا أم معروف!"

❖

يدنو أبو معروف من السائق نايف منزعجاً، ليسأله في امتعاض:" خير إن شا الله سيد نايف؟"

- عمي انت قلت: ما أزوجها إلا إذا تحررت البلاد.

وينظر إليه في عجب، وقد جحظت عيناه:" أي شو قصدك؟"

- قصدي هي تحررت القنيطرة، وتسع قرايا معها.

وينتفض أبو معروف:" بس قريتنا لسا ما تحررت."

- ولَو... بكرا بتتحرر يا عمي.

- أي وقتها بنبقى نحكي.

يبتعد مقلداً نايف في سخرية:" عمي عمي. عمى الدبب إن شا الله."

ويقترب من بشرى، التي تقول في اندهاش، وعجب:" مين قال بنرجع يا بيي!"

- ستك.

ويسهب في حنين:" كأنها بتعرف أنو هذا اليوم جايي. كانت مرة حكيمة، تشهد لها كل البلاد. بعد الاستقلال حكت قدام جمعة كبيرة من الناس:" هالبلاد بدها تُحتل من جديد".

ما حدا صدقها. كانوا يقولوا لها:" ليش كل هالتشاؤم؟"

لحد ما إجت إسرائيل، فرجعوا يسألوها:" وبعدين يا أم فوزات؟"

ترد عليهم :" بس رح ترجعوا تحرروها."

وبينما هو يتحدث تلمح بشرى علبة تبغ في جيبه، فتسأله:" تكون رجعت تدخن يا بيي؟"

يرد عليها:" ولَو يا بشرى إنتِ ما بفوتك شي."

فتعلق في أسى شفيف:" يا بيي: الدكتور قال إن السيكارة مو بس بتضرك، ويمكن...

- قوليها يا بنتي قوليها تموتني. إي هيك قال الدكتور.

- ولا تنسَ إنك حلفت برحمة ستي إنك ما تدخن.

يصمت برهة من الوقت، ثم يقول في غصة حارقة:" آخ انتِ ما بتعرفيش إني بعد امك وستك ما ماتوا، وضاع معروف على الطريق تركت المجدل وصرت أدخن، و ..."

تقاطعه:" شو خص هذا بباكيت الدخان يا بيي؟"

-خص يا بشرى خص.

يُخرج علبة التبغ من جيبه، والأخرى من تحت قبعته، وثالثة من جيب داخلي، يقدمها لبشرى، ثم يشير إليها في تسامح:" يللا شلخي هالباكيتات، وارميها، حتى نروح على الساحة العامة، مطرح ما السيد الرئيس بده يرفع العلم."

❖

على الطريق تشاهد بشرى مدرسة ثانوية مدمرة فتدخلها، وهي تهمس لذاتها:" قديش كانت أيامنا حلوة يا أستاذ ملحم!"....

يلتقيان فتبادره:" أول شي شكراً على الرواية."

- آ. الوسادة الخالية. عجبتك؟

- لهيك أنا زعلانة.

ويندهش:" كيف؟"

فترد:" لأن الحب الأول وهم، مثل ما قال المؤلف إحسان عبد القدوس."

- ومين قال إنك حبي الأول؟

- يمكن ما كُنش حبك الأول. بس انت حبي الأول بالتأكيد.

- بسيطة تعالي نتزاعل ونترك بعض. وهيك يكون الحب الأول انتهى. بعدها نبدا نحب بعض من جديد.

وتبتسم في لهفة واشتياق، وهي تقترب من نافذة أحد الصفوف، تترقب الدرب في إمعان:

إنه يسكن كلماتي
يختبئ، مثل الطيف، في همساتي

وتهمس لنفسها: " **قلبي يحدثني: سيعود الأستاذ ملحم هذا المساء.**"

فجأة يدخل رجل بنظارة سميكة على عينيه، ومسطرة في يمينه، يضرب بها على يساره في توتر وانفعال. تتبعه مجموعة شبان، ويافعين، يشير لهم بلغة فصحى: " هذه هي مدرستنا أيها الطلاب الأعزاء."

يسأله الصحفي موفق، وهو يقرِّب المسجلة من فمه: " مين حضرتك؟"

-أنا مدير الثانوية.

يصور ميشيل ركام الأنقاض، بينما يمضي المدير باتجاه المنصة، أمامه الباحة الواسعة، وخلفه الصفوف، التي حولتها إسرائيل إلى ركام، يلوِّح بالجرس عدة مرات، فتعود المدرسة مفعمة بالحيوية، كما كانت، ويصطف الطلاب أمامه صفوفاً منتظمة، ثم ترتفع أصواتهم بنشيد حماة الديار، يصدحون به في حنجرة واحدة.

تتوقف مجموعة من الوفود العربية، جاءت لزيارة القنيطرة، تنظر إليه باستغراب، واقفاً باستعداد، وضع المسطرة تحت إبطه، ونظر عالياً، في شموخ لا يحد، صوب العلم الذي يرفرف خفاقاً في السماء.

❖

/ تطالعني حنفية المدرسة إلى جوارها صفيحة صدئة، فأستعيد ذكرى نجاة....

أحضرتُ قطعتي كاتو، وشمعتين ملونتين للاحتفال بعيد ميلادها، كما كان يفعل والدها، رحمه الله، كلَّ عام. ورحت أغني لها:

" يا نور جديد

في يوم سعيد

عيد ميلادك

أحلى عيـــد..."

مع آخر عود في علبة الثقاب استطعت إشعال شمعتها، منها أشعلت شمعتي، لكن شمعتها انطفأت فجأة، فقالت متطيرة: " لحالها؟ صحيح؟"

سألتها في هدوء، وأنا أحاول إشعالها من شمعتي مجدداً: " والمعنى؟"

ابتسمت في غصة، وهي تمنعني من فعل ذلك:

- لكل شي دلالته، والشمعة المطفية معناها الموت.

أحاول أن أرد عليها، وأنا أملأ صفيحتي بعدما ملأت طنجرتها الألمنيوم الكبيرة، فلا تخرج الكلمات من حلقي، لذلك تردف: " تعرف: بنصير رومانسيين أكثر لما الموت يقرّب منا."

- دائماً تحكي عن الموت. شو السر؟"

لازم تتعود عليّ: أنا أحس اني رح أموت عن قريب، مع ذلك رح أرجع.

- كيف؟

- لأن اللي يحب ما بيموت.

وتتغير لهجتي مع الدخول في حديث الحب: " يعني بتحبيني!"

تبتسم: " لا تملِ التنكة كثير حتى ما تندلق المي عليك."

- لا تغيري الموضوع.

- أبداً نحنا فيه، ما بيقولوا: المي فرقة؟

فأرشها، تنطلق أمامي، كأنها تحمل ريشة على رأسها، لا طنجرةً كبيرةً مثل برميل أمها.

- المهم انت تحبني.

- لسع ما تأكدت؟

- ما بتأكد قبل ما تشتري محبس الخطبة، وشوفه بإصبعك./

❖

تشاهد بشرى أبا أسعد مع أولاده، يسيرون، على غير العادة، في ود وسرور، فتندهش: " معقول؟"

تسلم عليها أم أسعد: " مبارك الرجعة. وعقبال ما نرجع على المجدل خيتي بشرى."

ـ الله يبارك فيك. ومباركة عليك.

تسأل أباها: "مش هي أم أسعد اللي كانت تتقاتل مع زوجها كل يوم؟"

ـ مظبوط. بس يمكن كانوا يتقاتلوا فشة خلق لحد ما يرجعوا.

ـ يا بيي شو عم تقول؟ اي كل عيشتهم نكد بنكد.

ـ بس لما كانوا في بيتهم بقرية كودنة ما كَنوش هيك يا بشرى.

وبينما هما يسيران، تستوقفه تلك اليافطة، فيستغرب ما يراه: "**كأنها جديدة، لا مر عليها زمن، ولا فاتت عليها سنين.**"

يطلب من بشرى أن تتوقف: "لحظة يا بنتي."

تنظر صوبها ملياً، وتقرأ عيادة الدكتور عزمي العايش: "تعرفه يا بيي؟"

يصمت قليلاً، ثم يجيبها: "لولاه كنت ميت من زمان يا حبيبتي."

ويسرد لها حكايته مع الدكتور عزمي العايش، الذي عالجه من ضربة شمس، كادت تودي بحياته. بعد ذلك تعارفا، فصار يُحضر له الخضروات والفاكهةَ الطازجة. ها هو يرفع صوته في حنين: "الله يذكرك بالخير يا دكتور، قديشك إنسان ذكي."

ـ خبرني قصته يا بيي.

ـ هذا يا ستي كان في زلمة اسمه أبو شفيق، معه صفارة، يجمع فيها أولاد الحارة، يعطيهم ملبس، ويصير يلاعبهم بحقل القمح. لما شاف الدكتور عزمي الأولاد معه انزعج كثير، وطلب من الأهالي يمنعوا ولادهم يلعبوا هُناك. لكن سمعان مو سمعان، مثل ما يقول المثل. لحد يوم من الأيام، وأنا عند الدكتور، نشرب ميرمية، وما نسمع إلا صوت انفجار، فركضنا، والله لا يوريك هالشوفة يا بشرى.

ـ شو شفتوا؟

ـ حقل القمح من أوله لآخره يحترق. وقتها ما في غير الأهالي يبكوا على ولادهم. هي تقول: "شفتهم يلعبوا هون." وتاني: "أكيد حاصرتهم النار، وما عاد قدروا يطلعوا." وبعضهم جاب مي، وصار يرش على النار فتزيد، لأنه

اتضح انها قنابل نابالم.

- أي. وبعدين؟

فجأة خرج مدير المدرسة، وقال:" هذا ما خفنا منه صار، قصفت إسرائيل الحقل وقت بيروحوا الأولاد يلعبوا فيه."

ثم نظر إلى الأهالي:" قديش حذركم الدكتور عزمي، وطلب ما تخلوا ولادكم يلعبوا بالحقل ما سمعتوا. والأولاد عقولهم صغيرة، يركضوا ورا أبو شفيق مشان حبة ملبس."

ويقترب منه أحدهم:" مش وقت معاتبة يا أستاذ. خلينا نشوف شو صار بأولادنا."

- إذا بدك تعرف اسأل الدكتور عزمي، لأنه هو خبرني بقصة أبو شفيق.

ووسط ذهول الأهالي يفتح المدير باب المدرسة منادياً:" يللا يا أولاد انتهى اللعب اليوم."

وإذ يخرجون تأخذ كل أم ولدها، تقبله، وهي تبكي، ثم تدعو في امتنان:" الله يخلي لك أولادك يا أستاذ، ويطعمك الولد بجاه النبي يا دكتور."

بينما ينظر الأولاد إلى الحقل المتأجج ناراً بعيون مذعورة في ذهول ورعب.

يكمل أبو معروف:" ولما راحوا الأهالي قرَّب الدكتور من المدير، وقال:" أنقذتنا من كارثة محققة يا حضرة المدير."

فرد عليه:" الفضل لك دكتور عزمي انت نبهتني، فخليت الأولاد يلعبوا بالمدرسة، ووزعت عليهم ملبس، حتى ما يلحقوا أبو شفيق."

وتسأل بشرى:" وأبو شفيق شو ساويتوا معه؟"

- من يوميتها ما عاد حدا شافه.

- وأخبار الدكتور عزمي؟"

- اللي بتذكره انه انسحب على الجيش. وكانت مريم حامل.

- مريم؟

- زوجته. وأنا صرت من وقتها أوصل لها أي غرض توصيني عليه، بعد ما الأزعر سطام صار يلاحقها بالسوق....

كان يتبختر في الأسواق كما يحلو له، فإذا مر خَلَت الطريق من المارة. وفي سوق الخضار والفواكه يتسابق الباعة في خطب وده، ولم يمنعوه شيئاً من أحسن خضرتهم، أو أغلى فاكهتهم، درءاً لشره عنهم.

- بيي بعدين شو صار بالدكتور عزمي؟

فيصمت محدقاً في الفراغ البعيد، كأنه غُصّ في الكلام:" الله أعلم يا بنتي."

❖

مع أغنية" والمعارك مستمرة يا جماهيرنا يا حرة..." تهدر من ميكروفون أحد المعسكرات. حيث مجموعة كبيرة من الجنود يتدربون، معفرين بالعرق والتراب، تعلو صيحاتهم في عزيمة، وهم يتسلقون الجدران العالية، ثم يقفزون، مخترقين حلقات النار. بينما الدكتور عزمي، في مريوله الأبيض ونظارته الطبية، خلفه كاميرة، علقها على الجدار، يلف كوع أحدهم بالشاش، وهو يؤنبه:" هذه المرة إجت سليمة. بس مش كل مرة بتسلم الجرة."

تدخل امرأة خمسينية، تلبس الخاكي، وتنتعل بسطاراً عسكرياً، تبدو في حيوية. تعاين الكوع الملفوفة بالشاش. ثم تقول في ثقة:" الملازم علي دمر أربع دبابات إسرائيلية. وظل بموقعه لآخر قذيفة بحرب ال67، لهيك رفعوه من رقيب أول لرتبة ملازم يا دكتور.

- لذلك أنصحه يدير باله على حاله لأننا بحاجة لأمثاله يا أم سلمى.

- حاضر دكتور.

يقولها علي، ويخرج متعجلاً. بينما تعلق أم سلمى:" كثير ناس بيعتقدوا ما حدا قاتل بحرب حزيران. وهذا مش صحيح: في كثير مواقع بالجبهة، دمرت للعدو، عشرات الدبابات، والمصفحات."

يسألها الدكتور عزمي:" كيف عرفتِ؟"

ـ أخي نصر كان بواحد من هالمواقع، وخرج مصاب: هناك يا دكتور ظلوا يقاتلوا لآخر قذيفة، وآخر رصاصة. وهذا الشي اعترف فيه العدو نفسه ببيانه العسكري يوم 9 حزيران، لما قال:" تواجه قواتنا مقاومة عنيفة على طول الجبهة السورية، وتتكبد خسائر كبيرة."

تستعيد أم سلمى في ألم صامت ما حدث لأخيها، الذي تشنَّج إلى درجة الجنون، فحطَّم كل ما وقع تحت يديه، عندما أعلن المذياع سقوط مدينة القنيطرة. ثم أمسى يتلعثم، ويتأتئ آكلاً نصف حروف الكلمة التي ينطقها، فحبس نفسه في البيت، ولم يعد يخرج إلا نادراً.

ها هي تخبر الدكتور في غصة موجعة:" وصار يموت من الرعبة إذا لمح طيارة بالجو، أو سمع صوتها."

ولا يعقب عزمي، بل يسقط متهالكاً على كرسيه وراء الطاولة الحديدية في تعب واضح. وإذ تلاحظ ذلك تسأله:" خير يا دكتور؟"

فيُخرج من جيب بذته الداخلي صورة مريم، وقد ارتدت مريوله الأبيض، وعلقت سماعته الطبية حول رقبتها، لتشاهدها أم سلمى مفضياً في حرقة:

ـ ما بعرف أخبار مريم. وهذا الاستنفار مش تاركني آخذ إجازة، وأدوّر عليها.

ثم يردف في عصبية:" المصيبة: كل اللي قابلتهم أكدوا لي انهم ما شافوها.

-يعني بعيد الشر ممكن تكون...

-أبداً أبداً: مريم عايشة بالتأكيد يا أم سلمى. قلبي هيك بيقول، ومعها ريما.

-ريما؟

-ريما بنتي.

يصمت لبرهة، ثم يعقب بسرعة:" ولَّا أقول لك حازم، لأن مريم كانت تقول إنها حامل بولد، ورح تسميه حازم.

ويتنهد: " بس وين لفت فيك الدنيا بعدما نزحت من القنيطرة يا مريم؟

ترد عليه أم سلمى، وهي تتأمل الصورة: " طوِّل بالك. واشرب كاسة الميرمية من يدي. بكرا تفرج."

وتخرج. ثم تحضر بعد قليل حاملة صينية، عليها كأسان وإبريق، تصب له في أحدهما. لكن ما إن تضع الكأس أمامه على الطاولة، حتى يعلو صفير إنذار الخطر. فتنظر من شباك العيادة، ثم تقول في عصبية بادية: " هذا إنزال إسرائيلي على المعسكر يا دكتور."

ويُسمَع صوت طائرات هيلوكوبتر، وإطلاق رصاص كثيف مع تصاعد نشيد: " الله أكبر فوق كيد المعتدي."

في نهار آخر

حالة عشق لا تتكرر
يا عبد الله فلسطين
إن قدمتَ لهم ماء
سألوك بحب: إن ذقتَ مياه فلسطين
أو أكلوا سموا باسم الله
وعشق فلسطين
أو قُتلوا
تحت الأرض يعودون إلى حضن فلسطين
أو جازوا باب الجنة
يلقى الله بأيديهم قبضة طين منها
يتمنى أن يستبدل جنته
يا عبد الله بهذا الطين

◆ مظفر النواب

في سيرة رجل، لم تقرأ عرافة الزفتية أم عرفان في كفه إلا مسيرة ارتحال وارتحال:" على طريقك سفر طويل."

جمعت صدفاتها السبع، ثم رمتها ثانية:" لكن دائماً خليك جاهز."

سألها متلهفاً:" يعني ممكن أرجع على القدس؟"

أجابته في ثقة، قبل أن تخرج من عيادته:" يا دكتور، كل من راد يرجع رجع!"

فاتكأ على جرحه النازف، بانتظار أن يعود مع الصباح:" **لا بد إذاً من قوة الحلم، وسطوة البارود.**"

❖

/ أذكر أستاذنا فتحي الحاج سعيد، وقد أحضر معه الدكتور حلمي، يدوّن على السبورة، تحت التاريخ وحكمة اليوم: الحصة: الخامسة

المادة: موسيقا

الموضوع: القدس لنا.

ثم يسطر عبارة" الغضب الساطع آتٍ" بخط كبير، يرددها عدة مرات منغمة، ويأمر الطلاب بإعادتها، كي يؤدوا دور الكورس.

بعد ذلك يُدوزن عوده طالباً مني الحضور إليه. فأقف على بعد خطوتين. ويقف إلى جوار كرسي، يضع رجله اليمنى عليه في وضعية الاستعداد للعزف. ثم يرسل للأساتذة أن يحضروا. فيتركون طلابهم يحلون مسألة رياضيات، أو ينقلون تمرين خط على دفاترهم. وأبدأ:" لأجلك يا مدينة الصلاة أصلي" فإذا وصلت إلى مقطع" الطفل في المغارة، وأمه مريم، وجهان يبكيان..." تذكرت حديث الدكتور حلمي، ومعاناة النازحين الذين جاؤوا من أنحاء الجولان إلى الزفتية، فيرق صوتي مع بحة حزينة تقترب من الغصة المؤلمة، بينما تشحب وجوه الأساتذة، وألمح دموعاً تترقرق في عيني الدكتور حلمي.

شيئاً فشيئاً تكثر الحركة خلف باب صفنا الخشبي،فيُفتح عن غير قصد، إذا طلاب الصفوف الأخرى تركوا مقاعدهم، وجاؤوا يستمعون لأنشودة زهرة المدائن، فينتفض مدرب الفتوة، ويحمل في يده العصا الغليظة، محاولاً القيام لإعادة الانضباط. لكن مدرس الرسم والأشغال الأستاذ عامر يثنيه عن عزمه:" طول بالك يا أستاذ. انتهى الدوام." فيتوعد الطلاب، ملوحاً بعصاه تلك، حتى يعودوا إلى صفوفهم، لكنهم ما أن يسمعوا جرس الانصراف، حتى يتسابقوا خارجين من المدرسة باتجاه بيوتهم، وهم يرددون، في عزيمة لا تحد، بأصوات هادرة:" الغضب الساطع آتٍ.. آتٍ." /

❖

يلقي الدكتور حلمي نظراته نحو البعيد آملاً أن يعود إلى مدينته القدس، يفتح عيادته هناك:

ـ للموطن الأول قوة الإيمان داخل النفس، إذ تصبح ذكرياتنا فيه كالشعائر المقدسة أيها الرفاق.

هكذا يخبرنا عندما نلتقي في عيادته، التي افتتحها قريباً من الزفتية، مضيفاً باللهجة المقدسية المحببة إلى قلوبنا:" فلسطين إذا أردنا أن نمثلها على الخارطة يجب رسمها بالدم من كثرة الشهداء الذين سقطوا فيها."

لقد عرَّفه كل منا على نفسه، وقلت بدوري:" أما أنا فنازح، ومو نازح."

يستغرب، فأفسر ما أعني. ليقول في جد يشوبه المزاح:" وأنا لاجئ، ونازح مع بعض."

نعقب في مرح:" يعني لاجئ ويعيد."

لكنه يستنكر ذلك:" بل قولوا: لاجئ ويعود، يا شباب."

❖

/ راح بدر رقوقي يقلِّد عبد الحليم حافظ بشكل متقن، فصوته يشبه صوت العندليب الأسمر، مع أن بدراً أبيض الوجه إلى درجة الشقرة، وشعره أصفر لامع. وكان الأستاذ فتحي في حصة الموسيقا، آخرَ الدوام المدرسي،

يعزف على عوده، ويغني بدر بصوته الرقيق : "صافيني مرة"، أو" أسمر يا اسمراني مين قساك عليَّ" ...

إلى أن فاجأنا بأنه يحفظ أغنية جديدة، ستعجب الدكتور حلمي، هو يعرف طبعاً علاقته الصداقية الوثيقة مع أستاذنا فتحي، الذي نحبه، ونجله كثيراً.

- وما هذه الأغنية يا بدر؟ سأله الأستاذ فتحي.

- رح أغنيها لما يحضر الدكتور.

- بس لازم أحفظ لحنها حتى أرافقك على العود!.

❖

ومع أن الطلاب باتوا، في الآونة الأخيرة، يتململون كلما وقف بدر على منصة الصف، فأغنيتاه اللتان يحفظهما، أصبحتا ممجوجتين، يصمت الجميع الآن عندما يكتب الأستاذ فتحي على السبورة موضوع حصة الموسيقا: أحلف بسماها وبترابها.

يحضر الدكتور حلمي من عيادته القريبة، بناء على إصرار بدر، الذي رفض الغناء في حصة الأسبوع الماضي، لأنه لم يحضر، وأستدعي الأساتذة من صفوفهم، يمتعض بعضهم، فأشجعهم: "في أغنية جديدة لعبد الحليم حافظ."

يصافح الأساتذةُ الدكتور حلمي بمودة وترحاب، ثم يركز الأستاذ فتحي وضع رجله على الكرسي، وهو يرحب بالحاضرين في ابتسامة مشرقة، لا سيما إذا كان سيعزف شيئاً يحبه، ويستمتع به. لحظة صمت أو قل لحظات قليلة، وانطلق بدر بقوة:"

-أحلف بسماها وبترابها

أحلف بدروبها وأبوابها

أحلف بالقمح وبالمصنع

أحلف بالمأذنة وبالمدفع

بولادي بأيامي الجيَّه

ما تغيب الشمس العربيَّه

طول ما نا عايش فوق الدنيا."

ومع أننا كنا نردد معه ما أمكن ـ فلم نحفظها بعد بشكل جيد ـ إلا أننا استسغنا إعادتها، المرة تلو الأخرى، ورغبنا أن تعاد أكثر فأكثر.

شيئاً فشيئاً استعادت حصة الموسيقا تألقها من جديد، لتتسع، مع انطلاقة حرب الاستنزاف الأولى على الجبهة السورية عام 70، فراح بدر رقوقي يبدؤها ب: أحلف بسماها وبترابها، ثم نغني، نحن الاثنين معاً، قصيدة " سأحمل روحي على راحتي." التي يتألق في أدائها الفنان صباح فخري. وأختم أنا حصة الموسيقا بنشيد فيروزي هو زهرة المدائن، بينما الطلاب جالسون يستمعون ـ في استمتاع غير آبهين بجرس الانصراف ـ إلى ما يقوله الدكتور حلمي عن الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود:

ـ لقد درس المرحلة الثانوية، ثم درَّس في كلية النجاح الوطنية بمدينة نابلس، حيث قاد المظاهرات فيها ضد مشروع تقسيم فلسطين. كان متعدد الاهتمامات، إذ علَّم طلابه كيف يتعاملون مع المسرح والسينما، الفن التشكيلي والموسيقا. كما درَّبهم على النظام المنضم بواسطة بنادق خشبية، تستخدم في المسرح، ليتلقوا دورة تدريبية سريعة في الكلية الحربية السورية، قبل أن يعودوا لمقاومة الزحف الصهيوني. بينما يلتحق هو بالكلية العسكرية في بغداد، ويتخرج منها ضابطاً برتبة ملازم، ينضم إلى الثورة العراقية بقيادة رشيد عالي الكيلاني ضد الاستعمار البريطاني. بعد ذلك يعود إلى فلسطين عام 41، ويقضي سبع سنوات، يتنفس خلالها الشعر، ورائحة البارود، متنقلاً من موقعة إلى أخرى، حتى كانت معركة الشجرة الضارية التي استشهد فيها يوم 13 تموز 1948. وهو الذي تنبأ قبل ذلك بلحظة استشهاده هذه، وخلدها سلفاً بقصيدته" الشهيد":

سأحمل روحي على راحتي

وألقي بها في مهاوي الردى

فإما حياة تسرُّ الصديق

وإما ممات يغيظ العدى..."

لتصبح نشيداً عربياً، يتغنى به المناضلون في كل مكان.

ويضيف الدكتور حلمي:" له الكثير من القصائد الاجتماعية والوجدانية الذاتية والإنسانية المعبرة عن موهبة شعرية أصيلة، كانت ستتضاعف بالتأكيد لو قدر له أن يعيش أكثر من 35 عاماً."

❖

/ من خلال الدكتور حلمي، والخارطة المعلقة في مواجهته طوال الوقت، عرفت أن فلسطين قريبة، والوصول إليها ممكن عن طريق القنيطرة، فجسر بنات يعقوب، أو عبر بحيرة طبريا بواسطة قارب، أو عن طريق نهر الشريعة أي نهر الأردن. لكنني احتججت، خلال درس الجغرافيا، لأن تل أبيب موضوعة على خارطة فلسطين، وهي عاصمة إسرائيل، فأخبرني الأستاذ فتحي موضحاً أنها:"كانت بلدة فلسطينية صغيرة، قبل أن يأتي اليهود، ويعلنونها عاصمة لهم، يا أيمن."

مع الزمن حولت أيامي إلى ساعات من القراءة داخل غرفتي المنعزلة، فتعرفت على وطني الكبير من محيطه الهادر إلى خليجه الثائر، ونهلت من الأدب والتاريخ والفلسفة، ثم رحت أكتب أشعاراً ثورية عن فلسطين، والحب طبعاً، إلى أن نبهني الأستاذ فتحي أن الشعر شيء، والواقع شيء آخر، ولا يمكن تحرير فلسطين بالقصائد فحسب./

❖

كان الدكتور حلمي بارعاً في عمله، أحبه أهل مدينة القنيطرة، خلال الفترة التي قضاها متدرباً في مشفى الجولان. والآن يشاهده، أصبح مرمى لرمايات العدو يتدربون عليه، حتى أحالوه إلى مبنى خرب مثقب كالغربال. فيقطر قلبه حزناً عليه....

مع الإعلان عن رفع العلم فوق مدينة القنيطرة المحررة، يستشعر شوقاً جارفاً إلى مدينة القدس:" **متى أمضي إلى هناك حيث الرجال والنساء والأطفال متسمرون بالأرض، كأنهم حجارتها أو أشجارها**."

بدا السهل المحيط بمدينة القنيطرة أحمرَ، تملؤه شقائق النعمان. فأسرَّ لنفسه:" كأن الأرض، **عندما يتغلغل فيها دم الشهداء، تزداد فتنة. وكأننا من خلال هذه الدورة، من التراب وإليه، نعاود تجديد الحياة.**"

يركب سيارته اللاندروفر المكشوفة، رغم إحساسه بالإرهاق الشديد، الذي عاناه مناوباً في المشفى العسكري 601، وهو يحدس داخله:" **إنها بداية النهار بانتظار اكتماله غداً.**"

يأخذ طريقاً خاصاً من مدينة دمشق إلى الكسوة، فبلدة جاسم، ثم فيق. ها هو يعبر جسر بنات يعقوب، المبني فوق نهر الأردن، ليصل إلى بحيرة طبريا، على حافتها أشجار الدفلى ذات الزهور الحمراء، مستعيداً ماضي السنين:" **لم تكن الطريق، من دمشق إلى القدس، مأمونة دائماً، فكم من قطاع طرق، جوع، وعطش، وموت زؤام.**"

ما إن يشرف على القدس، التي سيدخلها من باب العمود، أو باب دمشق، حتى تطالعه جدته أيامَ الطفولة، لتخبره:" كان إذا وقع فيها فساد يا حلمي ثارت عجاجة، تقلع الخيام، ترمي القدور، وتريق الطعام. بعد ذلك تأتي طيور بيض، مناقيرها طويلة، يقال لها الرخم، تأخذ القاذورات، لترميها بعيداً، يعقب ذلك مطر غزير، يغسل الأرض بالطول والعرض"...

غرفة خاصة

كل البلاد موحشة،
تدخلها " نازحاً"

يفتتح الراوي فصول الكلام، تطل الحكاية نافذة للبوح: في البدء كان التعب، أغوص في وحل الصبا، ألملم شوك الغربة: وحدي وغرفتي البائسة هذه، لا شيء فيها من خضرة تلك الأراضي في قريتي الهاجعة بوداعة على نهر الفرات، ولا أثاث كباقي بيوت زملائي الشوام.

رائحة اللباد تفوح منها.. رسوم هندسية ملونة بالدهان.. تزين جدرانها.. مكتبة صغيرة في الجدار.. بضعة كتب أحدها" علم النفس العسكري".. سرقته من مكتبة عمي أحمد.. خلال زيارتي للقرية في العطلة الصيفية.. طاولة من خشب السحاحير مغطاة بنايلون لاصق.. لونه بني داكن.. ليكون كالخشب.. أمامها كرسي خيزران مُخلوَع.. كثيراً ما وقعت عنه.. إن لم أسنده إلى الجدار....

قبل ذلك كنا ننام كلنا في غرفة واحدة.. وأقبع ساهراً.. أكتب وظائفي بينما مصباح الكاز نمرة 4 إلى جواري.. وعلى ما يبدو غفوت.. واشتعل دوَّار السرير المتبقي من عرس أمي.. أذكره جيداً: دوار أبيض.. مطرز بخيوط ملونة.. ما أجملها.. ولم نصحُ إلا على دخان خانق.. يملأ الغرفة.. ورائحة أشياء تحترق.. يومذاك احترقت يدا أبي.. وهو يحاول إطفاء فُرش الشراطيط، التي اشتعلت فيها النيران، كي لا تصل إلى السقف المكون من أغصان يابسة فوق بضعة جذوع مسوسة.. ولولا مساعدة جيراننا الشوام، سكان الحقلة.. لاحترق بيتنا كله.. لأن حنفية الجامع معطلة.. مازالوا يصلحونها منذ مدة..

وإحضار الماء يتطلب السير مسافة ألف متر تقريباً.. حيث راحوا يحضرون طناجر.. وسطول الماء من بيوتهم القريبة.. هم الذين لم يفعلوها من قبل.. لأنهم لا يحتاجون لنقل المياه.. فهي موجودة عندهم.. ويا له من مشهد.. حيث اجتمع رجال كثيرون.. ونساء كثيرات أمام غرفتنا المُشحوَرة.. وقد بدت كالمستنقع الآسن.

تم جلب كمية كبيرة من" الدوا الأحمر" وهو الوحيد المتاح لمعالجة الجروح والحروق وغيرها.. لُفت يدا أبي وذراعاه بالشاش.. وأحضرت أم قادر إبريق شاي كبيراً مع دزينتين من الكؤوس.. وضيَّفت الجميع.. حيث بدا جلياً أن المصائب تجمع أكثر من الأفراح.. فقلما حضر سكان الحقلة عرساً في الزفتية.

وإذ لم يستطع أبي شرب الشاي رحت أسقيه بيدي، وهو يحاول احتضاني ـ للمرة الأولى، على ما أذكر ـ فلا يستطيع.



ريح تهب.. ومصباح الكاز نمرة 4 يرفرف ضوؤه.. لأن البلورة مثقوبة.. ألصقت عليها ورقة.ثم يهطل المطر.. يظهر غزيراً من نافذتي المطلة على الطريق: خلف النافذة برد وظلام.. حاكمة أم الشامة تخرج من غرفتها، لتغلق نافذتها المخلعة، وهي ترتدي شلحتها النايلون الحمراء، على رأسها كيس خيش.. كي لا تتبلل. تعاود مراراً التأكد من إغلاقها. تبدو لي، تحت لمعة البرق، خائفة، وجهها ينضح بالرعب. ما إن تسمع نباح كلب شارد، أو مواء قطة، حتى تدخل غرفتها مسرعة، ثم تغلق بابها بإحكام، بينما الباب الخارجي موارب. فجأة تُفتح نافذتها تلك على مصراعيها، مع هبوب عاصفة هوجاء، فتخرج من بيتها، وهي تغطي رأسها بكيس الخيش. تحكم إغلاق الباب الخارجي بالمفتاح، فأسمع، بعد توجهها إلى دكان أبي مهيب ـ الساهر فيها، لأن زوجته تلد الآن ـ زمجرة رياح صاخبة، وأصوات رعد غاضب.

أجلس إلى طاولتي، أرتجف من البرد.. فالمدفأة مطفأة.. أنظر إليها بإشفاق: " **ما فائدتها، إذا ما في مازوت؟**" أحضر حراماً.. ألفه حولي.. ثم آخذ قلم الحبر السائل.. لأكتب..

*بغتة يدلف السقف فوق يدي التي أكتب بها.. فأضع الأخرى، مكورة نحو الأعلى، فوقها وأستمر: ليل وبرد.. دلف.. ووحشة قاتلة.. أجمع القطرات في يدي اليسرى.. يطرطش الماء.. فأنتبه:" **بدأ يتسرب في نعومة من يدي الممتلئة.**"* لذا أسحب دفتري بعيداً.. وأتابع الكتابة عنهم قبل أن أنسى:

- مازلت أحمل في جيبي منديل والد نجاة المعطر، أهدتني إياه، خلال لقائنا الأخير، وهي تحكي لي عن والدها، الذي يرجع إلى البيت، ويظل يقرأ، طوال الوقت، في كتب عنده، وكتب يحضرها من مدينة دمشق، وتكون معه دائماً. فلما صارت تقدر على القراءة قرأت، وما فهمت إلا القليل منها. لكن ذلك جعلها تحب أن تتجادل مع رفيقاتها في المدرسة، إلى أن ابتعدن عنها. وفصلوه من التدريس، فأجبر على السفر إلى لبنان.

فيا لبيت إن غاب صاحبه غام في الحزن والفاقة....

صبيةً كانت نجاة، تبرق عيناها كلما نزلت، أولَ الشهر، مع والدتها، وأخيها لطيف إلى سوق الحميدية، لتشتري ما يشاء لها الجمال، تباهي صبايا مدينة القنيطرة:" أنا أحلاكن."

-لا. انتِ سودا.

هكذا تعيرها إحداهن، فلا ترد.

وهنا في الزفتية، بعد افتقاد أبيها، تدمع عيناها، لا تجد ثوباً تلبسه في العيد، فتسجن نفسها من وجه العوز في خشة، تمسي فضاء للبكاء، وسط هذا التجمع البائس الحزين.

*كيف أنساها، وقد أخرجتني من بئر الحرمان، وأشعلت عواطفي بالحب والأمل:" **جميل أن تحب.. لكن الأجمل أن تكون محبوباً يا أيمن.**"*

لم يكترث بي أحد من أهلي، مثلما اهتمت نجاة لكل صغيرة، وكبيرة في حياتي، فراحت تنبهني إلى تصرفاتي:" لا تحمل التنكة على رأسك، فأنت شب."

وتلاحظ على ملابسي أي بقعة أو تجعيدة، حتى أنها طلبت مني أن أحضر قمصاني لتكويها، ثم عطرتها من عطر قديم، تركه والدها قبل سفره المشؤوم.

ـ الدكتور حلمي، أو طفل المغارة، كما يحلو لي أن أسميه، لأن أمه ولدته في مغارة ـ هكذا أخبرني ـ في أثناء اعتداء شنته عصابتا الهاغاناه وشتيرن على مدينة القدس: لقد جعلنا نحفظ عن ظهر قلب: "حالة عشق.. لا تتكرر فلسطين". لأحدس داخلي: "**لا يمكن أن أنساه، لأنه يحتل ذاكرتي**".

ـ وأبو هشام الذي كانت له مع النَّوَر ـ كما أعلموني عندما جاؤوا يبحثون عنه مساء يوم خميس ـ عشرة عمر، مازال يكثر من الشراب معهم، وهو يرقص مع بناتهم، كل ليلة جمعة، إلى أن يطلع الفجر، حتى ليصدق عليه القول المأثور، إذ طغى الآن الفلفل الأبيض على كامل شعر رأسه وشاربيه: "كثير من الناس يكبرون، لكنهم لا ينضجون".

❖

يحدثني أبو يوسف عميشة: "كنت ماراً مع صاحبي خالد قدام مديرية البرق والهاتف، عند ساحة الحجاز، لما اقترح علي:

ـ إيش رأيك نسجل على هاتف؟

ما قبلت، وقلت له:

ـ حتى يجي دورنا نكون رجعنا على بلادنا يا خالد.

كان رسم التسجيل رمزياً: 15 قرشاً سورياً فقط، إلا أن الحصول على خط هاتفي، تلك الأيام، يحتاج لبضعة عشر عاماً.

ـ صديقي جهاد المسافر في موسكو يُنظِّر علي في الفن، والأدب من هناك: "أن تعشق الرواية يعني أن تذهب إلى موعدك مع الكلام.. تقوله قاسياً بذيئاً.. تدين نفسك.. ولا تهاب رقيباً. هو موعد مع القلب.. تمضي إليه بخطى غزال.. رغم نك تمشي على الجمر"....

كي يستطيع حضور فيلم، أعجبه لعدة مرات، ينحرف داخلاً غرفة الإدارة، قبيل خروجه من السينما كالمعتاد، آخرَ رفاقه. بعد ذلك يخلع قبعته المستديرة، لأول مرة عن رأسه، وهو خارج بيته، ثم يلبس تلك الطاقية التي تميز عمال السينما، ويزنر الصدارة على وسطه، وقد علق على رقبته، بواسطة قشاط ناعم، طبقاً خشبياً، يركزه على صدره، فيه قطع كاتو، وأكياس قضامة وفستق، أو يحمل سطلاً معدنياً، فيه ماء مثلج، يحتوي عدة

كـازوزات، مـن ألـوان مخـتلفة. ينتظـره رفاقـه خـارج السـينما حتـى يملـوا، فيرجعـون مـن دونـه إلى الـزفتية. ومـا إن تطفـأ الأضـواء حتـى يخـرج بصدارته، وطاقيـة عامـل البوفيـه علـى رأسـه، يخلعهـا في إجـلال، ويـضعها تحـت إبطـه الأيسر، ليتابع الفيلم في خشوع ـ كأنـه يصلي ـ جالسـاً علـى أحـد الأدراج الواصلة ما بين المقاعد.

أسـأله: "مـا الـذي يجعـل للسينما هـذا الحـضور في حياتنـا أكثـر مـن المسرح؟"

يجيبني: "تمتلك السينما خصوصية الايحاء بواقعية، وحقيقية الحدث، الذي يجري أمامنا مع كل تفاصيل المكان، والزمان، والأداء التمثيلي: إننا، في المسرح، لا نستطيع أن نرى عيني الممثل، وحركة فمه، أو قلق أصابعه، كما في السينما."

سباسيبا جهاد

ـ بعـد وقـت لـيس بالطويل من خوضه حرب تشرين، ورفع العلم السوري فوق مدينة القنيطرة المحررة، سيعود الأستاذ ناجي ـ كما نناديه، لأنه درَّسنا مادتـي الفيزياء والكيمياء، وهو لا يرفض هذه الصفة، كغيره من الضباط ـ إلى قريته الساحلية، ويبني بيتاً في موقع خلاب، يشرف على الطريق العام من جهة ومـن جهاتـه الأخـرى علـى مـساحة واسـعة مـن الغابـات الطبيعيـة، كـأن الحـرب أكسبته وعياً في فهـم الحيـاة بـشكل أعمـق، لكـنه مـا زال يـردد داخله: "**عبير حب.. لن تجود به الأيام ثانية**."

هـا هـوذا، كلمـا جـاء إلى بيته هـناك، بـدت عينـاه عـصفورين مـبللين بالدمع، ورفرف قلبه على بيتها ـ الحديقة، ثم هوى، كلوح زجاج، وانكسر.

لقـد أخبرنـي أنهـا كانـت تأتـيه في الحلـم، وهـو في الكلـية الحـربية، فيدرسـان، كعادتهمـا، قليلاً، ثم يلعبان طويلاً لعبة الغميضة في حديقة بيتها الواسعة، فتضيع منه، ولا يجدها.

والآن ـ في الـزفتية، حين تتلبسه الوحشة خلال الليالي الطويلة الباردة، فيأرق غير قـادر علـى النوم ـ تجـيء، لتراقصه تحت المطر الهاطل بغزارة، ثم تعانقه، فيطويها بين جناحيه، وينامان في سلام.

يسألني: "هل تعرف يا أيمن من أين جاءت لفظة العاشق؟" اصمت. فيجيب: "في لسان العرب لابن منظور أنه سمي كذلك لأنه يذبل من شدة الهوى، كما العشقة، وهي شجرة خضراء، تذبل إذا قُطعت."

أضاف: "ويعني في المعجم الصوفي إفراط المحبة، أو المحبة المفرطة. فإذا عمَّ الحب الإنسان بجملته، وأعماه عن كل شيء سوى محبوبته، وجرى فيه مجرى الدم في عروقه، ولم يبق فيه متسع لغيره، حينئذ يسمى ذلك الحب عشقاً."

وختم مستشهداً بمجنون ليلى حين قال:

ولا خير في الدنيا إذا أنت لم تزر

حبيباً، ولم يطرب إليك حبيب

كعادته مازال يقرأ حتى ساعة متأخرة من الليل، وهو يشغل مسجلته الفيليبس على فريد الأطرش، مردداً معه: "لأكتب ع وراق الشجر

سافر حبيبي وهجر..."

لقد تطوع في الجيش، تسبقه أحلامه، في أن يثبت ذاته، ويساعد والديه المعدمين، وكي ينسى حبه الفاشل.

ـ وتلك الشجرة الوحيدة التي ألقت بأوراقها إلى أمها الأرض.. فبدت عارية جرداء.. كي تولد.. كل يوم من جديد.. ما تزال منتصبة في مدخل الزفتية.. تشهد على آلامنا وأوجاعنا.. أفراحنا القليلة المؤقتة.. وحزن دائم.. كما لو أنه سرمدي.. مع ذلك تقف متحدية.. تقصدها العصافير.. يعود إليها الفدائي مهران كلما أراد أن يستريح من مشوار الطريق، من مقبرة السيدة زينب إلى الزفتية، كأنها تعلن في صمتها الأزلي: **"لا بد من الصمود لمن أراد أن يعيش."**

زمن عصيب.. ظروف قاسية.. حنين حارق.. تحمله وجوه اولئك القادمين من أنحاء مختلفة من الجولان إلى خرابة.. كان يسكنها النَّوَر- رغم أن معظمهم هجرها إلا أنها مازالت تلحق بهم ـ بنى فيها النازحون بيوتاً لبنية بادئ ذي بدء.. بعدما تركوا بيوتهم خلف ظهورهم.. وجاؤوا يحتفظون

بمفاتيحها.. وسندات ملكيتها.. وبصور باهتة.. تظهرهم مبتسمين أمامها.. وعلى مداخل مزارعهم.. قرب تلة من التلال.. أو إلى جوار نبع ماء. ها هم يخبئون تلك الصور.. والسندات.. والمفاتيح في صناديق مقفلة بإتقان.. ومزخرفة بعناية.. كأنها صناديق عرس.

بعد أعوام عديدة يحولون جدران بيوتهم اللبنية إلى بلوك ـ يُخلط الرمل بالإسمنت مع حصويات صغيرة، ليصب في قوالب، حتى إذا ما جفت كانت أقوى من اللبن ـ مع سقوف خشبية، فوقها طبقة مونة إسمنتية، بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر الذي رفع شعار التحرير....

بعد الهزيمة عام 67 جاء رد القادة العرب على الشروط الإسرائيلية لتوقيع معاهدات سلام بعقد مؤتمر قمة في الخرطوم يوم 26 آب/ أغسطس 1967 أقروا فيه عدم التفاوض مع إسرائيل، أو الاعتراف بها، أو إقامة صلح معها، وهو ما عرف باللاءات الثلاثة، فأصبح شعار ما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة شعاراً جماهيرياً عربياً، وبدأت المقاومة الفلسطينية بعد عدة أيام تشن الغارات على مواقع العدو الأمامية، وتقيم الكمائن على محاور تحركه ـ في نشاط قتالي ملحوظ ـ وتنفذ عمليات التفجير في العمق المعادي، ما أدى إلى إيقاع خسائر مؤثرة بالإسرائيليين، وتشجيع الهجرة المعاكسة من إسرائيل، ورفع الروح المعنوية للجماهير العربية باتجاه هدف إزالة آثار العدوان.

وفي 8 آذار/ مارس 1969 فتحت المدفعية المصرية نيرانها على طول قناة السويس بغية تدمير خط التحصينات الإسرائيلية الذي أقيم على ضفتها الشرقية، وتكبيد الإسرائيليين خسائر كبيرة، فعُدَّ هذا اليوم ولادة حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية، وقد سقطت خلال الأسبوع الأول من حزيران/ يونيو 1970 في جبهة القناة 10 طائرات إسرائيلية، منها 7 طائرات فانتوم، وأطلق على هذا الأسبوع أسبوع تساقط الطائرات.

❖

لقد دونت سيرتي مخلوطة بسيرة جيراني النازحين، لأنهما كذلك في الواقع. حتى إنني كلما ذُكر الجولان انتاب قلبي دمع غزير، وعبقت في الجو

رائحة طيب. لكن: هل تكتمل الحياة بلا بيت حميم، شهد مولدك؟ وأصوات لازمتك خلال مرحلة الطفولة؟

لسان حالي يقول لي:" **إن الأرض التي أرضعتني من فراتها.. يفيض دمي حنيناً إليها.. كلما ذُكر نهر الفرات."**

لذا أنتبذ مكاناً قصياً، أخفض جناح الترحال، وأقبع قرب حلمي، أستعيد ذكريات، مضت.

أركن الحكاية جانباً.. وأسرد حضوري فيها من ذاكرة صبي.. يرتقب قادماً يأتي من الغيب.. فيسرج لهفة الكلمات إلى الحضور:

- لو أنني أعود إلى بيت جدي القومندار، مثلما يلقبونه هناك، إذ كان يخرج ليلاً، يبحث عن أي شخص غريب عن القرية، حصّاد أو تائه، بقي بلا مأوى أو زاد، فتستقبله حبابتي" عساوة المجيد" بالحفاوة والترحيب. ثم يقدمان له الطعام، والشراب والمأوى - رغم ضيق الحال تلك الأيام - ويستضيفانه في بيتهما المطل على النهر، والمحاذي للطريق العام، ذلك البيت الذي بناه والدي حجراً حجراً في أيام شبابه، وهو يغني مع الصافي وديع:

" عمر يا معلم العمار

شي اوضة وعلية ودار..."

فيا وقت أرجعني إلى قرية، أعرف درباً، ينسل في عمق الروح، يوصلني إلى كرُّوزتها، هكذا يسمون طريق السيارات، وبيت حجري، يزهو على ضفة الفرات....

صباحاً جدي يعد الشاي حلواً ثقيلاً، ثم يوقظني كي نفطر معاً على رغيفي خبز ساخن من تنور حبابتي.

عصراً أجلس على ساكية من حطب، تسورني أصص الريحان، ألمح روضة، تسحب دلو الماء من الجب، يطير عقلي، أعبر النهر إلى بيتها بجنون، أخوض فيه، لا أصبر على أحجار، وُضعت على مجرى الماء، فيتبلل بنطالي الشارلستون.

يتواتر الخطاب حواراً مباشراً بيننا:

- كيفك؟

- مشتاقة.

تضيفين:" بعرفك بتحب عبد الحليم حافظ."

وتشغلين المسجلة، تأخذني النشوة، فأشدو في انسجام معه:" عاشق ليالي الصبر مداح القمر."

تجتمع فتيات الجيران على شباكك العاشق، فتومئين لهن:" فوتن. هون ابن خالي."

- منين جاي يا روضة؟

- من الشام.

تحضرين القهوة، مع حزمة ورد حمراء من حوض، يسوِّر بيتكم، فتطلق صبية زغرودة فرح، تسكتينها: يسراك تكمُّ فمها، مع قرصة من أعلى الفخذ بيدك اليمين.

*أفرح يطربني نبض الزمن الحالم: **آه يا أيام العطلة الصيفية في العمارنة**[1]*

وشوشتك:" عطيني بوسة عربون الحب."

فنفرت، متصنعة الانشغال بأعمال المطبخ، أو ما تسمينه الاوجاغ، وما عدتُ رأيتك يومذاك.

أعود إلى الزفتية على أمل أن تصفحي، وأعتذر من كل قلبي نادماً:" يا مهبولة كنت أمزح."

لكن روضة تُخطَب، ثم تتزوج بعد وقت قصير إلى قرية قصية، فلا أعود أراها.

❖

---

[1] *قريتي، وهي تبعد عن مدينة جرابلس على الحدود مع تركيا 8 كم.*

ـ صوت شبابة ساحر، يلون صباحات الزفتية ومساءاتها بالحنين، ويستدرجني إلى الحلم الجميل، فتايه يعزف طوال الوقت: في عز الصيف، وتحت المطر، لأن ذلك يريحه، كما يقول....

هنا في الزفتية رفاقي كثيرون.. وأنا سعيد بهم.. لم ينس أحد منهم بيته.. أو أرضه هناك.. فالجولان عندهم أجمل بقاع الأرض.. ماؤه ألذ وأطيب ماء في الدنيا.. وهواؤه أنعش هواء.. ورغم أن إسرائيل.. حسب أخبار الأرض المحتلة.. دمرت قرى الجولان.. ومسحتها عن الوجود..لكنهم مستعدون ليدلوك على بيوت قريتهم بيتاً بيتاً.. وعلى موقع المدرسة.. والجامع.. والكنيسة.. وأين كان الرجم الفلاني.. والشجرة العلانية. ثمة العديد منهم انضموا إلى الجيش.. قاتلوا في حرب تشرين بشجاعة نادرة.. سبحوا في بحيرة طبريا.. أو شُبِّه لهم.. استشهد بعضهم.. وآخرون مضوا إلى قراهم التي تحررت.

هأنذا أسمع الآن أصواتهم: "شكراً لأنك أعدتنا إلى الحياة من جديد."

ألتفت لا أجد حولي إلا الصدى.

شمس حزيران الحارقة

لا تنتقل السيادة لمجرد قيام حالة مؤداها احتلال الأرض:" لأن القوة لا تخلق الحق."

ينظر حازم إلى السماء، منتظراً رجوع حمامته البيضاء، يُصفّر في ترقب حزين، لعلها تظهر. لكن دونما فائدة ترجى:" **يمكن لاقت أهلها**."

تطير عيناه خلف الأفق البعيد، ناظراً حواليه، كمن يبحث عن صديق، غاب:" **ياريتك معي يا تايه.. كنا لعبنا سوا**."

❖

حيران ذاهلاً كالمذعور، يترنح في مشيته وسط شوارع مدينة دمشق، فيتراقص ظله الواجف كيفما مشى. يخاف منه، فيهرب، بينما ذاكرته في بياض سقيم:" من أنا؟"

يراه الناس، فيضحكون منه، وآخرون يشفقون عليه:" **مؤكد أصابته صدمة، فتشوش ذهنه.**"

لقد كثرت هذه المشاهد بعد نكسة حزيران 67.

كانت والدته تدعو له:" الله معك كيف ما رحت، وكيف ما جيت"....

يلف الأستاذ ملحم رغيف الخبز حول ذاته، كأنه سندويشة. ثم يتناول حبة البندورة باستعجال:" وين الملح يمي؟"

تناديه: " اصبر حتى يستوي الأكل."

يرد متلهفاً: " بقدرش. عندي موعد."

فتدرك الأم بحدسها الصائب أنه سيذهب للقاء بشرى.

❖

كان يبقى على نار حتى تنتهي الدروس، ليحضر إلى بيتها يجدها تنتظره على شرفتها المشتاقة. تومئ أن اقترب. فيضع دفتر تحضير الدروس، وديوان شعر، تحت إبطه. ثم يبسط كفيه، لتملأهما بالياسمين. وهي ترنو إليه بخفر، يتنسم ياسمينها العابق بالشذى، مثل عاشق ولهان.

في المرة الأولى شاهدته، يجمعه من على الأرض. فما كان منها إلا أن أخذت كمشة، رمتها على دفعات فوقه، حتى امتلأ المكان من حوله بالبياض الناصع، وغطى رأسه وكتفيه. عندئذ أخرج شبابته، وراح يعزف لها. فأطربها عزفه الشجي الجميل.

والآن لو أن أمَّه حيةٌ، هيهات تطيق صبراً أن ابنها ـ الأستاذ المحترم كما يدعوه أهل القنيطرة ـ يتيه في المكان الغريب. ربما تنبأت بالأمر منذ يوم النزحة المشؤوم، فطمرت عينيها في لحم الأرض، حتى لا ترى ما آلت إليه الحال.

❖

تتأمل بشرى مدينة القنيطرة في حسرة، ثم تتطلع بعيداً نحو المدرسة الابتدائية، تُحدِّث نفسها: " **هناك كان يُدرِّس ملحم**"....

أخذ يكتب فيها قصيدة تلو أخرى. فطلبت منه ديوان شعر، أحضر لها عدة دواوين، راحت تلتهمها، كأنها تحضِّر لامتحان الشهادة الثانوية التي تنوي تقديمها. والآن تتحرق لمشاهدته من جديد. بعدما طغى ليل النزوح الأليم: أيام عصيبة لا تحتمل، وهي تقيم مع والدها في خشة، إلى جوارها أخرى أصغر منها، يضع فيها عربة بسطته. لقد صاروا ينادونه بالعجوز، بعدما أمسى يسير محني الظهر، متكئاً على عصا غليظة، لم تعد تفارقه.

واللحظةَ يكاد قلبها يقفز كعصفور، كلما سمعت عزف شبابة، أو تردد اسم ملحم في ذهنها. فكم من مرة حلمت به، يعود إليها من أجل أن تكحل عينيها النديتين بمرآه، ليعم الضياء. أرجاء المعمورة من حولها...

تجلس على كرسي من القش أمام باب خشتها، تخيط ثوبها الوردي. كانت النسمات منعشة، تداعب وجنتيها. فجاء على حصان أبيض. ركضت إليه، تسأله: "منين هذا الحصان؟"

ودون أن يجيبها يترجل، ناظراً إليها في محبة، واشتياق عاصف: "معي خاتم الخطبة."

- خليه معك لحتى نرجع.

- كيف؟

وتشرح له أن هذه إرادة أبيها، ألا يزوجها إلا بعد الرجوع إلى المجدل. عندئذ يعتلي حصانه في صمت منزعجاً. فتتقدم منه حاملة طوقاً من الياسمين. إذ يسقط من يدها، تنغز الإبرة باهمها الأيسر، لتصحو على ثوبها، ارتمى على الأرض. فتتنهد في غصة حارقة: **"لكن كيف صار هيك يا أستاذ ملحم؟"....**

وقعت سورية مع الجمهورية العربية المتحدة اتفاقية دفاع مشترك في 4/ 11/ 1966 لمواجهة احتمالات العدوان الإسرائيلي على إحدى الجبهتين: السورية أو المصرية. وفي السابع من نيسان 1967 وسط الاحتفالات بتأسيس حزب البعث شنت إسرائيل عدواناً شاملاً ضد قواتنا في الجولان على مدى يوم كامل، قصفت فيه مقرات القيادة، ومرابض المدفعية، ونقاط الدفاع الأمامية، وخاض طيراننا عدة اشتباكات مع الطيران المعادي، حيث أسفر هذا الهجوم الغادر عن عشرات الشهداء والجرحى، إضافة إلى سقوط ست من طائراتنا، أما إسرائيل فلم تعلن عن وقوع خسائر لديها.

في الرابع عشر من شهر أيار عام 67 أعلن قائد الجيش الإسرائيلي اسحاق رابين أن قواته ستضرب سورية، للإطاحة بنظام الحكم فيها. وراحت

إسرائيل تحشد قواتها على الحدود، فأعلن الرئيس جمال عبد الناصر أن مصر لن تقف مكتوفة الأيدي إذا ما تعرضت سورية للاعتداء. وأخذت الأحداث تتأزم:

تم سحب قوات الطوارئ الدولية من شرم الشيخ وغزة، ثم أغلق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية، وانطلقت جحافل الجيش المصري نحو الجبهة عبر صحراء سيناء، وعلت ضجة الشائعات في صخب، تعلن أن الجيوش العربية ستحرر فلسطين، وتلقي اليهود في البحر.

في 4 حزيران الوضع العربي على نار: الإعلان من أعلى السلطات:" إننا ننتظر المعركة على أحر من الجمر."

تم توقيع اتفاقية دفاع مشترك بين الجمهورية العربية المتحدة والأردن، تم بموجبها تعيين الفريق عبد المنعم رياض قائداً للجبهة الأردنية. بعدها انضمت العراق إلى الاتفاقية، وأخذت الأغنيات عبر الإذاعات تؤكد:" كل شيء للوطن/ كل شيء للقضية..." بينما شكلت إسرائيل وزارة حرب بقيادة موشي دايان.

وفي غرفة الإدارة، بعدما عُلقت الامتحانات العامة، ينصت الأساتذة إلى ما يقوله المذياع من أخبار:" المشير محمد فوزي، رئيس هيئة أركان حرب القوات المصرية، يعتقد في شعور راسخ بأن التحرير لم يحصل إلا لأننا لم نقاتل بعد."

ويسهب المذيع بصوت مجلجل:" لقد قامت دولة العصابات الصهيونية بحشودات، وتحركات عسكرية غير طبيعية، على الحدود مع سورية، لشن حرب عدوانية عليها، وكان السؤال: هل تقوم الحرب، التي ينتظر الجميع قيامها، لأنها ستؤدي إلى النصر والتحرير؟"

ـ قولك بنرجع أستاذ؟

ويجزم الأستاذ خالد معاون المدير:" بالتأكيد رح نرجع نشوف حيفا، وعكا، ويافا كمان."

ثم رفع صوت المذياع عالياً، وكان يغني:" أذكر يوماً كنت بيافا..."

❖

5 حزيران يوم عادي، الناس يمارسون أعمالهم الاعتيادية. وجاء البيان العسكري الأول من إذاعة القاهرة:" لقد اقترف العدو حماقة كبرى عندما بدأ عدوانه على أرض مصر الحبيبة."

بعده البيان السوري:" لقد دخلت قواتنا الحرب إلى جانب مصر، وتقوم طائراتنا بقصف مواقع العدو."

(في الساعة الواحدة إلا عشر دقائق من ظهيرة الخامس من حزيران وجه الطيران السوري ضربة للمطارات الإسرائيلية في المنطقة الشمالية، وإلى مصفاة حيفا، لكن سلاح الجو الإسرائيلي كان جاهزاً، ودمر أكثرها، وخلال معظم الوقت الذي كان فيه الإسرائيليون يقاتلون في سيناء والضفة الغربية استمرت المدفعية السورية بقصف عنيف ومتواصل للمستعمرات الإسرائيلية شرق الجليل، وقد تطور القصف المدفعي، وامتد على طول الجبهة، وفي ثلاث مناسبات مختلفة قام السوريون بعمليات استطلاع بالقوة ضد المستعمرات الإسرائيلية، وتم صدهم.) [1]

ويصفق الأساتذة بعد سماعهم البيان العسكري السوري، وهم يصيحون:" ولعت يا شباب. طاب الموت يا عرب."

ثم تداعوا على الفطور غداً في مدينة حيفا. بينما أكدت الحقائق الموضوعية بأن الحرب انتهت، من الناحية العملية، منذ دمر سلاح الطيران الإسرائيلي - بدعم أميركي بريطاني قبل الحرب وبعدها - المطارات المصرية، بعدها السورية، والأردنية، حيث كانت الطائرات المقاتلة على مهابطها دون ملاجئ لحمايتها، ما مهد لاحتلال سيناء، والضفة الغربية، وشرقي القدس، والجولان....

---

(1) حاييم هرتزوغ رئيس إسرائيل السابق في كتابه الحروب العربية الإسرائيلية.

بالرغم من أن العرب أدركوا، عند ظهيرة الخامس من حزيران، أنهم سيحاربون دون غطاء جوي، وأن العدو سيستخدم طيرانه على أوسع مدى، فقد واصلت الجبهات الثلاث، على نطاق واسع، قتالاً مريراً.

كان الطيران العراقي أقل الأسلحة الجوية العربية تضرراً بالغارات الإسرائيلية المفاجئة، إلا أن تدمير مدارج المطارات، التي يستطيع الانطلاق منها في الأردن، جعل فعاليته أقل. ومع ذلك فقد استطاع هذا السلاح الكفؤ أن يقوم بحوالي خمسين غارة في يومين على تل أبيب، ونتاليا، ومطارات العدو في النقب. وباعتراف العدو نفسه، فإن الطيران العراقي لم يفقد في هذه الغارات الخمسين، فوق الأراضي المحتلة إلا طائرة واحدة، ومثل ذلك أبدى الطيران السوري بطولات خارقة، وضرب حيفا، والعديد من المستعمرات في الجليل.

لقد تكبدت القوات الإسرائيلية، البرية، والجوية، على السواء خلال هذه الحرب خسائر فادحة في الأرواح والمعدات: فمن الطائرات خسرت ما يزيد عن مئة طائرة، وما يتجاوز المئات بكثير من الدبابات والمصفحات، لا سيما في المعارك على الجبهة السورية....

عملياً حشدت إسرائيل على الجبهة المصرية ما لا يقل عن 170 ألف جندي لمواجهة 80 ألف جندي مصري على الأكثر، وحدث الشيء ذاته على الجبهتين السورية، والأردنية. ففي الوقت الذي بدأ فيه الطيران الإسرائيلي يوجه ضربته الجوية إلى المطارات المصرية انتقلت قواته البرية التي حشدت على اتجاه سيناء للهجوم. وحتى نهاية اليوم الأول تمكنت من خرق دفاع النسق الأول، مستفيدة من المفاجأة التكتيكية التي أصابت القوات المصرية نتيجة استخدام الأرتال المدرعة الإسرائيلية على مجنبة ومؤخرة المواقع الدفاعية المصرية، ومرورها في الأراضي التي كانت القوات المصرية تعتبرها أراضي غير صالحة لتقدم الآليات، وكذلك قيامها بغارات ليلية على مرابض المدفعية المصرية، والمغامرة في دفع أرتال المدرعات ليلاً، متسربة إلى عمق الدفاع المصري، حيث تمكنت من قطع الطريق على التعزيزات التي أرسلت إلى تشكيلات النسق الأول.

قاتلت الوحدات المصرية في النسق الأول ببسالة، لكنها خاضت معاركها بصورة مجزأة، وفوجئت بالتكتيك الهجومي للقوات الإسرائيلية، الذي جعل معظمها في حالة تطويق حتى مساء اليوم الأول، ما مكن قوات العدو من الوصول إلى مدخل العريش، وبدلاً من أن تعطي القيادة الميدانية في سيناء أمراً لهذه القوات بالمناورة بالقوى، والوسائط لضرب مجنبات، ومؤخرات وحدات العدو، التي تمكنت من خرق الدفاع، أعطت أمراً لقواتها بالارتداد ليلاً، والانسحاب إلى النطاق الثاني مما أفقد هذه القوات ما تبقى من قدرتها القتالية.

في صباح اليوم التالي 6حزيران سقطت مدينة العريش، والمواقع الدفاعية المجاورة، واندفعت قوات العدو باتجاه نطاق الدفاع الثاني، وفقدت القيادة الميدانية في سيناء سيطرتها على قواتها، خاصة بعد أن قطع العدو خطوطها الهاتفية، وشوّش على اتصالاتها اللاسلكية. في الوقت الذي كانت فيه القيادة المصرية العليا ما تزال تعاني من أثر الصدمة النفسية التي أصابتها في اليوم الأول نتيجة تدمير الطيران المصري. وجاءت الصدمة الثانية الناجمة عن خرق الدفاع لتؤدي إلى إصابتها باليأس من استمرار القتال، فأصدر المشير عبد الحكيم عامر أمراً عاماً بالانسحاب من سيناء الساعة الثانية عشرة، أي بعد 27 ساعة من بداية الهجوم الإسرائيلي. وبذلك تكون القيادة قد نقلت صدمتها النفسية إلى قواتها الميدانية موقعة بها خسائر كبيرة، وهي تحاول إنقاذها. وكان سؤال السفير السوفييتي، والملحق العسكري، السوفييتي للمشير عامر هو:" لماذا لا يُترك الجيش يقاتل، ويثبت صموده، في حين يمكن تعويض الطيران بأسرع ما يمكن؟"

وتشير خبرة الحروب إلى أن في هذا القول كلَّ الصواب.

في مساء الثامن من حزيران وصلت القوات الإسرائيلية إلى قناة السويس، وقبلت مصر وقف إطلاق النار في الساعة الرابعة وخمس وأربعين .قيقة مَن صباح يوم 9 حزيران بتوقيت القاهرة الصيفي.

وعلى الجبهة الأردنية، في الوقت الذي انتقلت فيه القوات الإسرائيلية للهجوم على الجبهة المصرية، بدأت وحداتها أيضاً تحتل قواعد للهجوم على الجبهة الأردنية. وفي الساعة الحادية عشرة والربع بادرت مدفعيتها بفتح نيرانها على مواقع القوات الأردنية في القدس، وظلت في قواعد إطلاقها تدقق مهامها القتالية بانتظار تدخل الطيران الذي تمكن حتى الساعة الثالثة من توجيه ضربة شديدة إلى المطارات السورية والأردنية. وبعد أن حقق السيطرة الجوية الكاملة على مسرح العمليات السوري - الأردني انتقلت القوات البرية الإسرائيلية إلى الهجوم على الجبهة الأردنية، موجهة ضربتين بآن واحد، الأولى على اتجاه القدس ـ رام الله ـ أريحا بقوة مجموعة قتالية مكونة من حوالي أربعة ألوية مشاة مع لواء دبابات، ولواء مظليين، والثانية على اتجاه جنين ـ نابلس - جسر دامية بقوة مجموعة قتالية مكونة من لواء دبابات ولواء مشاة. وقد حققت القوات البرية الإسرائيلية تفوقاً كبيراً بالقوى والوسائط على اتجاهي الهجوم، لأن الجيش الأردني المكون من ثمانية ألوية مع لواءي دبابات كان ينتشر دفاعياً على جبهة واسعة مدافعاً عن حدود الضفة الغربية التي يبلغ طولها 250 كم. وخلال يومين من الأعمال القتالية الضارية احتلت القوات الإسرائيلية مدينتي القدس ورام الله على الاتجاه الجنوبي، ومدينتي جنين ونابلس على الاتجاه الشمالي. وبدأت القوات الأردنية بالانسحاب ليلة 7 حزيران باتجاه جسور نهر الأردن. وقد لعب الطيران الإسرائيلي دوراً كبيراً في تدمير الاحتياطات المدرعة الأردنية: (لواء 40 مدرع ـ لواء 60 مدرع) ومنعها من تعزيز دفاع ألوية النسق الأول. وحتى الساعة السادسة مساء من يوم 7 حزيران وصلت الوحدات الإسرائيلية إلى جسور نهر الأردن التي تربط الضفتين، وفي الساعة الثامنة قبلت كل من الأردن وإسرائيل وقف إطلاق النار....

منذ البداية بدا الموقف في طريقه إلى التدهور السريع في الضفة الغربية: هجوم مركز على مختلف المحاور مع قصف جوي عنيف ليلاً ونهاراً، حيث دُمرت عملياً القوات الأردنية والعراقية في(إتش 3) وكان البقاء ليوم واحد في الضفة الغربية سيؤدي إلى محاصرة الجيش الأردني بالكامل وتدميره.

لكن لو أخذنا بعين الاعتبار مقاومة بور سعيد في أثناء العدوان الثلاثي على مصر كنموذج مصغر لما تقوم به المقاومة الشعبية عند محاولة احتلال البلاد لاستطعنا أن نتصور القوة الهائلة التي يمكن أن تكون في الضفة الغربية لو نُظم الدفاع عنها على أساس الجيش ودعامته الأساسية المقاومة الشعبية معاً.

إنها هجمات الساعات الست الصاعقة من الجو، صباح الخامس من حزيران، وحرب الأيام الستة على الأرض، ليعلن موشي دايان في صلف وغرور:

- إذا كان العرب يريدون التفاوض فهم يعرفون بأي رقم يتصلون.

❖

1967 كانت سنة خصب في الجولان: مطر غزير، ومحصول وفير، حقول القمح فارت، واكتنزت سنابلها. فقالت امرأة عجوز: "لما يصير القمح بطول عرف الحصان تحدث كارثة."

وحدثت فعلاً.. أو لنقل حلت اللعنة على هذه الأرض الخيرة.. فترك أهلها غلالهم.. أكياس حنطتهم.. أشجارهم الخضراء.. بيادر القش.. أكوام حطب المواقد.. حصى الطابون ساخناً.. جدائل الثوم.. قفف البصل.. أباريق الدبس.. خوابي الزيت.. وجرار العسل.. تركوا ثيابهم معلقة على حبال الغسيل.. ودجاجهم في القن.. بغالهم وحميرهم.. ومشوا كالظلال حاملين صررهم، وعدة القهوة، فهم لا يستغنون عنها، تلاحقهم النيران الإسرائيلية، كي تجبرهم على المضي بعيداً، بينما قراهم تعدو خلفهم: "لمن تتركونا بعدكم؟"

وفي مدينة القنيطرة: بدت جموع النازحين تمضي تاركة بيوتها خوفاً من الإسرائيليين، الذين سيخرجون - حسب الزعم البائس - من تحت الأرض، بعدما حفروا نفقاً يوصل إلى القنيطرة. هكذا زعم بعضهم، وصدَّق الكثيرون، نتيجة الفزع الذي زرعته وسائل الإعلام في النفوس، وهي تتحدث عن الفظائع التي ارتكبتها إسرائيل. ويؤكد ذلك أبو ماجد: "وإلا.. كيف سقطت القنيطرة.. ونحنا فيها؟".

صراخ الأطفال، والنساء، والشيوخ يملأ الطرقات، والكهوف، والأودية في كل مكان، وهم يمضون بحزن، وقلق عميقين، ألقوا نظراتهم إلى الخلف، ولم يتوقعوا أنها النظرات الأخيرة صوب أرضهم التي أحبوها، أكلوا من خيراتها، شربوا من مائها، وتنسموا هواءها العليل، أرضهم التي ولدوا عليها، وتمنوا أن يموتوا فيها، ليدفنوا داخل حضنها الحميم، فتنعم أجسادهم بالسكينة والسلام، ثم تشكل خميرة في شريانها النابض تحت التراب، تمنحها الخصب العميم. لذلك راحت عيونهم تمسح المسافة التي قطعوها رجوعاً إلى بيوتهم التي تركوها خلفهم، فبدوا كأنهم يرجعون من حيث أتوا، عائدين إليها.

بعضهم ساروا زاهلين بسرعة أول الأمر، غير أنهم، بعد مسافة قصيرة، راحوا يراوحون في أماكنهم، ثم وقفوا، كأنهم يستجمعون أنفاسهم، وقرروا العودة إلى قراهم التي تركوها خلف ظهورهم. لكن الجنود الإسرائيليين كانوا لهم بالمرصاد، فمنعوهم من ذلك. بل قتلوا بعضهم بدم بارد، حين قصفوا تجمعاتهم غير المتحركة، أو العائدة إلى الخلف، لإجبارهم على المسير ثانية باتجاه الشرق، هرباً من قذائف الموت التي ترميهم بها المدفعية والطيران الإسرائيلي....

على الطريق أصابت قذيفة شاباً، نسي نفسه بالثياب العسكرية، ولم تجدِ محاولاته أن يتوارى وسط جموع المدنيين. فتحول الطريق إلى حفرة من الأشلاء البشرية المتناثرة هنا وهناك. وعلى مرمى النظر، كانوا يشاهدون الطائرات الإسرائيلية، وهي تقصف أول المواقع العسكرية، وآخرها حتى تمنع الآليات من التحرك، بعد ذلك تُمشِّط المنطقة بقنابل النابالم، لتحرق الأرض، وتبيد من عليها....

وافقت سورية على قرار مجلس الأمن رقم 235 القاضي بوقف إطلاق النار على جبهات القتال، بناء على نصيحة الرئيس عبد الناصر، التي أُعلنت مساء 9 حزيران، فاستغلت القيادة الإسرائيلية ذلك، وقامت بحشد قواتها على جبهة الجولان بعدما استقدمتها من الجبهتين المصرية والأردنية، مع ذلك خاضت قواتنا، رغم السيطرة الإسرائيلية المطلقة على الجو، معارك ضارية

مع قوات العدو، وصف إحداها الجنرال ديفيد أليعازر قائد المنطقة الشمالية في إسرائيل بالقول:" لقد اشتبكوا معنا بالأيدي، والخناجر، والأسنان، وأعقاب البنادق، واستمرت معركة على هدف واحد أكثر من ثلاث ساعات، قُتل فيها قائد الكتيبة المهاجمة، وقادة سراياه، كما أصيب لنا أكثر من مئة جندي بين قتيل وجريح."

جاء ذلك في مؤتمر صحفي، عقده بتاريخ 16 حزيران 1967 بحضور قادة وحداته التي قاتلت في الجولان.

ولم يحقق الإسرائيليون هدفهم بمحاصرة قواتنا في القطاعين الأوسط والجنوبي، بعدما اجتاحوا القطاع الشمالي للجبهة. لكن بعد يومين من توقف المعارك، وسريان مفعول وقف إطلاق النار احتلت القوات الإسرائيلية موقع جبل الشيخ الإستراتيجي.

❖

وبينما كان الأستاذ ملحم عائداً من مدرسته، التي تفقد صفوفها بعدما عُلقت الامتحانات العامة بسبب الحرب، بدأ العدو يقصف مدينة القنيطرة. واستهدفت إحدى القذائف مخفر الشرطة الملاصق لبيته. حتى إذا ما وصل إليه في اضطراب واضح، بدا كالمخبول، وهو يرى أمه وأخته هامدتين، بلا أية حركة، وسط بركة من الدماء، تحيط بهما النيران من كل جانب. حينذاك بدأت الأرض تهتز تحت قدميه، وراحت الدنيا تلف به، وتتأرجح من حوله، فاصطدم رأسه بالجدران المتراقصة حواليه، ثم صار يتخبط، إلى أن جره بعضهم بعيداً عن النيران، فمضى ذاهلاً، لا يلوي على شيء.

❖

كانوا على طريق النزوح يظلون عدة أيام في كل قرية يصلونها، في ضيافة مختارها طبعاً باعتباره أغنى وأكرم من فيها.

بدأت وفود تأتي، ووفود تذهب:

من بير عجم إلى الحارة،

فجاسم، ومنها إلى كفر شمس،

من واسط إلى كفر شمس،

من نبع الصخر إلى كفر شمس:

وفيها قدَّم المختار للنازحين فُرشاً ولحفاً، وأعانهم طالما بقوا في قريته، إلى أن يرحلوا....

بعد ذلك شكلوا مجموعات استطلاع، جاءت إلى مدينة دمشق، لتُعرِّف الناس أين يتوجهون. فسكن بعضهم بنايات على العظم - حوالي 15 بناية - في مساكن الزاهرة، ومنطقة المزة.

وآخرون سكنوا في بنايات برزة، حيث أخذت كل عائلة- مهما كان عدد أفرادها- غرفة واحدة، يعملون داخلها كلَ شيء: يطبخون، ويأكلون، وينامون...

واضطر بعض الذين أحضروا أبقارهم أن يسكنوها أعلى البناياتِ غيرِ الجاهزة للسكن بعد، حيث لا طينة ولا دهان، وأحياناً لا أبواب، ولا نوافذ. افترش الكثيرون الأرض، لأنهم لم يحضروا معهم فرشاً، ولا لحفاً، وأصبح المطبخ مشتركاً للجميع، كذلك المرحاض، أما الحمامات: فكيف لهم أن يستغنوا، وهم في حاجة ماسة لإيواء الصغار الكثيرين، عن غرفة مهما كانت ضيقة، لتكون حماماً، لذلك علقوا على حبل، في الغرفة الوحيدة، التي استطاعوا الحصول عليها، شرشفاً - أو بطانية عسكرية- عند الزاوية القريبة من البالوعة، ثم وضعوا على وابور كاز صفيحة ماء حتى سخنت، واغتسلوا.

أما أغلبية النازحين الذين قدموا إلى دمشق وريفها فسكنوا، أول الأمر، في المدارس التي امتلأت بهم، حتى إذا ما بدأ الدوام الدراسي انتقلوا إلى تجمعات، أعدتها الدولة، مؤلفة من مجموعة كبيرة من الخيام في جرمانا، سبينة، الكسوة، وفي منطقة البيادر قرب بلدة ببيلا، حيث نصبت

حوالي(100) خيمة للنازحين. وكلمة حق تقال: لولا القيم النبيلة، والأخلاق الحميدة، التي يحملونها لحصلت مشكلات لا عد لها، فالخيام كانت قرب بعضها، وحتى يقضي الرجل، أوالمرأة، حاجته كان يمشي مئات الأمتار.

على طريق دمشق حمص أقاموا تجمع الوافدين الذي بدا واسعاً: خيام على مد النظر. ثم شيئاً فشيئاً حولوها إلى بيوت لبنية، أو بلوكية ضيقة بائسة.

من واسط إلى قطنا ومنها إلى قطعة الأرض، التي كان يملؤها الشيح، وليس فيها مصد للريح، المسماة خان الشيح. هناك حيث سبقهم اللاجئون الفلسطينيون، وعاشوا في بيوت حجرية، فجاء النازحون، وتقاسموا معهم تلك البيوت.

أما أهالي زعورة، عين فيت، الحمدانية، الخشنية... فأقاموا تجمعاً قرب قدسيا، أسموه المنصورة نسبة إلى تلك البلدة التي تقع ما بين مدينة القنيطرة وواسط.

كثيرون مضوا إلى محافظات أخرى كدرعا، وحمص، وحلب، واللاذقية، بل إن بعضهم ذهبوا إلى لبنان، أو الأردن...

هناك من خرج من بيته، ولم يكن معه إلا لباس يستر جسمه، لا غير.

بعضهم مشوا في مسار، بينما أولادهم مشوا في مسار آخر، فضاعوا عنهم، آخرون نسوا صغارهم نياماً في فرشهم...

الكثيرون منهم قتل الإسرائيليون مواشيهم: بقراتهم، وأغنامهم، وماعزهم، وحتى دجاجاتهم، كي يجبروهم على النزوح.

آخرون بقوا في قريتهم كأهالي سكوفيا، إذ تعرضت في 7 حزيران إلى قصف عنيف من الطيران الإسرائيلي، ثم احتلها العدو، وكان كل سكانها داخلها. فطلب منهم المغادرة رفضوا. لذلك اقتاد 49 شاباً إلى سجن عتليت قرب حيفا. بعد ذلك قام بإجلاء سكان القرية بالقوة، حيث تم ترحيلهم بالسيارات إلى حدود درعا، قرب بلدة عين ذكر...

لقد كان الجنود الإسرائيليون يحشرون، ببنادقهم المحشوة بالرصاص، والحقد الأسود، والمجهزة بحراب مسننة، الرجال، والنساء، والأطفال، من أهالي القرى التي ترفض النزوح في الشاحنات، ويلقونهم على حجارة الطريق المؤدية إلى دمشق.

لقد رأى النازحون يوم الحشر مصغراً بعد تركهم لبيوتهم، وسكنهم هنا، في هذه الأرض الجرداء، التي كان يسكنها البدو أيضاً - هذا ما يدل عليه وجود بقايا ماشية، مع مرابط خيل - والمسماة الزفتية، جاؤوا من أنحاء متفرقة من الجولان، لم يأتوا بعد النزوح مباشرة، بل انتظروا فترة من الزمن، كأن أحداً ما دلهم عليها، فقدموا دفعة كبيرة، وصارت الزفتية تستقبل، كل مدة من الزمن، مجموعة جديدة.



/ في تلك الليلة الحزيرانية، التي لا تنسى، كنت أنظر إلى والدي نظرات حارقة، لأسأله، فيجيبني دون أن تقع عيناه على عيني: "معنا الاتحاد السوفييتي، وفرنسا".

- وإسرائيل؟

- معها بريطانيا، وأميركا.

*فيداخلني، رغم الرعب المستعر داخلي، شيء من الطمأنينة، وأقول في نفسي: "**إذاً نحن متعادلان في مجلس الأمن**".*

حينذاك انساب ضوء حزين لقمر حزين عبر نافذتي المطلة على الطريق، فإذا ظلال سوداء، كأنها قضبان زنزانة، ترتسم على اللحاف الذي اندسست تحته خائفاً مرعوباً، فلم أستطع النوم إلى أن طغى عتم أسود حين غاب القمر./



ويحكى أن بعضهم نزح من سبتة إلى الزيزون ومنها إلى مزيريب. هناك سكنوا في خيام، بينما وجد آخرون بيوتاً لبنية، رمموها ما أمكن لتؤويهم.

وحدث أن أحد أبناء المنطقة رأى طابوراً طويلاً أمام باحة مدرسة، تحولت إلى مركز توزيع للإعاشة، فوقف، يشاهد ما يأخذونه، ويحصيه داخله:" **معلبات: جبنة رومانية، وحلاوة، وسردين مغربي، ثم دخان بلغاري، وألبسة بمقاسات مختلفة...**" حتى إذا ما وصله الدور، بعد وقت مديد، طلبوا منه بطاقة الإعاشة.

ـ ما معي.

سأله الموزع:" أ لست نازحاً؟"

ـ لا. أنا من هون.

ـ هي الإعاشة للنازحين فقط يا عم.

فما كان منه إلا أن زفر في حرقة:" يلعن أبو موشي دايان."

❖

خلال الدرب الطويل، لاحقت الطائرات الإسرائيلية فلول النازحين، متصيدة الآليات بسهولة كما الحمام، لتنقض إحداها بقذيفة حارقة على سيارة مدنية متوقفة قرب حرش، فاشتعلت فيها النيران. ثم سُمع دوي انفجار محركها، مع اقتراب صبي، خرج مسرعاً من الحرش، يرفع سحاب بنطاله، وهو ينادي في تفجع:" يمه، يابا." حاول اختراق النار لإنقاذهما، فلم يستطع، لذلك تهالك مرمياً على نفسه، إلى أن جاء رجل، رفعه عن الأرض حتى أوقفه، ثم طوقه بيساره، ممسكاً بحزامه الجلدي من عند خصره، وجره غصباً عنه، بعيداً عن النيران. فسار خائفاً مذعوراً، يعرج على رجله اليسرى، التي كانت تنزف، بينما ظلت عيناه معلقتين بالسيارة، وقد أكلتها النار، فلم يتكلم مع أحد مسافة الطريق إلى مدينة دمشق. لقد تخلص الكثيرون من أوراقهم الرسمية، ورموا بذاتهم العسكرية، بل إن بعضهم تزيا بثياب النساء. لأن الدوريات الإسرائيلية، التي أحكمت قبضتها على مفارق الطرق الرئيسة في الجولان، راحت تقتل كل من يرتدي لباساً عسكرياً....

وإذ يمشي شاب في مقتبل العمر وسط الجموع، وهو يلبس بذة خاكي عسكرية، يُخرجه أحد الجنود الإسرائيليين بعيداً عن الطريق، ويُصوِّب

الرشاش إلى صدره، ثم يلقمه، كي يقتله. لحظتها تخرج امرأة عجوز، لتقف أمام الشاب باكية، تصرخ بأعلى صوتها:" وحياة عميره: ما عندي غيره."

فيستدعي قائد الدورية جندياً، يترجم له ما سمعه إلى العبرية. ثم يتقدم من الشاب، يستوضح بعربية مكسرة ما قالته أمه العجوز:" يعني إنتا وحيد، ما بيروح على الجيش؟"

بعد ذلك ينزع عن رأسه الشماغ الأحمر، إذا شعره طويل، فيأمر بإخلاء سبيله.

❖

يومذاك أغمي على الأستاذ ملحم، فوجد نفسه وحيداً، تورمت شفتاه من العطش الشديد، لدرجة بات يصعب عليه سؤال أحد عن الطريق، التي عليه أن يسلكها. لقد كان البعض يرشده، وآخرون يتجاهلونه. بل إن قلة قليلة راحت تدله على الطريق الخطأ.

حين وصل، بعد مسيرة مضنية قاسية، إلى مدينة دمشق، لم يستطع التحدث مع أحد. بدا ذاهلاً وسط زعيق الطائرات، وصوت الانفجارات، الذي مازال يضج في رأسه، ويصم أذنيه. وبسبب الجوع، والإرهاق الشديد، ارتمى على رصيف مهجور، بينما بدت بقع دم، تفجرت من رأسه، نتيجة الخبطات العنيفة على الجدران المتراقصة من حوله، هناك في بيته بمدينة القنيطرة، فحملوه إلى مستوصف قريب، عالجه لبعض الوقت. ثم خرج يهيم على وجهه، لا يتذكر من ماضيه أي شيء، إذ أصيب، بفقدان للذاكرة، ظنه الناس اختلالاً في العقل، فأطلقوا عليه تسميات شتى: مجنون، مهبول، مسطول، وأخوث، إلى أن التقطته مريم من مقبرة بوابة الميدان، التي راح يلتجئ إليها....

كانت قادمة لقراءة الفاتحة على قبر أبي محمود، الرجل الذي آواها في هذا البيت، الذي تسكنه الآن مع ابنها حازم، عندما شعرت بحركة مريبة، فارتعدت، أول الأمر، وخرجت من المقبرة، ثم نظرت من وراء سورها المنخفض، فرأت شخصاً بائساً مسكيناً، ينبش في صرة نسيتها عن شيء

يأكله، جلس منكمشاً على نفسه، يبدو عليه الجوع الشديد. حين لم يجد ما يؤكل. لكنه يضطرب حين يسمع حركة قادمة، فيختبئ وراء شاهدة أحد القبور، بينما تقف مريم أمام قبر أبي محمود، تفتح يديها، وتقرأ الفاتحة على روحه، كما عاهدته على ذلك. ثم تُخرج رغيفاً وحبة بندورة، تتركهما فوق القبر، وتمضي. فيأتي، بعد خروجها، ويروح يأكل بنهم، بينما هي ترقبه من وراء السور. بعد ذلك طلبت من إمام الجامع الشيخ عبد الستار أن يؤويه في غرفة خادم الجامع المهجورة. ونادته:" تايه" فسار اسمه هذا على ألسن أهالي الزفتية. وراحت تقدم له الطعام، مقابل الاعتناء بصغيرها حازم، في أثناء عملها المجهد في مزرعة أبي محروس مشفقة- رغم الفاقة- على حالته البائسة:

- لقمة الاثنين تكفي ثلاثة يا أم مهران. وعم قول: يمكن أبو حازم يكون غريب، مثل تايه بشي مكان، وما في حدا يدير باله عليه، لهيك دايرة بالي على تايه.

هكذا قالت لجارتها الحورانية أم مهران، التي تجلب الماء، مقابل أجر زهيد، لمن يطلبه في هذا التجمع الواسع الممتد من الصحابة حتى الحقلة جنوباً، ومن الجزماتية حتى مساكن الزاهرة شرقاً، المسمى الزفتية، ببيوتها الصغيرة كعلب الكبريت، تتطاحن وسطها الأجساد الكثيرة، وأزقتها الضيقة، مع بضعة دكاكين، وطريق للسيارات، يفصلها عن خانات البقر التي تحيط بها إحاطة السوار للمعصم.

باختصار غير مخل: الزفتية مكان طارئ بانتظار العودة إلى المكان الأليف حيث يعود كل امرئ إلى بلدته التي ولد فيها، أو الحضن الأول، كما تسميه نجاة.

وتكتمل.. فيروزية خالدة

(9)

" .. وبليلة عتم أبيض.. كالأولى للميلاد
ملأى بغموض الآتي.. وبفرح الأعياد
يأتي من خلف الأشجار..
طفل في سن العشرين.. يحتفل اليوم بميلاده
عيده العيد برشاش..
فمضى يتصيد.. ويصيد بأرض أبيه وأجداده
يدخل آلاف الأطفال..
من كبروا الليلة في الخارج
عادوا كالبحر من الخارج
أرجع في العتمة معهم.. نصمد.. ونقاتل لا نرحل
ونقيم كشجر.. لا يرحل.."

الدفتر الثاني

يوميات الزفتية

(1) بانوراما

/ اصطففنا في الباحة، وخطب فينا المدير:" لقد تركوا أرضهم، وبيوتهم، وجاؤوا عرضةً للفقر، والجوع." ثم حضّنا على التبرع، فراحت يدي تتحسس ما وفرته من خرجيتي في أسبوع.

خلال الفرصة شعرت بلسعة الجوع، لكن لم يبقَ معي ثمن سندويشة، بعدما تبرعت بكل ما لدي. وإذ لاحظ وليد - صديقي الشامي - خلو يدي من السندويشة، التي أشتريها عادة من عند آذن مدرستنا أبي تيسير، همَّ يقسم سندويشته بيننا. وبينما هو يقدمها لي جاءت مجموعة طلاب تعيّره:" يا عيب الشوم، ما تبرع للنازحين."

فرددت يدي، وسرت بعيداً. دعاني لآخذ نصف سندويشته رفضت، فما كان منه، إلا أن ذهب إلى المدير، وتبرع بكل ما في جيبه، معتذراً عن تأخره. ثم نظر إلي فابتسمتُ، وناولني نصف السندويشة، التي خبأها في جيب معطفه الجلدي، المسمى ترانشكوت./

❖

مع الصباح الباكر، وسماع موسيقا ما قبل الافتتاح اليومي لإذاعة دمشق، يعزفها أمير البزق محمد عبد الكريم عبر مذياع ما في الزفتية، تخرج أم عايد من بيتها متوترة، ما إن تمشي خطوتين حتى تصطدم بجدار، تكاد تقع، فتغير اتجاهها. بعد برهة يلحق بها عايد في اضطراب ظاهر:" يمه هذي مش القنيطرة، تعرفيها مطرح مطرح، وتمشي فيها على كيفك."

- لعاد ليش ما تركتني فيها؟

- وكيف أتركك وحدك؟

(1) بانوراما

/ اصطففنا في الباحة، وخطب فينا المدير:" لقد تركوا أرضهم، وبيوتهم، وجاؤوا عرضةً للفقر، والجوع." ثم حضّنا على التبرع، فراحت يدي تتحسس ما وفرته من خرجيتي في أسبوع.

خلال الفرصة شعرت بلسعة الجوع، لكن لم يبقَ معي ثمن سندويشة، بعدما تبرعت بكل ما لدي. وإذ لاحظ وليد ـ صديقي الشامي ـ خلو يدي من السندويشة، التي أشتريها عادة من عند آذن مدرستنا أبي تيسير، همَّ يقسم سندويشته بيننا. وبينما هو يقدمها لي جاءت مجموعة طلاب تعيّره:" يا عيب الشوم، ما تبرع للنازحين."

فرددت يدي، وسرت بعيداً. دعاني لآخذ نصف سندويشته رفضت، فما كان منه، إلا أن ذهب إلى المدير، وتبرع بكل ما في جيبه، معتذراً عن تأخره. ثم نظر إلي فابتسمتُ، وناولني نصف السندويشة، التي خبأها في جيب معطفه الجلدي، المسمى ترانشكوت./

❖

مع الصباح الباكر، وسماع موسيقا ما قبل الافتتاح اليومي لإذاعة دمشق، يعزفها أمير البزق محمد عبد الكريم عبر مذياع ما في الزفتية، تخرج أم عايد من بيتها متوترة، ما إن تمشي خطوتين حتى تصطدم بجدار، تكاد تقع، فتغير اتجاهها. بعد برهة يلحق بها عايد في اضطراب ظاهر:" يمه هذي مش القنيطرة، تعرفيها مطرح مطرح، وتمشي فيها على كيفك."

ـ لعاد ليش ما تركتني فيها؟

ـ وكيف أتركك وحدك؟

- يعني الإسرائيليين بدهم يقوصوني؟ إي يقوصوني بس أظل فيها.

- يمه اخزي الشيطان، وارجعي.

يحاول إيقافها عن السير بعيداً، فلا تقبل. لذلك يتصنع اللامبالاة:" على كيفك."

فتقف، وبعد لحظة صمت توافق معه:" أرجع... على بيتنا هُناك."

- يمه القنيطرة احتلوها الإسرائيليين، وما حدا يقدر يرجع لها.

- هي أبو هايل بيروح على البلاد، ويرجِّع للناس حاجاتهم.

ويفكر عايد في رد، لكنها تسبقه:" يا بنيي الله يرضى عليك: خذني على القنيطرة نص ساعة، أشم هواها، بعدين أرجع."

وفي لحظة حماس يتعهد لها:" تكرمي يمه، نذر علي لآخذك. منيح هيك؟"

فتبتسم في إشراق، وتندى عيناها الخضراوان، تأتلقان كنجمتين، وهي تعود مع عايد باتجاه الزفتية. بينما تخرج مريم من بيتها، يمسك حازم بطرف ثوبها، شبه نائم، وإذ يسقط عدة مرات على الطريق، تربط خيط حذائه الكاوتشوك، ثم تحمله على ظهرها، وتمضي مسرعة، لتدخل من بوابة، كتب أعلاها: "مزرعة أبو محروس" تُفضي إلى مساحة واسعة خضراء، حيث مجموعة نساء، يعملن في قطف الخضروات. تضع حازماً تحت شجرة قريبة لينام، ثم تأخذ مكانها بينهن:" صباح الخير يا بنات."

ما إن تبدأ في تعشيب الأرض بفأسها حتى تقول سعدية:" يخرب بيته ما أقل شرفه: البنتين بنات أخوه."

- ليش شو عمل؟

تقترب سعدية، وتوشوشها:" قال مشتغل من ورا مشان يظلن بنات."

فيبدو الذهول على وجه مريم، التي تضع يدها على فمها، في حالة اشمئزاز وتقزز.

فجأة تمر فتاتان صغيرتان، في العاشرة والحادية عشرة من عمريهما، منكمشتين على بعضهما، في حالة بؤس شديد، بينما عمهما، الذي يشبه الضبع في عينيه الخرزيتين، مقيد بإحكام، يحيط به شرطيان.

ويتوقف أبو يوسف عميشة، ليعقب على المشهد المؤسف، وقد راحت العاملات، يستمعن إليه بإصغاء، بينما تنثال دموع بعضهن فوق خدودهن، فلا يمسحنها: " خيتا ما هو الواحد لما بيطلع من أرضه، مثل اللي بيتعرى من ثيابه، بيحس حاله هيك بالهوا، فبتلاقيه يغلط، ويتوه أكثر، وأكثر. بينما اللي عايش بأرضه بيحس إنها شايفته، ويمكن تشهد عليه، فبيخجل منها، ومن أهل بلده، إذا بده يساوي أي شي غير صحيح."

يصمت لبرهة من الوجع، ثم يكمل: " بس الحمد لله العاطلين مثله قلال كثير"....

عادة يستمع أكثر مما يتكلم، إلا إذا كان بين مجموعة نساء، لذلك يمضي في طريقه قائلاً: " يللا بخاطركن."

يخطو خطوة أو خطوتين، ثم يعود مردفاً دون أن تسأله أياً منهن عن وجهته: " رايح على السوق، بدكن شي يا بنات؟"

❖

على البعد في تلك الفيلا، التي تطل على المزرعة، تنفض جورية الغبار عن الستائر بيمينها، وفي يسراها سوطها الجلدي المسمى" كرباجاً" بينما أبو محروس ينظر من الشرفة. عندما يرى مريم، تتفقد حازماً النائم تحت الشجرة، يومئ صوبها: " مين هي؟"

تتوقف جورية، بشعرها الأشقر الطويل، وتنورة قصيرة، مع فتحة واسعة عند الصدر، عن نفض الغبار قائلة: " هي الحرمة اللي تواسط لها الشيخ عبد الستار."

وإذ ترجع لنفض الغبار، مبتعدة عنه، يناديها بعد لحظات: " جورية. انتِ يا زفت."

تأتي مسرعة: " أمرك يا بيك."

ـ لك إنتِ بتظلي حيوانة؟ قلت لك روحي شي؟

لا ترد، وقفت بتذلل على بعد خطوات منه، نظرها في الأرض. فيأمرها في صلف:" انقبري، روحي اعملي لي قهوة."

تخرج. فيصوب نظره من جديد نحو مريم، التي وقفت، فطيَّر الهواء شعرها الجميل، بعدما سقط منديلها المورد على كتفيها، فبدت في الثلاثين من عمرها، ممشوقة القد كشجرة حور، ترتدي ثوباً طويلاً، ويحدس داخله:" **هي امرأة بكل المقاييس.**"

تُحضر جورية صينية القهوة، وتقف أمامه، تضع الفنجان على الطاولة، مصدرةً صوت قرقعة، كي تلفت انتباهه، لكن دون جدوى. لذلك ترفع الركوة لتصب له، جاعلةً مريم خلف ظهرها، فيحدجها بنظرة قاسية:

ـ انقلعي من وجهي. بصب لحالي.

تنظر بغيظ وحنق إلى مريم، التي أزاح نظره ناحيتها من جديد، وهي تنسحب. فيأمرها:" خليهن يجهزوا الحصان الأسود."

ثم يهمس بصوت خفيض بعدما ابتعدت:" يقطع عمرك من بين النسوان."

❖

/ أحمل تنكة الماء، وأمضي باتجاه حنفية الجامع، أتوقف عند زاوية بيت الأستاذ عامر، أنتظر أن تلحقني نجاة، لكنها لا تأتي. أرى أخاها لطيفاً، يفتح الباب، على رأسه طاقيته الصوف، تغطي أذنيه، فهو بردان دائماً. وإذ يخرج ليلعب مع الأطفال، تاركاً خلفه الباب مشرعاً كعادته، أعود لاصطحابها، فأشاهد أكياس الإسمنت الفارغة مكومة فوق بعضها في الحوش، وألمح أمها، تقص تلك الأكياس، ثم تطويها بالشكل المناسب، كي تقوم نجاة بتلزيقها، جاعلة منها أكياساً صغيرة، تُستخدم لتعبئة الخضار، والفواكه، أو مواد السمانة.

منذ المرة الأولى، حين رأتني العرافة أم عرفان، التي تسكن الزفتية منذ زمن بعيد، زاعمة أن أجدادها أول من بنى بيتاً فيها، لكنهم بطبيعتهم لا يستقرون في مكان واحد، استوقفتني، وقالت:" يا غريب رح تشوفها، وتحبها للأبد."

سألتها:" مين؟"

فأخبرتني عن بنت سمراء، بجديلتين سوداوين، تمر في سمائي، ثم تختفي بسرعة البرق. لذا وضعت يدي على قلبي، شاعراً بغصة خانقة، أردد داخلي:" **يا أنا هذا الغريب ابتعد عن قريته الشمالية منذ الطفولة، فعاش وحيداً، لا حضن دافئاً، يسند إليه رأسه، لا مكان**"....

وأنا أمشط شعرها الواصل حتى وركيها، بعدما خرجت من الحمام.

تقول لي:" وحدك اللي شفته."

تصمت لبرهة، ثم تستدرك:" وامي طبعاً."

تقسمه قسمين كي أجدله، وهي تتأمل نفسها في المرآة، وإذ تنحل قليلاً المنشفة، التي لفت بها جسدها، ألمح دراقتين على صدرها: لجسد نجاة رائحة فواحة، أشتمها بوضوح، فأسألها:" بتحطي عطر؟"

- لا.

وأصدقها:" فمن أين لها بثمنه؟"

كنت كلما وضعت رأسها على حضني أشعر بفرح غامر، وتوثب في القلب، لا يهدأ، فأروح أردد على مسامعها هذا البيت من الشعر لامرئ القيس:

أجارتنا: إنا غريبان ها هنا

وكل غريب للغريب نسيب..."

على الطريق إلى الحنفية، تأخذ في إخباري عن والدها، الذي يحب الكتابة - أطلعتني على بعض أشعاره، والخواطر التي كتبها قبل ذهابه إلى لبنان - معترفة لي بأنها تندم الآن كثيراً، ففي صغرها كانت ترى عينيه تدمعان، وهو يقرأ في رواية، أو يستمع إلى أغنية حزينة، فتأخذ في الضحك ساخرة منه. يُحرَج إذ يراها تضحك، وهو في ذروة تأثره، وانفعاله، فيمسح دموعه، ولا يجد مفراً من مسايرتها، فيضحك مثلها.

وتكمل:" أتمنى لو عرفت عنوانه بلبنان، حتى أعتذر له بأسف: معك حق أنا بنت ما بتفهم يا أبو لطيف"....

كان تعرفي إليها يوم وقعت، وجرحت فخذها، فركض أخوها لطيف إلى عيادة الدكتور حلمي لم يجده، وحضرتُ، معي بعض الشاش، وزجاجة "الدوا الأحمر" التي لم تعد تفارق بيتنا منذ احترق ذراعا والدي.

كان فخذها ينزف بغزارة، فطويت ربطة الشاش عدة طويات، ووضعتها على فم الجرح الواسع. لكنني لم أجد ما ألفه حولها، كي لا تفلت، ولم يستغرق تفكيري طويلاً، إذ فتحت سحاب كنزتي، ورحت أقص قميصي الداخلي المصنوع من القطن، جاعلاً منه عدة لفات عريضة، حتى إذا ما انتهيت من تضميدها لم يبق من قميصي شيء.

وأذكر أنني اقترحت عليها أن تملأ طنجرتها الألمنيوم من معمل أبي هشام، فرفضت.

عندما استغربتُ صمتت، وتحت إلحاحي أخبرتني بأنه يقتنص من بعض الفتيات الوحيدات اللواتي يملأن من حنفية معمله قبلات صغيرة، من أجل تنشيط دورته الدموية، كما يقول، لكنهن كثيراً ما كن يتحاشينه عندما يأتين، كعادتهن، مجتمعات مع بعضهن.

وللتحقق رحت أنتبه لتصرفاته عندما أحضُر لتعبئة البرش مساء كل خميس، فمع أنهن لا يلبسن التنانير القصيرة، ولا يكشفن مفرق الصدر، مثل جورية، بل إن وجوه بعضهن تحمر لسماع كلمة غزل، أو تلطيشة عابرة لدى مرورهن، كان أبو هشام لا يوفر واحدة تدخل معمله بمفردها، ولو بمجرد تلطيشة صغيرة، أو تحرش بسيط./

❖

مجموعة أطفال يلعبون في ساحة الزفتية التي نسميها ساحة "أبو عليوي" بكرة قماشية، ربطوها بخيطان كثيرة، يتوازعونها فيما بينهم. ها هو لطيف يدحرجها بيمينه بعيداً، ويركض وراءها، فتخذله إذ تقف فجأة، ويظل راكضاً وسط ضحك الأطفال عليه. ويأتي تايه، يسير بخطوات متثاقلة في ذهول: أسمر الوجه، بملابس رثة، ذقنه طويلة، يضحك ببلاهة، فتظهر أسنانه الصفراء. ما إن يرونه حتى يتجمعوا حوله، يصفقون ساخرين منه، بأصوات عالية في صخب:" تايه تايه يا مجنون."

تقترب مريم من عربة محيميد، الذي بدا ضئيل الجسم، أشعث الشعر، مولياً ظهره للشارع، وقد مدَّ رجله اليمنى على طولها. تشتري بعض الخضروات، يضعها في كيس ورقي، ويأخذ ثمنها، ثم يعاود وضعه المعتاد، محدقاً في هذه الحفرة الواسعة من الأرض، التي تحتوي عدة مغاور على أطرافها، تستخدم لرمي البقايا، والأنقاض، نسميها الجورة....

لقد قادته خطواته، بعد النزوح المشؤوم، إلى الزفتية، يرصف فوق عربته الخشبية هذه صندوق خضار ليبيعه. ثم صار يحضر عدة صناديق من سوق الجزماتية، فيهرع الفدائي مهران ـ هكذا يحب أن ينادى، وهو صبي طويل، بشاربين رفيعين، حتى ليبدو شاباً ـ لمساعدته على تفريغها، وتجهيزها للبيع. لكنه هذه المرة يخبره عن شخص غريب:

ـ قبل ما يجي لعندي يلف حول الجورة، ليتأكد أن الوضع طبيعي. بعدين بيشتري من عندي، وهو يسألني عن أحوال الزفتية، وإن كان في شي جديد.

ويستفسر مهران: "يعني بيجي كثير؟"

ـ يا سيدي كل خمس، ست، أيام.

❖

تشاهد مريم الأطفال، تحلقوا حول تايه، مشكلين دائرة حصروه في وسطها، فشعر بحالة ضيق، ونفاد صبر. لذا تعطي الكيس لحازم، يركض به نحو باب خشبي، عرشت فوقه ياسمينة، يدفعه بيده. لا ينفتح، فيخبطه بقدمه اليمنى، تُخلع فردة حذائه الكاوتشوك، التي لم يُربط خيطها جيداً، فيلتقطها بيده. ويدخل مغلقاً الباب خلفه بعنف. بينما تتجه أمه نحو الأطفال صارخة بهم: "امشوا من وجهي، يا داشرين، يا قليلين الترباية."

تطردهم عن تايه، ثم تقول له: "تعال معي، لتاكل لقمة، بعدين تروح على الجامع، منتظرك الشيخ عبد الستار."

فيتبعها إلى مصطبة بيتها، ويختار الجلوس تحت الياسمينة.

يتأمل ما حوله في استمتاع، ثم يقول:

ما لي أداري عنكم هوايا

لعمري هو الحب أحلى السجايا...

لحظتها يكون أبو مهيب، الملقب بالبوابيري ـ لأن يديه دائماً مشحرتان، لهما رائحة زيت الكاز ـ قد مسح وجهه بالبشكير كعادته، ثم خرج في خفة، ووقف أمام دكانه، وإذ يسمع تايهاً يقول ذلك البيت من الشعر يسخر منه: "**خذوا الحكمة من أفواه المجانين**."

بعد ذلك يراقب مريم بنظرات نهمة، وهي تحاول فتح الباب الذي أغلقه حازم بعصبية، وهو يحدس داخله: "**يا الله ما أحلى النسوان**."

ثم يغني بصوته الجميل:

كل مرة بنقول شبعنا منهن

كل مرة بنحتد وبنقاطعهن

بس يمضى يومين وما نقشعهن

بتصير تلاقي قلبك طاير معهن...

ثم يروح يبرم شاربيه الكثيفين نحو الأعلى مهلاً كي تسمعه:

ـ يسلم لي الرقيق الحلو، قلبه مثل الزبدة.

ولا تعبأ مريم به، ولو بمجرد التفاتة قبل أن تدخل بيتها.

❖

دقائق، ويحمل حازم صينية، عليها صحن برغل، مع رغيف خبز، إلى تايه الذي يأكل بسرعة، ثم يمضي بعيداً، وهو يُخرج، من جيب سترته شبابته القصبية، يأخذ في العزف عليها بشكل جميل ومؤثر. يرقبه حازم بفضول، حتى يختفي عن ناظريه. ثم يدخل إلى البيت، وهو يزمر بفمه، مقلداً صوت الشبابة.

ما إن تخرج مريم، لتحضر الصحن الفارغ، حتى يتقدم أبو مهيب نحوها في جسارة، وهو يحمل وابور الكاز العتيق ذا الرؤوس الأربعة، الذي يظل يصلحه طوال الوقت دون أن يبدله، رافعاً صوته: "على شو شايفة حالك؟ وإنتِ شقفة خدَّامة."

تنظر إليه مستغربة ما تسمع، فيتقدم حتى يصبح في مواجهتها، مردفاً في لؤم:" إي نعم خدامة بمزرعة، وبكرا بتصيري صاحبته لأبو محروس."

فتبصق في وجهه، ثم تدخل بيتها، لحظة مجيء مهيب، الذي يضبط أباه يمسح بالبشكير البصاق عن شاربيه. وكمن لدغته عقرب، ينتبه أبوه لمجيئه في هذه اللحظة المحرجة، فيأخذ في الصياح عليه بصخب، منفساً عن غيظه العارم:" وينك لهلق يا ولد؟ ليش متأخر يا كلب؟"

لا يرد. فينهره بقسوة متعمدة:" لك بتظل طول عمرك ولد."

وإذ يبقى مهيب ينظر نحو بيت مريم متسائلاً في حمية:

- كيف تخليها تبصق عليك يابه؟

عندئذ يضربه بقسوة متعمدة، حتى ينهار أمامه، ثم يأخذ في ركله برجليه:" شمتان فيّ يا بن الحرام. مو هيك؟"

بعد ذلك يعلقه من جاكيته على خابور مدقوق في الجدار أمام دكانه. فيروح يخابط الهواء، مرفوعاً عن الأرض، يتلولح كيفما اتفق يمنة ويسرة، مشلوحاً في الفراغ، لا قرار له، تتناهى إلى سمعه تعليقات ساخرة من المارين:

- مسكين! كيف معلقه أبوه!

- يا حرام مبين عليه شب.

- الله أعلم شو عامل!

رويداً رويداً تنزل دموع حارقة من عينيه، وهو يبكي بصمت....

يعامل أبو مهيب ابنه البكر بقسوة متعمدة، لدرجة أنه كثيراً ما يضطر للنوم خارج البيت أمام الدكان، أو تحت عربة محيميد أيامَ المطر، إلى أن صارت أمه تترك له الباب مفتوحاً، كي يدخل، ويندس في فراشه، دون أن يراه أبوه.

كانت لازمة يا ولد حاضرة على لسان أبيه، كلما توجه إليه بالكلام. فأحس مهيب أنه سيبقى ولداً حتى آخر حياته.

نتيجة ذلك صار ما إن يرسله في عمل حتى يبحث في الأزقة عن قطة، يدعوها بصوت ناعم:" تعي بيس بيس."

يلحمس على رأسها بحنان، قبل أن يطلق صرخة مدوية، فتجفل هاربة من أمامه، ويحدس داخله في سرور: "**يا سلام خافت مني.**" ثم تغمره موجة فرح أنه يخيف مخلوقاً ما.

شيئاً فشيئاً أخذ يحضر نقيفة، يصوبها نحو أي قطة، يشاهدها في طريقه، لينتشي إذ يراها، تتلوى موجوعة من حلاوة الروح. بعد ذلك يلوّح بها من ذيلها، ثم يشلحها في الجو كيفما اتفق. لتسقط على أحد البيوت، ويسمع ساكنيه، يدعون عليه:" روح الله يكسر يديك يا مهيب."

❖

تأتي سيارة هوندا محملة بمواد السمانة، تقف أمام الدكان، فيسرع أبو مهيب بإنزال ابنه، ثم يرحب بالقادم:" أهلين بأبو هشام الورد. شرّف تاج راسي."

– ماني نازل مستعجل. خود حاجتك، وخبرني: شو القصة، اللي جبتني على ملا وجهي، مشانها؟

بعد أن يُنزل أبو مهيب بعض مواد التنظيف: خمسة أكياس صابون، وثلاثة برش، مع علبة شمع كبيرة من صندوق السيارة، يغمز أبا هشام صوب بيت مريم، التي خرجت، تكنس مصطبة بيتها. فينظر صوبها، يراها جميلة فعلاً، فيحاول أن يبرم شاربيه، يجد أنه بلا شوارب:

- منيشن على جارتك يا منظوم! وأم مهيب؟

- اتركك منها صارت بضاعة عتيقة. الست مريم غير شكل.

ثم يقول في مرارة بادية:" الزواج يا معلمي مرض، ولما تكون الزوجة، مثل أم مهيب، بيصير مرض عضال، ما له دوا."

- طيب طلقها.

– والمتأخر يا حسرة؟ بعدين انت عارف لولاها ما قدرت أفتح هذا الدكان.

يصمت قليلاً، ثم يردف متسائلاً:" وشو بدي أعمل إذا كان قلبي معلق بالنسوان؟"

يكمل في شبه غناء، وهو ينظر صوب بيت مريم:

طراوة ورق الريحان .. يا خده

عيونها عيون الغزلان:وال صايدها يا سعده

ويتساءل أبو هشام:" يعني مريم مطلقة؟ أرملة؟"

ـ يا سيدي ما بعرف. بس أغلب الظن زوجها مات بحرب ال 67، لأنه لا خبر، ولا مرسال.

ـ حبيبي: انت واحد ملعون حتى لو زوجها مو ميت بتموته.

ويتابع أبو مهيب، كأنه لم يسمع العبارة الأخيرة، مقرباً فمه من أذن أبي هشام:" عم تشتغل بمزرعة أبو محروس، مش أحسن لو تتزوجني؟"

ـ أخي ظبِّط أمورك، وأنا جاهز لكل شي تطلبه.

وإذ يشغل سيارته الهوندا يقول أبو هشام عبارته المشهورة عنه:" الله يوفّق لنصفّق" تلك التي اعتاد ترديدها بعدما قالت له امتياز ـ أجمل، وأذكى فتاة في الزفتية ـ كي يتحاشاها، كلما ملأت صفيحة الماء من حنفية معمله:" طوِّل بالك يا معلم، بكرا عرسي، وبعده أعطيك يلي بدك ياه."

سألها ليتأكد:" بكرا.. بكرا؟"

ـ اي نعم.

فرد بشكل عفوي:" طيب الله يوفّق لنصفّق."

فلما أحس بأنها تتحايل عليه، كي لا يقبلها، فينشط دورته الدموية، حسب زعمه الشائن، ذلك أن بكرا، أي غداً بالعربية الفصحى، يُقصد بها المستقبل بطوله، وليس ما يلي اليوم فقط، أخبر أجيره الشرس أبا رعد بأن يُغلق باب المعمل كلما سمعه يردد هذه العبارة، إذ لا يستطيع فعل ذلك علانية معها بسبب أخيها ياسين المعروف برجولته و"مشرانيته" عند اللزوم. حتى إن أطفال الزفتية الصغار راحوا يلقبونه، خلال الآونة الأخيرة، :" أبو هشام الله يوفق لنصفق." وصاروا، كلما رأوه، يلحقونه، مرددين عبارته هذه، في صخب عارم، كأنها شعار، أو نشيد.

قبل أن يمضي بسيارته يرفع أبو هشام يده مودعاً:" بخاطرك."

فيسأله أبو مهيب كعادته: " وكاسة الشاي؟"

- نشربها بعرسك.

فيبدو مزهواً بنفسه، وينادي ابنه: " تعال يا ولد."

إذ يحضر مهيب، يصفعه على وجهه بقسوة متعمدة، كفين، ثلاثة "ع الماشي" كما يقال. ثم يأمره في عنجهية: " روح اعمل لي كاسة شاي، يقطع عمرك بهالشكل مثل أمك."

ثم يردد بصوت مخنوق داخله: " **قال أم مهيب قال**"....

يعود إلى بيته متأخراً، يجدها بانتظاره في لباسها البيتي المعتاد، امرأة بشعة تكبره عدة سنوات، وتذكره: " لتكون ناسي إنو اليوم خميس!"

- لا. مش ناسي.

يجلس على الصوفاية، ويتخيل أنها مريم، تشطف أرض الدار حافية القدمين: " **ساقاها رخام مسكوب في قالب**." كما يُحدِّث نفسه، وهو يتلصص عليها من شقوق بابها الخشبي، وقد نزعت منديلها المورد عن رأسها، فانسكب شعرها الأسود الطويل فوق كتفيها. لكنه إذ يلمح أم مهيب، من خلال غشاوة النوم، مازالت تخلع ثيابها الكثيرة، يقول لها، وهو يضع رأسه على المخدة: " ارجعي البسي يا مرة، نعست، وبدي أنام."

وفيما هو شارد يتذكر ليلة الخميس مع زوجته، يأخذ مهيب في إشعال وابور الكاز ذي الرؤوس الأربعة، وإذ يراه مشحراً تمتد يده إلى البشكير الموضوع على مسمار عند الباب، يمسحه به، ثم يمسح يديه، اللتين تشحرتا به، قبل أن يرجعه إلى مكانه، حيث يعلقه أبوه.

❖

بلباسهم التقليدي: على رأس كل منهم حطته النظيفة المكوية، وعقاله المائل إلى اليسار قليلاً، يحتسي أربعة رجال في أحد مقاهي مدينة دمشق، الشاي والألم مع لفافات التبغ العربي، أمام كل منهم علبته التي يلف منها، وهم يستمعون إلى أغنية: " يا عزيز عيني، وأنا بدي أروّح بلدي" ينصتون في صمت بادئ الأمر، تتصفح عيونهم وجوه الزبائن ببطء، ثم

يتناقلون ـ في صدورهم حزن مكتوم، تحسه من ملامحهم المكفهرة، ولباسهم الراسخ في السواد ـ آخر الأخبار الواردة من الأراضي المحتلة، فيقول أحدهم:" دمرت إسرائيل البيوت، والمزارع، المساجد، والمدارس بزعم أن هذي الأرض بلا شعب."

يضيف آخر:" شلعت الشجر اللي زرعناه من شروشه، مشان ما تترك لنا أثر."

ـ بدها تسرق كل شي يا جماعة، لكن مش ح تقدر تسرق أملنا بالعودة في يوم من الأيام.

ـ والله صحيح يا أبو يوسف.

حتى إذا ما وقفوا، متهيئين للانصراف، سقطت عقالاتهم على الأرض إذ ربط نادل سفيه خيوطها المتدلية على ظهورهم بالكراسي، فخرجوا مقهورين متألمين، بعدما أعادوا عقالاتهم، فوق رؤوسهم، كما كانت بكل أنفة، واعتزاز، ليمضوا في طريقهم بصبر، وجلد.

❖

يلعب الأطفال الصغار بكرة قماشية، صنعوها من الخرق البالية المسماة شراطيط، فليس لديهم كرة حقيقية مثل باقي الأطفال في حي الحقلة والجزماتية، أو بنقيفات مطاطية، يرمون بها الحصى على العصافير أحياناً، وعلى بعضهم أحيان أخرى، والأكبر قليلاً يصنعون بواريد خشبية، يربطون طرفيها بخيط، ليكون حمالة، يدقون في مقدماتها مسماراً كسدادة على الهدف، ثم يلبسون شماغات، مما عند آبائهم، إذا كانوا فدائيين، أو يغطون عيونهم بعصابات سوداء إن لعبوا دور الإسرائيليين، كأنهم يختصرون مرحلة الطفولة مجبرين مكرهين في قهر مقيت، ليظهروا في هيئة رجال، فلا لهوهم لهو طفولة معتاد، ولا ألعابهم كألعابها البريئة. بينما الصبيان، مثل قادر، يتسكعون على دروب الزفتية، طوال الوقت بلا عمل، رغم فقرهم المدقع، إلى أن اهتدى أحدهم إلى سوق الجزماتية، فعمل حمالاً، يوصل الأغراض المشتراة، من فاكهة أو خضروات، إلى البيوت مقابل أجرة زهيدة. فعملوا مثله حمالين، ثم صنعوا عربات على دواليب

معدنية صغيرة، أسموها زحليطات، وراحوا ينقلون عليها. حين ضاق بهم سوق الجزماتية، لكثرتهم، مضى العديد منهم إلى سوق الخضار والفواكه في وسط مدينة دمشق، المسمى سوق الهال.

ها هو طلعة يمضي باتجاهه، يستأجر له أبو يوسف ـ لأنه صغير لا يملك بطاقة هوية بعد ـ عربة بدولابين، يسير خلفها لطيف، كلما استقر على العربة كبس طاقيته الصوف على رأسه، حتى تغطي أذنيه الباردتين شتاء، وصيفاً. يحس طلعة به، ركب على العربة، فينهره في انزعاج: "شو كنت حمار أبوك، وما عندي خبر؟"

بعد فترة نجّر بخيتان صندوق بويا، وعمل ماسح أحذية، فقلده بعضهم، حتى إذا ما عادوا إلى بيوتهم، وضع كل منهم صندوقه جانباً، وخرجوا يتمشون عبر زواريب الزفتية في صبابيط لامعة.

❖

/ فجأة ألمح من نافذتي المطلة على الطريق نجاة تخرج من بيتها. ما إن تصبح تحت نافذتي حتى تقرقع بطنجرتها الكبيرة، حسب اتفاقنا، بمعنى أنها ذاهبة إلى حنفية الجامع، فأفرفط بضع وردات جورية، كنت قطفتها من البستان القريب، لأرمي أوراقها العطرة بكل تؤدة فوقها. إذ ترى المنظر الجميل للورد الهاطل عليها تبتسم، وهي تلتقط بعض الأوراق، لتشمها في لهفة. أخيراً تغمزني أن ألحق بها، تاركة بساط ورد جوري خلف خطواتها. بغتة يخرج قادر من بيته المقابل لبيتنا، وهو يمج من عقب سيكارته نفساً عميقاً، كي لا تنطفئ. ما إن يصبح خارجاً حتى يمسح حذاءه اللامع بكم يمينه، فيرى ورق الورد على الأرض. أحاول العودة إلى البيت بعدما أغلقت الباب خلفي، فيراني، وإذ ينظر باتجاه الطريق يلمح نجاة، لذا يصيح بي حانقاً: "وحياة أختي لخلي القشاط ياكل من جلدك، يا عرص."

ويبدأ في فك قشاطه ذي البزبوزات الحديدية، فأستعد لملاقاته، غير أنه يتذكر أمراً، وهو ينظر إلى حذائه اللامع فيتراجع: "بس هلق مستعجل منتظريني الشباب." /

❖

في بهو سينما العباسية، بدأ روادها يصطفون أمام نافذة التذاكر صفاً طويلاً، وهم يرتدون ثياباً أنيقة، كأنهم يحضرون إلى حفلة، ثم راحوا يتجمعون أفواجاً، بينما صبيان الزفتية، يقفون متلاصقين، أجسادهم ضامرة، وجوههم شاحبة، في ثياب رثة، مرقعة، على الغالب، عند الركبتين، أو ساق بنطال أقصر من أخرى، لكن أحذيتهم مطلية بالورنيش بعناية بالغة، حتى لتبدو ـ ولو كانت من كاوتشوك ـ لامعة، أو كما يقولون خلنج، خرجت من المعمل تواً.

لذا راح كثير من الناس يروزونهم من الأسفل، حيث أحذيتهم التي توحي بالأناقة، لكنهم يُصدمون بقمصانهم الفضفاضة على أجسادهم، فيبدون كالمهرجين، أو الضيقة، تكاد تخنقهم، كذلك شعورهم اللامعة جداً تحت الشمس بتأثير زيت الشعر الكثيف.

وقبل أن يحضر مستلم التذاكر حاملاً صندوقه الخشبي، الذي يضع فيه التذاكر بعد تمزيقها، يبذل جهاد، كل طاقته متسمراً أمام باب الصالة، فيظهر مرهقاً، يتنفس بصعوبة لكثرة ما تعرض له من دفع، ومطاحنة، لكنه ثابر حتى بقي عند المدخل تماماً، فكان أول الداخلين. لذا يتمعن في الصالة من حوله بانبهار، ثم يتقدم بالخطوة الوئيدة، حتى إذا ما أصبح في مواجهة الشاشة أنزل قبعته المستديرة عن رأسه، ووضعها على صدره، مع انحناءة رأس خفيفة، كأنه يدخل مكاناً مقدساً، ليقف برهة خشوع في إجلال، بينما يتراكض الداخلون من حوله. مع ذلك سبقهم إلى كرسيه ـ هكذا يعتبره ـ في الصف الأوسط ، ليأخذ مكانه في منتصفه، حاجزاً عدة مقاعد في كل اتجاه. ثم رفع رأسه إلى الشاشة في تطلع حالم، بينما قبعته المستديرة، التي تشبه قبعة السوفييت، مازالت أمام صدره، منحرفةً جهةَ القلب.

دقائق بعدما التأم شمل صبيان الزفتية من حواليه، ثم يسود الظلام. فيحدث نفسه: "**عندما تُطفأ الأضواء أعيش في عتمة لذيذة، كأنني في فردوس النعيم.**"

❖

ويسود الظلام ساحة الزفتية، فإذا مجموعة أولاد يلعبون الغميضة أمام "خان أبي عليوي" وإذ يترافق ولد كبير مع آخر صغير، ليختبئا معاً، نبحث عنهما دون جدوى. لكن، بعد عدة جولات، يظهران أخيراً.

فجأة يخرج أبو عليوي من غرفته المنزوية، ليصيح بهم في حنق وغضب، فهو يريد أن ينام، وحركتهم الدؤوبة، راكضين طوال الوقت، مع صيحاتهم الصاخبة يمنعانه من ذلك، فيتفرقون إلى بيوتهم، أو يجتمعون تحت الشجرة الوحيدة الجرداء....

إنه أبو عليوي حارس الخانات، بنوا له غرفة كي يطمئنوا على أبقارهم، وعجولهم، فسمينا الساحة باسمه، وصار أي منا إذا سألته: "لوين رايح؟" رد عليك:" لساحة أبو عليوي".

- منين جاي؟

- من ساحة أبو عليوي.

حتى الخان سميناه خان أبو عليوي. وكان حين يسمعنا يتأسف على حاله:" ياحسرة غير هالشوية عزم، لأحمي خاناتهم من السرقة، ما عندي. ولولاه كانوا طردوني حتى من هالخشة اللي مثل الزريبة يا شباب."

(2) ضد النسيان

يقوم الملازم ناجي بتمارينه الصباحية على سطح بيت عمته الذي يستأجر غرفة منه، لعدم وجود مكان آخر يمارس فيه الرياضة يوم استراحته، كي يبقى محافظاً على لياقته البدنية. وما من أحد يمر به إلا يُصبِّح عليه، فهو محبوب جداً.

جاء إلى الزفتية مغلفاً قلبه بخيبة أمل، بسبب قصة حب، لم تنطفئ جذوته بعد: " **عبير جرح، استعصى على النسيان**"....

لقد درسا معاً استعداداً لامتحانات الشهادة الثانوية، فنجح بتفوق، ورسبت. بعد ذلك رفضت حتى مجرد رؤيته، ولو أشعل أصابعه العشر شموعاً. ثم تزوجت ذلك الرجل المغترب، الذي عاد إلى الوطن محملاً بالمال، باحثاً عن عروس من بلده ـ لأنها أضمن من بنات الخارج، أو برا، حسب تعبيره ـ ليقترن بها. ولم تدم إقامته إلا شهراً واحداً، استكمل خلاله إجراءات الزواج، ثم خطفها، وطار بها نحو البعيد. فأحس ناجي بغربة موحشة عن قريته الشتائية، هناك حيث يهطل المطر على مدار العام، لارتفاعها الكبير عن سطح البحر، وقربها منه. فقرر أن يتطوع في الجيش لا سيما وأوضاع والديه المادية معدمة، مع أن علاماته عالية تؤهله لدخول كلية الهندسة، وهي حلم حياته. إنه يقرأ الآن كثيراً من الكتب الأدبية، خصوصاً دواوين الشعر، من أجل أن نتبارى فيه: جميعنا في فريق واحد ضده، وهو وحده، أو كما يقول:" كلكم في مواجهة بطل." ويشير إلى عضلة ذراعه الأيسر، وقد تصلبت، فبدت كتلة قوية كالحجر.

❖

تجتمع النسوة عند أم قادر، التي خطبت له على أن تزوجه قريباً، لذلك دعت نساء الزفتية لمساعدتها في إعداد الغداء للضيوف، وإذ تحضر أم مهران، يحلفن عليها أن تشرب كأساً من الشاي معهن، فتُنزل - على غير عادتها - برميلها الكبير عن رأسها، وتروح تحدثهن:" وزي ما أنا شايفتكن قدامي بشوفكن بالمنام، معكن ولادكن ورجالكن، راكبين باصات، وشاحنات، حاملين غراضكن، وراجعين على الجولان وانتن تزغردن، كأنكن بعرس، بس ما حدا عارف وين قريته، لحد ما وصلتوا لعند بحرة كبيرة. وصرتوا تصيحوا: هي بحيرة طبريا. كانت الأرض حواليها خضرا، وشجر زيتون، وفاكهة من كل الأنواع، فنزلتوا فيها فرحانين، بعضكم يغسل وجهه، بعضكم يغطس راسه، وكثيرين صاروا يسبحوا فيها بثيابهم."

وتسألها أم قادر:" وانتِ يا أم مهران؟"

- كأني ماني معكن يا حبيبتي، أو ضعت على الطريق.

حتى إذا ما بدأت عملية إعداد الطعام، وراحت النسوة يقشرن البصل، ثم يقطعنه، انزوت أم قادر بعيداً عنهن، وراحت تبكي بمرارة، فتأتي أم طلعة تسألها:" كل هالقد البصل يبكيكِ؟ ولا هو حلم أم مهران؟"

ترد عليها:" البصل حجة والله يا خيتي، حتى أبكي على البيت، وهديك الأيام هُناك بقريتنا."

ثم تأخذان في البكاء معاً، فتُبكيان النسوة جميعاً.



يحضر البيك أبو محروس متجهماً، تلحقه جورية كظله، في يدها سوطها الجلدي، أو كرباجها اللذيذ، كما تدلعه، فتصمت العاملات، ويعملن بجد أكثر. ينزل عن حصانه الأسود، ليمشي في يده عصاه المدببة، التي يلاحق بها من يدخل مزرعته دون إذن أياً كان. عندما يشاهد مريم، يقف إلى جوارها حازم، تنفرج أساريره. لكنها تشيح نظرها عنه، وهي تنكش الأرض بالفأس. فيسألها:" شو اسمه الله يسلمه؟"

- ابني حازم يا بيك.

يلاطفه:" بكرا أجي، وآخذك نزهة على الحصان. مبسوط؟"

يبتسم له حازم في طفولة بريئة، بينما جورية تنظر إليه في غيظ شديد، وحنق:" صار موعد الفلة يا بيك." فيلتفت إليها، ينهرها كعادته:

- العمى ضربك، لازقة فيّ كيف ما مشيت!

ثم يمتطي حصانه، وقبل أن يمضي يبتسم لمريم.

❖

تعود إلى الزفتية منهكة، تمسك بيد حازم، الذي يرى الأطفال يلعبون فرحين، فيذهب إليهم، كي يشركوه معهم، لكنهم يظلون يتناقلون الكرة القماشية فيما بينهم. وإذ تراه نجمة، على هذه الحال وقف وحده منزعجاً تناديه:" تعال العب معي."

لا يلبي نداءها، فتأتي وتسحبه من يده إلى حيث خططت على الأرض عدة مربعات، وراحت تلقي قطعة الحجر الملساء إلى أحدها. تبدو متقنة للعبة، تقفز داخل المربعات متحاشية الخطوط، ثم تستدير نحو الخلف برشاقة كالفراشة، بينما تأتي رميته خارج المربعات، أو يدوس على خط ما، وعندما يحاول أن يقفز يُفَك خيط حذائه، فيتوقف عن اللعب، ليربطه لا يستطيع. أخيراً يلفه حول ذاته كيفما اتفق، لكنه إذ يقفز، مباعداً ما بين قدميه، ينفلت من جديد، ويستقر فوق أحد الخطوط. رويداً رويداً تسحب الشمس أشعتها عن البيوت لتستقر في أعلى الشجرة الجرداء الوحيدة عند مدخل الزفتية، ويأخذ الأفق لون حمرة مشوبة بالصفار، بينما غيوم داكنة في السماء، تنتظر ليلاً قارساً.

فجأة يأتي شخص وضع عصابة سوداء على عينه اليسرى، فبدا كأنه وزير حرب العدو، موشي دايان، يجعل يده اليمنى على شكل مسدس، ثم يصيح بحازم في صوت واثق من الخلف:

- يا مخرب سلّم نفسك.

يلتفت إليه حازم، فيبتسم، وهو ينزع العصابة عن عينه:" ما عرفتني؟ أنا الفدائي مهران. كيفك حازم؟"

- منيح.

ثم يصافحه، وهو يضغط على يده قائلاً:" ثورة حتى النصر."

فيرد عليه حازم بالمثل:" ثورة حتى النصر."

- طيب تحب تلعب معنا: فدائي؟ ولا إسرائيلي؟

- فدائي.

ويبتسم مهران:" ولك يا زلمة إنتا لحد هلق ما بتعرف تغمض عين، وتفتح الثانية حتى تنيشن مضبوط!"

يصمت حازم مغتاظاً، فتمتد يد مهران إلى بارودته الخشبية - الحديدية، التي جمعها من بقايا بنادق قديمة، فبدت مهجنة في ألوان متعددة، يقدمها له:" خود نيشن لشوف."

يحاول حازم أن يغمض عيناً، ويبقي الثانية مفتوحة، لا يستطيع، فيضحك مهران، ثم يقول لمراضاته:

- خلاص بالأول إسرائيلي، بعدين، لما تعرف تنيشن، فدائي على طول.

لذا يبقى حازم صامتاً، فتقول له نجمة:" ضروري ترجع على بيتكم يا حازم رح تعتم الدنيا."

ثم تردف:" ممكن أوصلك لنص الطريق يا حلو."

❖

وتغلق مريم الباب خلفها بانزعاج، بعدما كنست أمام بيتها، متحاشية تعليقات أبي مهيب، الذي خرج من دكانه، وهو يصيح، في سخرية لاذعة، كأنه في عراضة:

- العافية يا ست الخدامات.

ثم يتنهد:" لو أعرف ليش متعبة حالك بالشغل مع ابن الحرام أبو محروس، وأنا موجود، لأخدمك بشواربي؟"

ويروح يغني لوديع الصافي:

" يا قلب هدّي ولا تجن

بكرا الحلو قلبه بيحن..."

ثم يشرد باتجاه بابها الخشبي، الذي سُدَّ في وجهه، فتأتي أم إدريس متزينة كالعادة في مكياج مبالغ به، وقد سالت الكحلة على خديها، وهي

تحمل صرة في يدها، تسلّم عليه في غنج:" يسعد مساك يا معلم."

ينتبه لها، فيرد بلا نفس:" أهلين أم إدريس."

تقول له في لهجة عتب:" حتى انت يا أبو مهيب. قلت لك اسمي سعدة."

ـ والله ما عم تطلع معي. خلاص تعودت على أم إدريس.

فتقدم له الصرة:" جبتلك أكل، رح تاكل أصابعك وراه."

ـ ما له لزوم. تغديت.

بعد لحظة يسألها، كأنه يراضيها:" شو بتأمري يا سعدة؟"

فتنفرج أساريرها، كما لو أنها تلقت هدية قيمة:" ما يأمر عليك ظالم يا عيوني: عندك سكر؟"

ـ أي في سكر.

لكان عطيني ربع وقية شاي.

يجهز ما طلبته بسرعة:" تفضلي."

ـ ما يفضلوا عليك حدا يا عمري: عندك سمنة؟

ـ أي في سمنة.

ـ لكان عطيني وقية زيت.

يجهز ما طلبته بسرعة:" تفضلي."

ـ يسلموا لي هالديات. ممكن محرمة: عرقانة كتير.

ويقابلها بمثل طريقتها قائلاً:" أي خذي لكان هذا البشكير."

ويقدم لها البشكير الذي مسح به مهيب الشحار عن وابور الكاز ذي الرؤوس الأربعة، فتجلس على كرسي القش أمام الدكان، وتمسح ـ رغم أن الجو بارد ـ عرقها الغزير، المختلط مع كحلة عينيها، ثم تناديه في غنج:

ـ تعال أبو مهيب اقعد جنبي، ولا ما تقعد إلا تكون الست مريم موجودة؟.

يعتذر:" بلا مؤاخذة عندي حسابات ضروري أنهيها."

فجأة يمر بعض الأطفال، وإذ ينتبهون إليها، اسودّ وجهها بالشحار، يأخذون بالسخرية منها:" شوفوا العفريتة، شوفوا الشيطانة."

يخرج أبو مهيب لطردهم، وإذ يراها، وقفت مكشرة في بؤس شديد، فصارت مرعبة على هذا الشكل، يضحك هو الآخر في سره:" **كش برا وبعيد، كأنك إبليس يا أم إدريس!**"

وتسرع هاربة بينما الأطفال، يلاحقونها في صخب، تدخل بيتها، وتنزوي متهالكة قرب فراشها الممدود طوال الوقت، تمد يدها تحت وسادتها، تُخرج مرآة مدورة بحجم الكف، لها حامل خشبي، تنظر فيها مرعوبة:" يا مشحرة شو هذا؟!" تقبلها كعادتها، ثم تحدق فيها بإمعان، لتبصق عليها، وهي تتذكر ذلك اليوم المشؤوم حين أخبرها إدريس أنه سيحضر عرس صديق له، يقام في فندق فخم بمدينة دمشق. وكي لا تزعجه، أو تحرجه، لأنها أكبر منه ببضع سنوات، لا ترافقه، لئلا يتعكر صفو سعادته التي تحرص عليها كثيراً. غير أنها شعرت بالرغبة في أن تذهب لحضور حفل الزفاف هذا:" **وبعد العرس أفاجئه بحضوري، ورح يفرح بالتأكيد.**"

هكذا قالت داخلها.

وصلت إلى الفندق، وعندما طلبوا منها بطاقة الدعوة أقسمت لهم بأغلظ الأيمان أنها قريبة الأستاذ إدريس، فسمحوا لها بالدخول إلى مكان، يعج بنساء، بدأن يغنين، فغنت معهن، وهي تصفق في فرح متخيلة أنها العروس المتصدرة فوق كرسي مرتفع، إلى جوارها كرسي فارغ، سيجلس عليه حبيبها إدريس في يوم قريب. وبهتت إذ جاء يجلس عليه بالفعل. حسبت أنها تتوهم، ففركت عينيها مراراً، وهي تقول في سرها غير مصدقة ما تراه:" **يخلق من الشبه أربعين.**" لكن عندما تقدم، ليقبل الفتاة التي بدت أصغر منه بكثير، تأكدت أنه إدريس بشحمه ولحمه، فحاولت أن تصرخ لم تستطع، إذ أغمي عليها، ووجدت نفسها في المشفى الوطني، المسمى مشفى الغرباء.

❖

تدخل أم مهران إلى بيت مريم، ببرميلها الكبير، تفرغه من على رأسها كالعادة، وهي تسأل:" صحيح وين تايه؟"

ـ راح على الجامع يقابل الشيخ عبد الستار.

وتصمت لبرهة، ثم توصيها:" لا تخلي الشيخ سليم يعرف انه نازح!"

ـ مين الشيخ سليم؟

ـ مؤذّن الجامع، لأنه يكره النازحين.

ـ معقول؟

ـ قال: لأن الله عم يعاقبهم، لهيك تركّهم بيوتهم. والبلا لاحقهم وين ما راحوا.

وتنتفض مريم بمرارة:" خيتي معقول في ناس بيعاملونا كأننا مجرمين، ونحنا مظلومين؟"

متأسفة على هذا النازح، المطرود من أرضه بقوة السلاح أو المجزرة، يصبح ـ عند بعض الناس، وهم قلة على كل حال ـ مخلوقاً غير مرغوب فيه، يُعاقَب من السماء، حسب اعتقاد مؤذن الجامع، المعروف بالشيخ سليم، وهو عجوز طاعن في السن، يشكو من وجع عينيه بشكل دائم، لذا يدخل الجامع، ونظره إلى الأعلى، فيتعثر كلّ مرة بالدرجات الثلاث عند مدخله، يعتقد بأن الأرض تقف على قرن ثور واحد، أو قرني ثورين، ويكرر، بمناسبة ودونها، أن الدنيا سجن المؤمن، ولا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه، فيرد عليه أبو يوسف مباشرة:" بل لا راحة لنا طالما يوجد احتلال لأرضنا يا شيخ سليم."

كثيراً ما طرد أولاد النازحين إن جاؤوا إلى الجامع، على عكس إمام الجامع، الشيخ عبد الستار، الذي يعاملهم بكل لطافة وود. كما أنه يحضر المناسبات كلها في الزفتية، ويحبه جميع سكانها.

بعد وقت تخرج أم مهران، برميلها الفارغ على رأسها، فتنظر مريم باتجاه الأطفال، الذين مازالوا يلعبون بالكرة القماشية، رغم حلول الظلام، لا ترى حازماً معهم، فتضطرب:" **معقول تايه أخذه معه على الجامع؟**"

تجهز نفسها للخروج بحثاً عنه، فيأتي مسروراً، تسأله:" وين كنت؟"

ـ كنت ألعب مع نجمة.

يردف:" شاطرة كثير! وأخوها مهران شاطر بالتصويب بالبارودة يمه!"

ثم ينزوي، ليمد يديه: يسراه في الأمام، ويمينه بالخلف، ضاماً أصابعه ماداً السبابة كالفوهة، وقد رفع إبهاميه كشعيرتين، محاولاً أن يفتح عيناً، ويغمض أخرى دون فائدة ترجى، لذلك يهمس داخله:" **بالأول إسرائيلي، عند أمرك يا فدائي مهران.**"

❖

/ في ذلك اليوم البعيد جاء المدير، وأخرجني من الصف، بعدما نلت بالأمس من عريف صفنا يسار، مما أدى إلى ظهور كدمة حول عينه اليمنى. كرجت العصا على كفيّ خمسين ضربة قوية من" كعب الدست" كما يسميها الطلاب، تحت التهديد بالفلقة أمام المدرسة كلها، في حال التكرار. كل ذلك وأنا أتجلد مكابراً على الدمعة، فلم تسقط من عيني إلا عندما أمرني المدير بإحضار أبي. لذا خرجت من المدرسة، لأجلس على الدرج الحجري لمدخلها الخلفي، ورحت أبكي بحرقة، فلا أنا أجرؤ على العودة إلى البيت، إذ سيضربني مقرراً سلفاً أنني المذنب:" الله أعلم شو عملت حتى طردوك."

ولن أتمكن من إخباره بأن عريف صفنا يساراً، معه عصابة الشوام، التي يتزعمها، يذيقونني الويلات، عندما يستفردون بي، لا سيما إذا غاب عبد الناصر. وأنها مرة واحدة نلت منه مقابل مرات كثيرة نالوا مني دون أن ألجأ إلى الإدارة، كما فعل يسار....

يقول عنه أبي ليفحمني:" ابن عالم وناس." كلما ذكرته. ويصيح بي مفاخراً:" أنا بعرف أبوه منيح."

بالمناسبة، ضدي الآن عصابتان: عصابة عريف صفنا يسار في المدرسة، فكلما حصل نزاع بينه وبين الطلاب النازحين استهدفني، وهاجمني بضراوة، لأني أسكن الزفتية مثلهم، فأصبحت، دفاعاً عن نفسي، أصُفُّ معهم بشكل تلقائي. والعصابة الثانية في الزفتية بقيادة قادر أخو عبد الناصر الأكبر، حيث لا يعتبرونني منهم، فأمي نبكية، هم يقولون شامية، لذلك يتقصدونني كل مدة.

وإذ مر بي الفدائي مهران، بعدما انتهى من مساعدة محيميد في إفراغ

صناديق الخضار على عربته، ورآني على حالتي البائسة، سألني عن سبب خروجي من المدرسة، فأخبرته، في إسهاب، بما حصل، شجعني:" أحسنت برافو عليك: لا تحطها واطية لأي إنسان مهما كان."

ثم طلب مني انتظاره، وانتظرت. لكنه لم يحضر، بل حضر والدي، هكذا خيل إلي، وأنا أراه في الحطة، والعقال، وحتى صوته المجلجل كصوت والدي، الذي فاجأني، وهو يصرخ بي:" يللا امشِ قدامي لأعرف شو مساوي يا كلب."

أمام باب الإدارة الموارب أمرني بالاستئذان له كي يدخل على المدير، ثم خرج بعد دقائق، وهو يقول بصوت عال:" بعد إذنك أستاذ: اللحم إلكم، والعظم نرميه للكلاب."

ثم أردف، وهو يحدجني بنظرة قاسية:" عاملّ عصابة يا بوشت!"

وأمرني:" ادخل صفك، ولما ترجع البيت حسابك عسير."

ساعتها امحت صورة المدير وعصاه، ونسيت ألم كفيَّ المبرح، وأنا أدخل صفي مبتسماً في فرح، لم يعرف سره أحد، ولا حتى عبد الناصر شريكي في مواجهة عصابة يسار./

❖

يتقدم تايه باتجاه الجامع، فتعتقد البنات الواقفات بالدور على الحنفية أنه يريد الشرب، ويوسعن له. لكنه يتجاوزهن، ليخلع حذاءه عند العتبة، فيقول له الشيخ سليم مؤذن الجامع الخارج إلى بيته الآن:" إذا كنت نازح يا ابني استغفر ربك حتى يتوب عليك!"

ولا يأبه تايه بما يسمعه، بل يمضي صوب غرفة يطرق بابها، ويدخل، فإذا بشيخ كهل، لحيته بيضاء، وعلى رأسه عمامة، يجلس على كرسي وراء طاولة، يبادئه الترحيب:" أهلاً تايه، مبين عليك ابن حلال، مثل ما خبرتني الست مريم."

ـ هذا من لطفك يا شيخ عبد الستار.

ثم يأخذ في محادثته، بعد أن سحب كرسياً، جلس عليه، بينما يبقى تايه صامتاً، يستمع بإصغاء.

أخيراً يحدِّق في عينيه النديتين ملياً، وقد وقف، يهم بالمسير:

- لكن من يتق الله يجعل له مخرجاً. فاتق الله يا تايه، ولترعَ حرمة بيته، ما دمت فيه.

بعد ذلك يخرجان إلى غرفة منزوية في البعيد، يفتح الشيخ بابها بالمفتاح، فتبدو في حالة يرثى لها من الفوضى، كأنها مستودع أغراض قديمة، تحتاج إلى ترتيب، وتنظيف. وبينما هما داخلها، يُسمع صوت ينادي مكرراً: " يا شيخ عبد الستار."

فيمضي الشيخ مبتعداً باتجاه الصوت، إذا عايد يسلم عليه بحرارة، ثم يردف: " بلا طول سيرة: أمي طلبت مني آخذها للقنيطرة، ولو نص ساعة، وأنا قلت لها: نذر عليٍّ لآخذك. والعمل يا شيخ؟"

- النذر واجب التنفيذ. لكن هذا الأمر ليس في استطاعتك.

- طيب شيخنا انت عارف أمي عميا. فممكن آخذها بسيارة، وأروح فيها لأي منطقة، على أنها القنيطرة، بركي تهدا حالتها؟

- افعل ما تستطيعه لإرضائها يا بني، جزاك الله كل خير.

ويخرج عايد من الجامع، بينما ينظر الشيخ عبد الستار في سرور إلى الغرفة البعيدة، غرفة خادم الجامع المهجورة، وقد أضيئت للمرة الأولى منذ زمن طويل. وإذ يتوجه نحو غرفته ينوص ضوء غرفة تايه. الذي يتمدد على فراش من الإسفنج، متدثراً ببطانية سوداء سميكة، ثم يقوم ليركض بأقصى سرعة، هارباً من كلاب مسعورة تلاحقه، حتى لتكاد تنهش لحمه. فجأة يصل إلى طريق مسدود، في آخره دمية تلوِّح له، وقد سال الدم من فمها، فيضطرب من الخوف، ويصحو مرعوباً، ينظر حوله، إذا هو في هذه الغرفة المضاءة بنواصة خافتة. ويبزغ فجر يوم جديد....

هكذا تايه في كوابيسه المتواصلة، يسير في طريق بلا نهاية، تلاحقه الكلاب الشرسة، محاولة أن تنهشه طوال الوقت، وهو يركض، ويركض، فإذا اقترب من النهاية رأى حفرة عميقة، كأنها الجحيم، وعلى البعد تطالعه دمية، يتساءل عن سرها، وهو يراها دوماً وسط بركة دم.

(3) حارة البلبل

/ هانذا في الزفتية، هذا التجمع الذي لا بد سيُهدَم ذات يوم، مغيباً معاناة سكانه، خصوصاً النازحين، وحالتهم المعيشية البائسة، لا سيما حين يهطل المطر غزيراً، فتدلف تلك السقوف الطينية، ولا تترك مكاناً للأطفال، ينامون فيه، إذ نوزع صحون: الألمنيوم والنايلون، بتزايد مطرد كلما تواصل الهطول، حتى لتكاد تملأ أرضية الغرف الضيقة، بينما يتقوقع الأطفال في الزوايا حيث الدلف أقل....

هنا قضيت فترة صباي، أتذكر بداية مجيئنا، وسقف غرفتنا المائل، كي لا يقف المطر عليه، كما في بقية الأسقف، التي يجوِّر فيها، ما يؤدي إلى دلف كالمزراب أحياناً. ولكن لسبب ما بقي مكان يدلف قطرات قليلة، فوق سريري الحديدي، الوحيد المتبقي من عرس أمي. وكي أناء وضعت صينية كبيرة، فيها بشكير، حتى لا أسمع صوت الدلف المزعج، وأخذت أقصى اليسار مكاناً لنومي، وقد وضعت الصينية في منتصف السرير، حيث مركز الدلف، محاذراً أن أدلقها. وإذ دخل ضوء الصباح غرفتي، من تلك النافذة المطلة على الطريق، سررت لمرآه، وهممت على النهوض مسرعاً لمشاهدة النهار المشرق بعد أيام ممطرة طويلة، ودلف مزعج، فما كان مني إلا أن دفعت اللحاف عني، لأتمكن من النزول، فإذا بتلك الصينية، التي امتلأت حتى آخرها، تندلق بكاملها وسط فراشي./

❖

تأخذ أم إدريس طريقها المعتادة باتجاه دكان أبي مهيب: امرأة محطمة، تكاد روحها تجف، وهي تمشي إلى قدرها الموعود، كلَّ صباح تأمل أن يعود

إليها إدريس. صحيح أنه غدرها بزواجه من هذه الفتاة الصغيرة الجاهلة. لكن:" **بكرا يرجع له رشده، ويرجع لي، لأني أحبه، وعطيته كل شي طلبه مني.**" هكذا تحدس داخلها. ثم تردف:" **ومن هلق لحتى يجي إدريس بيمشّي الحال أبو مهيب.**"

لذلك كثيراً ما أراها جالسة أمام دكانه على كرسي من القش، لكن وحدها أغلب الأحيان.

ومع أنه كثيراً ما صدها عن باب دكانه إلا أنه، في أحيان قليلة، يلاطفها، فينبعث في نفسها بصيص أمل: أن أنوثتها مازالت مؤثرة.فتبالغ أكثر في مكياجها، وتروح تتغنج. لكن ما إن تخرج الست مريم - هكذا تتحدث عنها - من بيتها حتى يعود لا يلتفت إليها، فتحمل خيبتها مخلية كرسي القش، لتنسحب إلى غرفتها المنعزلة البائسة.



ترى إحدى الجارات أم الجاج، وقد سقط المنديل عن رأسها، ولم ترفعه، فتنبهها بإيماءة من يدها. ترد عليها:" بعد ما انفضحنا شو نفع المنديل؟"

- حرام يبين شعرك.

- ومو حرام نترك بيوتنا، ونعيش بهالخشش؟"

- هي إرادة الله.

- والجاجات؟

- إلهن الله يا خيتي.

- الله يا خيتي للجميع. بس أنا اللي سكرت عليهن باب القن، وتركتهن بلا أكل ولا مي.

وتغص بالدمعة بعدما تركتها الجارة:" **يعني لو جبتهن معي ما كان إلهن الله؟**"

تواسيها ابنتها الوسطى:" الحيوان يقدر يخلص نفسه بالغريزة يمه."

وتستوقف أمَّ الجاج كلمةُ حيوان، فتسألها في دهشة:" هنَّ الجاجات حيوان؟"

- والصيصان زيهن.

ثم تعقب بتلقائية، عندما ترى أمها لم تفهم ما قالته:" قصدي والصيصان تقدر تخلص حالها !"

❖

يركّب البيك أبو محروس حازماً على حصانه الأسود، ويدور به، أول الأمر، حول مريم، فلا تلتفت إليه، ولا تعبأ به، بينما البنات يتفوهن ببعض الكلمات الجارحة، ويتغامزن غمزات ذات معنى.

تتحرق جورية غيرة، وغيظاً، وهو يدخل الفيلا، ممسكاً بيد حازم، ثم يدعوه، في ود زائد:" تعال عمي خُذ تفاحة."

لكنه يرفض بإباء صارخاً:" ما بدي. خليني أروح عند أمي."

وينزل الدرج مسرعاً نحوها، حتى إذا ما وصل قريباً منها راح يبكي بحرقة:" ما بدي أطلع معه على حصانه، هذا مو عمي. مظبوط يمه؟"

فتضمه إلى صدرها في حنان. وتنسحب جورية إلى الداخل، علت وجهها ابتسامة انتصار. بينما يغلي البيك مغتاظاً من تصرفات حازم، لذا راح يصرخ غاضباً:

- جورية. وُلِك يا زفت. وينك؟

تأتي مسرعة، فيردف:" خليهن يحضروا لي السيارة."

❖

يعود مهيب حاملاً بعض الحاجات لزوم الدكان، وهو يتخيل ما ينتظره من صراخ أبيه عليه:" وينك يا ولد؟ ليش تأخرت يا ولد؟"

ثم قذفُه بالشتائم، وضربُه بيديه القاسيتين، وربما ركله برجليه، وتعليقه على باب الدكان في مشهد يومي متكرر.

فجأة تقف سيارة أجرة إلى جواره، ويفتح له سائقها الباب:" اركب لأوصلك يا أستاذ."

أسعدته كلمة أستاذ، وراودته نفسه أن يستقل، للمرة الأولى في حياته، سيارة أجرة، لكنه تذكر أن أباه لم يعتد تسليمه أية نقود، ليتصرف بها. فمشى في طريقه، غير عابئ بالسيارة المتوقفة، وبابها المفتوح له، فنظر إليه السائق شزراً، ثم مد يده إلى باب سيارته يغلقه بانزعاج، وهو يرفع صوته لإسماعه:" عامل حالك زلمة، وأنت ولد."

لذا بحث مهيب عن قطة، وراح يشتمها ببذاءة، مثلما يشتم أبوه أمه، ثم وضع حمله جانباً، ليأخذ حجراً، ويرميها، فلاذت بالشجرة الوحيدة الجرداء عند مدخل الزفتية، وراحت تصعدها. تسلق خلفها بخفة قرد، ثم استل نقيفته، ليصيبها في رأسها، فسقطت، حملها، ولوَّح بها إلى أحد بيوت الزفتية. وسمع سكان ذلك البيت يدعون بكسر يديه.

بغتة وجد نفسه أمام مزرعة أبي محروس، وفيها عدة أحصنة صغيرة، تمرح مع بعضها، كيفما تشاء، فغبطها في سرِّه:" **نيالكن عايشين بلا أب.**"

❖

يجلس أبوه على كرسي القش أمام دكانه، بعدما رجعت خائبة أم إدريس إلى بيتها، فجأة تتوقف سيارة أبي محروس ـ الفخمة من نوع كاديلاك ـ في مواجهته، ويناديه:" أبو مهيب: تعال يا زفت."

يرفع أبو مهيب يديه الإثنتين معاً بالتحية في خضوع، مقترباً من نافذة المقعد الخلفي حيث جلس أبو محروس:" أمرك يا بيك أنا بخدمتك."

ـ اسمع ولاه: مريم بعِّد عن طريقها، صارت عندي. فهمت؟ ولا أفهمك بطريقتي؟

يرد في غصة حارقة:" فهمت سيدي. فهمت"....

ليتذكر يوم واجهه، بعدما تحرش بابنته العاملة في مزرعته، وكيف جعل أزلامه يبطحونه أرضاً، ثم ينهالون عليه بالضرب، والرفس. بعد ذلك جاءت جورية، تحمل سوطها، الذي تضرب به الفتيات بتلذذ، وراحت تتلمس نهايته الناعمة برؤوس أصابعها، ثم أخذت تضربه على أنحاء جسمه، كيفما اتفق بلا شفقة، ولا رحمة، بعد ذلك ضغطت بجزمتها الجلدية على رقبته، فبدا ساقها، الذي انحسرت عنه التنورة عمود رخام أبيض، ولم يعد أبو

مهيب يستطيع التنفس، إذ برقت عيناه مثل ذئب شبق، قبل أن يأتي البيك، ويُدخل جزمته ذات الزوائد الحديدية في فمه، متوعداً بقطع لسانه إن تفوه بكلمة.

وينحني أبو مهيب نحو الأسفل دلالة الطاعة، ثم يضع يده على قمة رأسه، ويخفضها قائلاً:" مثل ما تأمر يا بيك."

أخيراً تنطلق السيارة مثيرة خلفها زوبعة واسعة من الغبار، وذكرى، لا تنسى، حين انتبه إلى ما تحت تنورة جورية:" **كنت رح أشخ بلباسي من الرعبة، بس لما شفت هذا المنظر ما بعرف شو صابني، صارت جورية تضربني بالكرباج، وما عاد همني، فجأة قلت لأبو محروس، وتمي مليان دم: تأكد انو نهايتك على إيدي، يا بيك الزفت.**"

ينظر صوب بيت مريم في حسرة حارقة، وهو يقول بصوت مسموع هذه المرة:" لكن والله ضاعت من إيدك العصفورة."

ثم في تنهيدة مريرة، ناظراً صوب المزرعة:" مع ذلك: حسابك عندي يا أبو محروس النحس، إذا عملت معها مثل ما عملت مع غيرها."

ويدخل دكانه، يفتح درج الغلة بالكامل، حتى يخرجه من مكانه، ثم يزيح خشبة وضعت بإتقان، ويعاين البارودة التي يخبئها هناك.

❖

يدخل الملازم ناجي غرفته في بيت عمته، ليخلع بذته بسرعة، فلم يكن يُرى في الزفتية إلا بسترته الرياضية.

بعد قليل يُقرع بابه مرات، فالمعروف عنه تفوقه في المواد العلمية، ما أهله لدخول كلية الهندسة لولا ظروفه المادية، التي أجبرته على الانتساب إلى الكلية الحربية. فراح، خلال تواجده في فترة استراحته من الخدمة في قطعته العسكرية على الجبهة، يستقبل طلاب الزفتية، ليُدرِّسَهم مادتي الكيمياء والفيزياء، وهو ما يساعده على إشغال وقته، ونسيان حبيبته عبير التي غدرت به، كذلك يبقيه في جو العلم الذي يعشقه إلى درجة الوله. فإذا وجد أن أحدهم غير حافظ للدرس جعله يصعد إلى السطح، ليؤدي التمرين التاسع، وهو يردد قانوناً في الفيزياء، أو يستظهر رموز العناصر الكيميائية مع

تكافؤاتها. رويداً رويداً يمتلئ سطحه، فإذا صعدت إلى هناك لم أجد مكاناً لي.

بعد ذلك نشرب المتة من يد عمته، ونحن نحكي عن الأمنيات في المستقبل، ومن يرغب أن يتطوع في الجيش...

بدا دخول الكلية الحربية بالنسبة لنا جميعاً، طلاب الزفتية، يمثل أحسن تمثيل تلك المرتبة اللائقة في المجتمع، والمحترمة من الجميع، حيث يقفز الواحد منا ـ حين يتخرج ضابطاً ـ قفزة واسعة ليصبح رجلاً في عداد الأبطال. وإن كان الضابط الطيار قد سحرنا أكثر.

إننا ننظر باحترام وإجلال إلى الملازم ناجي، وهو يحضر ببذته العسكرية، على كتفيه نجمتان تتألقان تحت الشمس، فلابس هذه البذة، التي لونها من لون التراب، هو من سيقاتل العدو في يوم قريب، ويحرر الأرض المغتصبة، ليعود أصحابها النازحون، وإخواننا الفلسطينيون، إليها. باختصار كانت نظرتنا إليه، وإلى كل ضابط نظرة إعجاب، وتطلع أن نصير مثله.

أقول له: "أنا أريد التطوع في الجيش."

ـ أنت لا، لأنك ستكون شاعراً.

ونتبارى في الشعر، وحده في مواجهتنا، ونحن كمجموعة ضده، يفوز في أكثر المرات، ونتعادل أحياناً. ثم تبينت أنه يؤلف أبياتاً من عنده وفق الحرف المطلوب، واكتشفت أيضاً أنه كتب قصيدة لعبير، يقول مطلعها:

عبير تطوينا الأيام عجلى

تظلين دقة قلبي الأحلى

باسمك ينبض وجداً أخضر

لاسمك يسرد بوحاً يتلى..

فصرت أقلده، وأحياناً أؤلف شعراً موزوناً، أستخدمه خلال مباراتنا، لكنني أعترف له، قبل الانصراف من عنده، بأنني غششته، فهذا الشعر لي. لا يصدقني.

شيئاً فشيئاً رحت أكتب بعض أبيات الغزل، لأقرأها على الرفاق في الزفتية. بعد ذلك أطلعت أستاذي فتحي الحاج سعيد عليها، فشجعني، وأهداني ديواناً للشاعر راشد حسين، مازلت أحفظ مطلع إحدى قصائده، التي تتحدث عن القدس:

اللّه أصبح غائباً يا سيدي

صادر إذاً حتى بساط المسجد

وبع الكنيسة، فهي من أملاكه

وبع المؤذن بالمزاد الأسود...

بدأ راشد حسين باكتشاف موهبته الشعرية باكراً، حتى أنه أصدر ديوانه الأول، وهو في سن العشرين من عمره، وقد عُرف لدى كثير من النقاد، ومؤرخي الأدب، باعتباره مؤسس شعر المقاومة في الداخل الفلسطيني المحتل.

❖

/ ألتقي الفدائي مهران، أتقدم منه أصافحه في محبة واحترام، فيسألني:" بعدك تعمل عصابة مع عبد الناصر؟"

أبتسم:" ما عاد بدي تصير ولي أمري، وتتعهدني مثل المرة الماضية."

يهز رأسه مستغرباً أن لماذا.

- لأننا اتفقنا ما نشتكي للمدير مهما صار.

يصمت قليلاً، ثم يسألني في استغراب:" ماني فهمان: كيف انت وعبد الناصر مع بعض بالمدرسة ضد عصابة الشوام، وأخوه قادر يظل يضربك بالزفتية؟" /

❖

ثمة كلب عجوز، يلحق به الأطفال، وهم يرمونه بحجارتهم الجارحة، ويضربونه بعصيهم، التي يتكسر بعضها على بدنه بلا رحمة. حتى إذا ما التطى تحت عربة محيميد، متحاشياً حجارتهم القاسية، استطاعوا الوصول إليه بعصيهم الطويلة، ينغزونه بها في الأماكن الحساسة من جسمه،

كبطنه، وعينيه، ومؤخرته، فيتألم، ويروح ينبح متوجعاً طوال الوقت، حتى بعد ابتعادهم عنه، وبقائه وحيداً.

❖

مع رجوع مريم إلى الزفتية متعبة، ينادي الفدائي مهران حازماً الذي يمشي خلفها:

- تعال العب معنا" يا إسرائيلي"

ينظر حازم حوله، فيرى الأولاد الفدائيين انبطحوا على حافة الجورة، يلبسون شماغات حمراء، بينما الآخرون - الذين يمثلون دور الإسرائيليين - في أسفلها، يضع كل منهم عصابة سوداء، مثل موشي دايان، على عينه اليسرى. فيمضي صوب الفدائي مهران ضارباً كفاً بكف، ليرفعا معاً شارة النصر مرددَين:" ثورة حتى النصر."

لكنه يرى تايهاً يجلس على المصطبة بانتظاره، وهو يومي له بيمينه، فيسرع إليه يصافحه:" اشتقت لك، يا زلمة."

فيبتسم له حازم:" وين الشبابة؟"

يُخرجها بعناية من جيب جاكيته الداخلي، يقربها من فمه، لكنه يتذكر أمراً، فيعيدها مكانها:" مو ظابطة. ما لك سامع صوت القرآن؟"

في هذه الأثناء تحضر أم مهران، على رأسها برميلها الكبير، تفرغه، وهي تقول:" لا تآخذيني تأخرت عليك، كنت عند أبو عزيز، الله يرحمه."

- إي صحيح: شو قصته؟ وكيف مات؟

- هذا يا ستي، إجا على الزفتية: رجل بحاله، ما نعرف عنه شي كثير، وعاش مع بلبله، اللي بيحكوا انه كان معه من زمان يعني عشرة عمر. وصار يقعد قدام بيته، يشرب أرجيلته، والبلبل يغني، مرة بسرور إذا كان أبو عزيز فرحان، ومرة بحزن إذا كان زعلان، والناس يمروا مطروبين، يسلموا عليه. فسموها حارة البلبل. بعدين ما عاد طلع من بيته، لأن مصرياته خلصت، وما رضي ياخذ الإعاشة، لأنها ذل بعد ما كان عايش حياة عز، وكرامة،

بأرضه الواسعة، ومحاصيله الكثيرة. وراح يمنّي حاله:" اليوم بنرجع. لأ بكرا."

شوي شوي اعتزل الناس، كأنه فضل يسكت على جرحه من انه يخبر وجعه لحدا. وبدا يبربر لوحده، ويحكي مع حاله. ومن كم يوم لا عدت سمعت صوته، ولا صوت البلبل. فأجوا الشرطة، وخلعوا الباب. وما تشوفي هالشوفة يا مريم.

- شو يا أم مهران شوقتيني؟

- قولي أبو عزيز كان ميّت. بس البلبل ليش ما هرب ما بعرف، مع أنه كان فاتح له باب القفص، والشباك مفتوح. بس هالبلبل طالع من القفص، ونايم بين ايديه، ليموتوا سوا بعد ما عاشوا سوا....

اعتاد أبو عزيز أن يجلس على كرسي خيزران مهلهل، يوشك أن ينكسر، يرد التحية للجميع، فإذا مررت به، ولم ترفع يدك بالسلام عليه، يقول:" وعليكم السلام." مفترضاً أنك ألقيت التحية، ولم يسمعها، ثم يدعوك إلى رشفة قهوة مرة، فلا تستطيع الفكاك إلا بشربها من يده.

حين نزح إلى مدينة دمشق، كان أول شيء اشتراه، عدة القهوة بالكامل، فقد واظب كل صباح أن يعد ركوة قهوة مرة، ليشربها مع أم عزيز التي اختطفها الموت منه، على حين غرة، بعد ثلاث سنوات من النزوح.

❖

تغلق مريم الباب وراء أم مهران، ناظرة إلى حازم وتايه، يجلسان صامتين على المصطبة، فتدعوهما لشرب الميرمية. وما إن يدخلان غرفة فيها حصيرة، وطراحتان من الإسفنج حتى يبدو حازم تواقاً ليستمع إلى العزف الجميل، فيقول:" يمه خلي تايه يعلمني على الشبابة."

يرد عليه:" تكرم عيونك يا أستاذ حازم."

لكن أمه تراه، وهو يحاول فك ربطة حذائه، ولا يستطيع، فتطلب ذلك من تايه:" لو سمحت يا تايه."

ويحدق تايه في عينيه باستغراب:" بعدك ما بتعرف تفك ربطة صباطك؟"

- ولا بعرف أربطها.

يدخلان، ويجلسان مواجهةً، كل على طراحة، فيخرج تايه شبابته، ويأخذ في العزف الشجي بصوت منخفض، ثم يغني:

" هب الهوى ونسم الغربي

شميت أنا ريحة الغالي..."

بينما وقفت مريم، تستمع في حنين، مسترجعة تلك اللحظات الحميمية مع الدكتور عزمي....

يظهر مرتدياً، كعادته، ثيابه البيضاء الناصعة، مستعداً للخروج. بينما تجلس تحت الياسمينة، التي يتساقط بعض زهراتها على شعرها، فتبدو في جمال ساحر: صدر شامخ بإباء، عينان في خضرة الأشجار، وفم أسنانه من لؤلؤ خالص، وهي تبتسم له. إذ يراها على هذه الهيئة البديعة يمد يده، يطلبها للرقص. فتقوم، ويرقصان حول الياسمينة، التي راحت تتمايل مع النسمات، فبدت كأنها ترقص معهما.

تنتبه لإبريق الميرمية يغلي فوق وابور الكاز، فتنزله بسرعة محدثة نفسها: " **وقتها ما كان في موسيقا، ولا عزف شبابة، مع هيك كانت أوقاتنا حلوة. لأن الموسيقا بتطلع من جواتنا لما يكون الواحد مع اللي بيحبه.**"

حين تدخل باسمةً بالصينية، عليها ثلاث كؤوس، تقول: " الله عليك يا تايه رجعتني للأيام الحلوة مع الدكتور عزمي."

يقابلها بنظرات غائمة، يرى وجهها سهلاً من الحنطة، لوحته الشمس الحارقة في مزرعة أبي محروس، فلا يعرف ماذا يقول لها....

هل يخبرها عن حبه لبشرى؟ وتعاهدهما على الزواج بعد تقديمها امتحانات الشهادة الثانوية؟ وأنه أحضر محبس الخطبة، لكن حرب حزيران الملعونة أفشلت كل شيء. هل يقول: إنه أراد جمع قصائده في ديوان، لكنها الحرب أيضاً منعته من ذلك؟ لعله يتمنى البوح لها بكل ما يختلج في صدره، غير أنه لا يتذكر شيئاً من ماضيه. لذا يأخذ في العزف على شبابته بشجو، بينما تحدث ذاتها: " **بالتأكيد ورا هذا العزف قصة حزينة.**"

فتسأله:" ما صار لازم تخبرني قصتك؟"

يتوقف عن العزف قائلاً:" والله ما متذكر غير إني لما كان حدا يضايقني أحمل حالي، وأركض، ومطرح ما توصلني الطريق أقعد. وهاي أنا هون معكم."

وينتبه إليها، تنظر نحوه بمحبة، فيقول بعفوية:

كلانا يا هذي الحسناء

يهفو لحنان ووفاء

يحتاج ليد حانية

تنسيه هماً وشقاء...

ـ هذا انت شاعر، ومالنا عارفين يا تايه.

لا يرد بل يقول داخله:" **إنت القصيدة الأحلى بحياتي يا مريم.**"

ثم يقوم بسرعة، بعد شربه كأس الميرمية، لينصرف:" اسمحي لي بكرا عندك شغل، وبلا ما تعلقي بلسان أبو محروس."

❖

يدخل أبو مهيب، متسللاً على رؤوس أصابعه، إلى غرفة، فيها سرير خشبي، فوقه فرشة إسفنج، ويتمدد في استرخاء، لكن قبل أن يغمض عينيه تدخل زوجته:" إن شا الله ما تكون نمت مثل كل مرة!"

لا يرد، فتغلق الباب بالمفتاح، وتأخذ في خلع ثيابها الكثيرة. إذ يداعب النوم جفونه المتعبة يتوهم أنها جورية، تقف فوقه، في يدها السوط، أو كرباجها اللذيذ، كما تسميه، وهي تتلمس الآن طرفه الرفيع بنعومة أصابعها، ثم تأخذ بفك أزرار قميصها المفتوح عند صدرها الناصع البياض، في تؤدة وأناة.

فجأة تشير له أم مهيب بيدها المخضلة بالحناء، ليوسع لها مكاناً إلى جواره:" نيمني جنبك يا رجّال."

فيشدها إليه بقوة. تحاول نزع نفسها من بين يديه، حتى تكمل خلع ثيابها الداخلية، لا تقدر. فيعتليها بشبق جارف، وتتلوى تحته، متأوهة في تلذذ

عارم، ثم يسقط أخيراً على السرير منهداً، بينما يلوح السوط أمام وجهه المتصبب عرقاً بارداً. وتنزل أم مهيب عن السرير الخشبي في خفة، كأنها ريشة، تكاد تموت من اللذة، لتمسك يده الهاجعة على المخدة في هدوء، وسكينة، تغمرها بالقبل، قبل أن تعاود لبس ثيابها.

❖

/ أختلي بنفسي هارباً من الرفاق الجلفاء، لأفض رسالة جهاد، الذي يسمي سفره إلى الاتحاد السوفييتي ولادته الثانية، وقد جمعت رسائله تحت عنوان بريد موسكو:

- رفيقي الغالي:

الطائرة تحوم حول المطار استعداداً للهبوط، بينما الأفكار القلقة تحوم في ذهني، وتربك تفكيري، أنا الخارج من قمقم الزفتية إلى عالم أجهله، عالم كل ما فيه غريب إلا تعاليمه الاشتراكية بعدم استغلال الإنسان لأخيه الإنسان. لكن ماذا عن اللغة، وأسلوب حياة الناس هنا، وكيفية التعامل معهم؟ لست أدري.

يتابع في وجد كعادته كلما تحدث عن السينما التي يعشقها: " تلقاك صغيراً، أو كبيراً، تزرع فيك بسمة، أو دمعة. لكنها في النهاية تشحذ أمانيك، وتصقل شخصيتك بإنسانية مفعمة. فحين يخرج الضوء من آلة العرض السحرية، ليسقط على شاشة من القماش الأبيض يكون الخير، والجمال، الإلهام، والحب، باختصار تكون الحياة."

أكاد أكمل، وأنا أخاطبه، كأنه أمامي:" ويكون تبلل سروالك الداخلي يا جهاد، حين يكون الفيلم مشوقاً، فلا تستطيع الانقطاع عن مشاهدته للذهاب إلى تواليت السينما، لدرجة أنك فكرت بإحضار زجاجة فارغة لتبول فيها. هل تذكر؟"

أخيراً أقرر أن أمضي، في زيارة مفاجئة، إلى بيت صديقي عدنان، القاطن في الدحاديل، بحجة الدراسة معاً.

يتفاجأ بحضوري، وهو الذي دعاني مراراً، ولم ألب دعوته. نجلس في النوفوتيه التي افتتحها والده منذ مدة قصيرة، لنتحدث على راحتنا، كما

اقترحتُ، فيخبرني عن بنات حارته، زبوناته الدائمات، حسب تسميته، حيث شاهدت، بأم عيني، طريقته في التعامل المائع معهن، رأيت ذلك من خلال ثقب سري في غرفة القياس، وملعنته بل جرأته عليهن، مع أنه قصير، وسمين، أو كما نناديه في الصف "زمك" لا يلفت النظر. أخيراً قام إلى درج سفلي، غير ظاهر للعيان، ومغلق بإحكام، فتحه بالمفتاح، وأعارني كاتالوكاً، طلب مني عدم فتحه إلا في غرفتي، حين أكون وحدي.

يبهرني ما أراه على صفحاته،* ولا أستطيع ضبط نفسي، فأستمني عدة مرات، في تلك الليلة، حتى أنني بقيت صاحياً إلى أن طلع الصباح، فلم أقوَ على الذهاب إلى مدرستي، ولا العمل مساءً في معمل الصابون أبرشه، ثم أعبئه في أكياس نايلون زنة 1 كغ كعادتي كل ليلة خميس. جاءت والدتي، جلست عند بطني تماماً، فخشيت أن تشم رائحتي المقززة. تحسبني مريضاً، وهي تراني شاحباً مصفراً، أطمئنها: "لا. تعبان كتير."

ولا تسألني عن سبب التعب، وأنا نادم على فعلتي، أقرر أنها طيش مراهقة عابر، ولن أعيدها، بينما أفكر بحبيبتي السمراء نجاة، التي ستفتقدني، وتأتي بالتأكيد لزيارتي متسائلاً: "ماذا ستقول عني إن شاهدت كاتالوك الصور الفاضحة هذا معي؟"....

عادة نكون وحدنا اثنين فقط، دون أن يكون الشيطان ثالثنا، أحياناً تدفع علي الباب، لتندس في فراشي، وأنا أشخر كما تدعي، أو نفر إلى سطح بيتنا، نتملى النجوم، ونفسح للشوق سبيلاً، كي يهدأ قليلاً في قلبينا، تقول لي: "نم على صدري." فأغفو كطفل، يبحث عن حلمة، تنهرني: "خلي إيدك بعيدة، وبلا زعرنة."

فيا صدرها الدافئ: لو أسند إليك رأسي لمرة واحدة فقط، بعدها فليأتِ الطوفان.

قد قيل: صدور النساء مبكى الرجال. وأعلن بياني على رؤوس الأشهاد: "أحببتها وأحبها، وسوف أظل على العهد حتى نلتقي في جنة الخلد، أو في جهنم." /

❖

يتقدم أبو محروس نحو مريم، وإذ تطنشه غير عابئة بمجيئه، يلتفت باحثاً عن حازم، يراه يلعب بعيداً، فيمتطي حصانه الأسود، ويروح يلاحقه بعصاه ذات الرأس المدبب كالرمح، يلكزه بها قاصداً إزعاجه، كما يفعل مع أطفال الزفتية حين يحاولون قطف شيء من مزرعته، وهو يأمره، في قسوة متعمدة، بزعم أنه يلاعبه:" لا تتعب ماما لأنها متكبرة كثير. خلي بالك عليها من أبو مهيب. مفهوم؟"

حتى إذا بدأ حازم يبكي، تركض إليه، وتحضنه، فيقول لها أبو محروس:" هذا ابنك ما بدي شوفه بالمزرعة."

- طيب وين أتركه، وأنا بالشغل؟

- مشكلتك.

فجأة يعاود سؤالها:" فيكِ تشتغلي عندي بالفيلا، ويظل معك؟"

- وجورية؟

- هي وحدة بهيمة ما بتفهم. وانتِ رح تاخذي محلها؟"

ثم يردف:" لا تتسرعي بالرد، معك وقت."

ويمضي مبتعداً. بينما تمر من أمام المزرعة سيارة قديمة، تتجه جنوباً، ترى مريم أم عايد على مقعدها الخلفي فتتساءل في سرها:" **لوين آخذ أمك يا عايد؟"**

❖

تنطلق السيارة مسرعة فتسأل أم عايد:" وكيف وافقوا نزور القنيطرة؟"

- بجهود الصليب الأحمر يمه. لكن معنا نص ساعة، بعدها لازم نرجع.

- لكان خلينا أول شي نزور قبر أبوك. ونسلم عليه.

- مستحيل يمه يخلونا نفوت على مقبرة الشهدا. واصحي تقولي أبوي شهيد.

وإذ تلاحظ أن السائق لا يتحدث، لدرجة أنه لم ينبس بكلمة حتى الآن، تسأل:" هو مين الشوفير معنا؟"

- محسوبك أبو حسن.

وتعقب في مرح:" هياك بتحكي، يعني مش أخرس يا أبو حسن."

ـ أمريني خالتي أم عايد.

ـ مطولين حتى نصل يا بنيي؟

ـ رمية حجر ونكون وصلنا، وعقبال ما نرجع على طول.

ـ الله يسمع منك يا أبو حسن، بس الكلام وحده ما يكفي.

فجأة تتوقف السيارة، فيترجل منها عايد، ويسرع يفتح الباب الخلفي، كي تنزل أمه التي تسأله:" إحنا وين؟"

ـ بالساحة يمه.

ـ لعاد خذني على دارنا.

ـ مستحيل. ما سمحوا لنا إلا لهون.

وينظر في مرارة باتجاه أبي حسن الذي يبدو مرتبكاً هو الآخر. بينما تتنسم الهواء ملء صدرها، وهي تقول:" لما أشم ريحة القنيطرة روحي بترجع لي."

تُسر بادئ الأمر، فيلوح طيف ابتسامة على وجهها، ويفرح عايد. لكنها فجأة تقول:" بس الهوا مش هوا القنيطرة يا عايد."

ـ يمكن لأن الإسرائيليين محتلينها اختلف عليكِ هواها.

وتمد يدها، لتحضر عصاها من داخل السيارة، طالبة من أبي حسن مساعدتها:" يا خالتي، وديني على مطرح، فيه تراب."

تسير متعثرة رغم أنه يأخذ بيدها بكل تمكن، وإذ تحس بطراوة الأرض تحت قدميها تستند على عصاها، لتأخذ حفنة، تدعكها بين أصابعها، ثم تشمها:

ـ ولا هذا التراب تراب القنيطرة.

وفي صوت خفيض تُسِرُّ لنفسها:" **ولا شامة ريحتك فيه يا أبو عايد**."

ثم ترفع صوتها في غصة خانقة:" الله يرضى عليك: رجعني الزفتية يا أبو حسن."

عندما يركبون السيارة يقول عايد محتداً: " يعني انتِ تكذبيني يمه؟"

لا تجيب، لكن عندما يكررها: " أي عم تكذبيني." ترد عليه في حزم: " لازم تعرف يا عايد أنو الإسرائيليين اللي احتلوا القنيطرة بيقدروا يساووا فيها اللي بيريدوه، ويخلوا عاليها واطيها. بس هواها وترابها ما بيقدروا يغيروهم."

وفي جو من الكرب والوجوم، ينطلقون عائدين في صمت قاهر، بينما أبو حسن يدخن في اضطراب، نافثاً دخان لفافته في الهواء بقهر سافر، إلى أن تمتد يده إلى مذياع سيارته، يشغله بتلقائية، فيصدح سيد مكاوي بصوته المجلجل: " الأرض بتتكلم عربي..."

يرددها أبو حسن في داخله بانذهال: " **الأرض بتتكلم عربي فعلاً**." مع مرور السيارة أمام مزرعة أبي محروس من جديد

❖

تقول سعدية فيما مريم منهمكة في تعشيب الأرض مع مجموعة العاملات:

ـ سمعتِ خيتي؟ أبو هايل مرجع صرة ذهب لأم وجدي من بيتها بالجولان.

ـ كيف قدر؟

ـ بسيطة: أم وجدي عطته المفتاح، وخبرته عن مطرح الصرة. فراح على بيتها، فتح الباب، وجابها.

تسمع مريم ذلك، فتسترجع ما يقال عن أم الجاج، التي خبأت مصاغها الذهبي في صندوق صغير داخل القن: " **لو يقدر يرجع الذهبات لهالمعثرة**."

وفيما هي شاردة تنظر باتجاه الفيلا، يظهر أبو محروس على الشرفة، فترفع وجهها نحو السماء، وتدعو عليه في سرها: " **حرمتني أجيب معي حازم الله يحرمك الجنة**."

فجأة تحدق بإمعان صوب الأشجار المحيطة بالفيلا، بعدما استشعرت حركة غريبة هناك، تشاهد أبا مهيب، يلتطي وسطها، في يده بارودة. لكنه يختفي ما إن يحس بأن جورية خارجة من الفيلا.

إذ تلمحها العاملات قادمة، في يدها سوطها الجلدي، يتداعين للعمل بنشاط، بينما تتقدم مشيرة إلى مريم في ميوعة:" البيك طالبك.. على انفراد."

- شو بدو مني؟

- اطلعي لعنده يا شاطرة، وهو يقول لك.

وتمشي مريم تستعجلها جورية، التي تتصنع تركها، تصعد درجات الفيلا وحدها، ثم تتبعها بخفة، دون أن يراها أحد. بينما يتعالى همس العاملات في غمز ولمز.

❖

يقضم أبو محروس تفاحة حمراء بشراهة كالمسعور، فيبدو سائلها الحليبي حول فمه، وهو ينظر إلى مريم التي وصلت للتو:" بشرفي انتو أحلى ست بالديرة كلها."

يردف، بينما تراقبه جورية من خلال فتحة الباب، دون أن يراها:" اتفقنا تشتغلي بالفيلا."

تهز مريم رأسها بالنفي في نظرة تحد:" ما اتفقنا على شي يا بيك."

فينتفض غاضباً:" على شو شايفة حالك فهميني؟"

يأخذ عصاه المدببة، يضرب بها الطاولة، فيكسر صحن الفاكهة، وتسقط التفاحات، والمشمشات، والدراقن، على الأرض. ثم يقول في عنجهية:" انتبهي أنا تزوجت بنت أصغر مني بأربعين سنة، وأحلى منك بمئة مرة."

وتدحض جورية، المختبئة وراء الباب في حيطة وحذر، ما يقول، لكن دون أن يسمعها:" تزوجتها؟ ولا أخذتها غصب؟ بعد ما دينت أهلها مصاري، وما قدروا يوفوك؟"

يعاود في غرور أكبر:" مع أنو جدي البيك الكبير ما ترك بنت من شره، قصدي من خيره، لأنه كان يتحسن على البنات الفقرا، وما خلى وحدة تعتب عليه."

ترد عليه جورية من جديد: " الله لا يرحمه، كان يشغل البنات الصغار بالمزرعة، ويعتدي عليهن."

يأخذ موزة مما بقي على الطاولة، يقشرها في أناة، ثم يقدمها لمريم، وهو يغمزها متحدثاً بصوت منخفض: " شايفة هي جورية مستعدة تبوس صباطي لتظل بالفيلا، بس أنا ما بدي ياها."

وإذ يحس بوجودها، مع سقوط فازة عن الكوميدينا، الموضوعة بالقرب من الباب المختبئة خلفه، يناديها بانزعاج كعادته: " ولك جورية. ما قلت لك: خلّي بالك من البنات بالمزرعة؟"

- أمرك يا بيك.

- وقفي يا بهيمة: الحصان الأسود بالبايكة، روحي نظفيه، وهاتيه.

عندما يسمع صوت نزولها السريع على درج الفيلا، يخرج حمالة المفاتيح، ويرميها، تحت قدمي مريم: " وسيارتي تحت تصرفك، فشو قلتِ؟"

- قلت: أظل أشتغل بالمزرعة.

عندئذ يتقدم منها ليحتضنها محاولاً أن يسقطها أرضاً، فتتملص منه، شاهرة في وجهه سكيناً صغيرة، تستخدمها في قطف الخضروات، لكنه يستولي عليها بسهولة. وإذ يتقدم بشراسة أكثر محاولاً الإمساك بها من جديد، بعدما جعل الباب خلفه، تلتف من حوله لتأخذ فأسها الذي ركنته عند المدخل، وتلوح به في وجهه بشراسة، لا يجهلها، مؤكدة عزمها الصارم على ضربه: " قرِّب، وما تلوم إلا نفسك."

وإذ رأى في عينيها التحفز المستعد للانقضاض هادنها: " طيب نتفاهم."

- بعِّد من طريقي أحسن لك.

لذا يفسح لها المجال. فتخرج مسرعة، تشهر فأسها في وجه جورية، التي تخلي لها الطريق في ترحاب، بينما تصعد في خفة وبطء، فترى عن بعد أبا محروس، يجلس متهالكاً على كرسيه، ومرتبكاً كمن خسر جولة، يضرب قبضة يمينه بكف شماله، وقد قطّب حاجبيه، واكفهر وجهه. إذ يسمع وقع خطاها تقترب ينادي بصوت ضعيف: " وينك يا ست جورية؟"

- أنا تحت أمرك يا بيك.

- راحت مريم؟

- رجعت للمزرعة.

- في ستين جهنم. ساعديني لأقوم.

يقف على قدميه، فتبتعد عنه، مستشعرة ما حصل، لكنه يعاود مناداتها:" وين رحتِ يا زفت. تعالي اسنديني. ما لك شايفتيني تعبان؟"

❖

وإذ تعاود مريم العمل تشاهد تايهاً عند بوابة المزرعة، فتسرع إليه تسأله:" كيف لاحقني لهون؟"

- خفت عليك من أبو محروس.

- وحازم؟

- تركته مع نجمة يلعب معها.

فتهدأ، لتقول في ثقة:" لا تخَف عليّ، أنا قد حالي يا تايه."

فينظر باتجاه الفيلا قائلاً:" لك يوم يا بيك الكلب."

ثم يركض باتجاه الزفتية، مسرعاً كعادته يسابق الريح.

(4) أيها اليوم السعيد تعال

من الصعب أن يتحدث النازح عن أرضه دون تذكر الماضي، وأن يفكر بالمستقبل دون أرضه التي سُلبت منه...

باكراً أفاق الملازم ناجي في نشاط وحيوية متوثبة، ليقوم بتمارينه اليومية، وهو يرتدي سترته الرياضية. وكان عليه أن يذهب، كعادته كلَ يوم استراحة، إلى وسط مدينة دمشق لإحضار بعض الكتب الأدبية، وقد يحضر فيلم سينما، تناهى إلى سمعه أنه ممتع وجميل.

ألمحه من بعيد، أرى في عينيه تألّقاً حالماً، وهو يشرب المتة على سطح بيت عمته، مصغياً إلى فريد الأطرش يغني:" ساعة بقرب الحبيب"....

كانت عبير تشطف مدخل بيتها الحجري حيث تعرش عليه الخضرة من الخارج، فيبدو مثل حديقة معشوشبة، وقد تدلت النباتات الخضراء، تتوسطها بعض الورود على جدرانه العالية، فلم تترك إلا متسعاً لدخول الشمس عبر النوافذ فحسب. يتوقف متأملاً ذلك المنظر البديع. تلمحه، فيسألها على الفور:" كيفك؟"

- أعشقك يا روح الروح.

وإذ بدأت السماء تمطر بغزارة - كعادتها كلما جاء لزيارتها - أخذت بيده إلى السطح، وهناك راحت ترقص حافية القدمين، حتى ترطبت ثيابها. ثم شدته إلى صدرها المبلل، وأخذا يرقصان معاً، فراح يعطس باستمرار.

لحظتئذ احتضنته، ثم ذوبت فمها في فمه قبلاتٍ محمومةً، حتى كادت تخنقه، فلما لم يعد يعطس، قالت:" هي أحسن وصفة ضد الرشح يا عمري."

فجأة يصحو من شروده على صوت عال، يكرر مناداته:" ملازم ناجي".

نظر من أعلى سطح بيت عمته، فإذا أبو يوسف عميشة:" الراديو معطل، وعاوز أسمع أخبار الحرب. الله يخلي لك بيِّك، صلّح لي ياه يا حضرة الملازم."

كانت حرب الاستنزاف، على جبهة سيناء، قد بدأت يوم الثامن من شهر آذار/ مارس عام 69. وفي عام 70 وافق الاتحاد السوفييتي على طلب الرئيس جمال عبد الناصر بتغطية العمق المصري بتشكيلات دفاع جوي سوفييتية لتحييد التفوق الجوي الإسرائيلي، الذي تضمنه الولايات المتحدة الأمريكية. لذلك طرحت مبادرة وزير خارجيتها وليم روجرز، لتتوقف على إثرها حرب الاستنزاف، حيث تمكن الجيش المصري، قبل عدة ساعات من سريان وقف إطلاق النار، من نقل منظومة الصواريخ السوفييتية" سام" المضادة للطائرات، إلى جبهة قناة السويس، وإقامة ما سمي بجدار الصواريخ، الذي كان له الدور الرئيس في نجاح عملية العبور عام 73 . أما على الجبهة السورية فقد تصاعدت العمليات العسكرية منذ شهر آذار عام 1970 إذ نُفذت عدة غارات على المواقع الإسرائيلية، كما نُصبت الكمائن لدوريات العدو في الحد الأمامي للجولان، حيث دُمرت في ليلة واحدة 60 منعة معادية، فرد الطيران الإسرائيلي بقصف مواقعنا المتقدمة، ومعسكرات تدريب القطيفة والنبك، ومدرسة المدفعية في قطنا.

وقد تخللت تلك العمليات معارك جوية، واشتباكات بالدبابات، وعمليات تسلل حوامات معادية، وقصف منشآت اقتصادية حتى منتصف كانون الثاني عام 73.

ويبتسم الملازم ناجي في مودة، وهو يدعو أبا يوسف للدخول:" أي تفضل أبو يوسف شاركني كاسة متة. وهات الراديو لشوف."

❖

مجموعة أطفال في ثياب رثة، يهرعون إلى دكان أبي مهيب، ثم يخرجون فرحين بما اشتروه. وإذ يقتربون من أم مهران التي تحمل برميلاً

كبيراً على رأسها، يسلمون عليها بصوت واحد: " مرحبا خالتي أم مهران."

ـ أهلين يا أولادي.

يمرون برجال، يدخنون في سأم وملل. برودة الخريف تقشعر لها أبدانهم، رؤوس محنية، وجوه خالية إلا من تعبير البؤس، والحنين الممض، كأنهم كتل من اللحم والعظم فحسب، حتى إنهم لم يعودوا يعبؤون بتاريخ، أو توقيت كأنما توقفت حياتهم مع خروجهم من بيوتهم وأراضيهم هناك في الجولان، أو هي السنوات يوم واحد طويل، لا شمس فيه، ولا قمر.

يتحدث عايد إلى جاره: كأن الزمان، وانت بعيد عن أرضك، غير الزمان، وانت فيها!

ـ كيف؟

ـ لأن الزمان، وإنت بعيد عن أرضك، مجرد وقت، تقضيه لحد ما ترجع لها، لهيك تظل عايش بالزمان اللي كنت فيه هُناك: في بيتك بين أهلك، وأصحابك، لأنه هو الأصل. والوقت اللي انت فيه هون، مهما طال، بيصير انتظار بانتظار.

ويحتج جاره على واقع الحال بالقول:" بدي أعرف ليش الدنيا بترفع الناس، ونحنا على حالنا برغل، أو بطاطا، كل يوم؟"

فيرد عليه عايد:" حبيبي مش كل البطاطا بطاطا: الفقير بياكلها مسلوقة، أو بالزيت، والغني بيحط عليها كيلوين لحمة."

فجأة تهب زوبعة قوية، تقتلعهم، فيمضون جماعات، وفرادى صوب بيوتهم التي تؤويهم، يراقبون، خلال المسير، مواقع أقدامهم خشية الانزلاق على الوحل، الذي يملأ زواريب الزفتية الضيقة. لاسيما أيام تزمجر الرعود زمجرة هادرة، وتبرق السماء في وهج مخيف. ها هم يجلسون ناظرين في حذر إلى جدران هذه البيوت اللبنية، التي تتهزهز مع كل رعدة، فيخشون سقوط الأسقف، التي فرشوا أسطحها بأغصان مسوسة، فوق رؤوس أطفالهم ونسائهم، متأملين هذه الأبواب الخشبية المهترئة، وقد احتضنتهم، مقاومة الظروف القاسية من برد، وحر، مطر، وعواصف، منتظرين العقاب على ذنب لم يقترفوه. ولعل بعضهم صدق ذلك، فصاروا يستجدون الدعاء من

الشيخ سليم مؤذن الجامع ـ الذي يمر بهم حتى دون أن يرمي السلام عادة ـ كي تتنزل رحمة الله عليهم، لا سيما أيام الرعد والبرق.

ورغم أن ساحة الزفتية أمام" خان أبي عليوي" تصبح مكاناً فسيحاً لزبل البقر، ورائحته الواخزة بعد سوق البيع كل يوم جمعة، لم يقبل أحد منهم شراء بيت في منطقة أخرى، مع أن البيوت كانت رخيصة، إذ يقول لسان حالهم في صمت كظيم:" **إنه عيش مؤقت.. بانتظار الرجوع إلى بيوتنا.. نتحمله مهما كان.**"

لذلك تجدهم يسخرون بمرارة إذا أراد أحدهم ترميم بيته:" معقول متعب حالك يا رجل، ما نحنا كم يوم، وراجعين."

وربما عاتبوه بقسوة، إذا أراد شراء بيت:" هُوْ كبِّر عقلك يا زلمة: ما بيوتنا منتظريتنا هُناك!"

يحكي يوسف عميشة قصته مع والده:" من أكم يوم دفعت عربون دار، واسعة ورخيصة، بس لما عرف الختيار ـ يقصد والده طبعاً ـ زعل مني، وراح يعاتبني:

ـ لمين بدك تخلي هالدار إذا رجعنا.

فقمت فوراً، رحت فسخت العقد، وخسرت العربون يا جماعة."

وعليه فقد بقيت ـ حتى السبعينيات ـ مساكنهم في الزفتية على حالها البائس، بيوتاً لبنية كالخشش، ورفض والدي من جهته خيار الانتقال من الزفتية إلى القزاز، أو المشتل، حيث يسكن أقرباؤنا، وأبناء قريتنا، مفضلاً عدم ترك جيرانه الذين أصبحنا وإياهم مثل الأهل، بل إنهم وعدونا بأن نبقى جيراناً بعد أن يعودوا إلى الجولان.

❖

/ لقد كانت أيام العيد، الثلاثة، أو الأربعة، من أصعب أيامنا، التي نشفق فيها على أنفسنا، ففي الزفتية نحن فقراء على بعضنا، لكن خلال العيد الصغير/ أو الكبير/ تتحول ساحة الجزماتية إلى سوق واسعة: فيها الأراجيح، والقليبات، والمآكل الشهية المتنوعة، وألعاب كثيرة أخرى، بل إن بعض المحلات تتحول إلى غرف عرض لأجزاء من أفلام حربية، أو مقاطع من

أفلام اسماعيل ياسين الفكاهية. عندئذ نلتقي مع أبناء الحقلة، والجزماتية، وحتى حي الميدان، والصحابة، يلبسون أحلى الثياب الجديدة، بينما نبقى نحن كعادتنا في ثيابنا الرثة القديمة، التي لا نملك غيرها. هم يحتفظون بالنقود الكثيرة في جيوبهم المنتفخة، ليصرفوها في تناول المآكل اللذيذة، وممارسة الألعاب المثيرة، من ركوب الأراجيح والقليبات، واستئجار الدراجات، ودخول السينما طوال الوقت، بينما نحن، بعد وقت قصير جداً، نصبح بلا نقود، وتصير جيوبنا خاوية، تعلن إفلاسها المزري. هم يشترون ما يشتهون، يأكلون ويمرحون، كما يحلو لهم، ونقف نحن في وجوه حزينة، نتحسر على حالنا. يقترح قادر: "يا شباب تعالوا نجتمع على واحد منهم، ونأخذ مصاريه بالقوة."

نقبل الفكرة بادئ ذي بدء، لكن ما إن نستعد لتنفيذها حتى نجد أنفسنا قلة وسط جموعهم الكبيرة. لذا ننظر إلى السماء في عتب مرير: ***"حتى العيد يصبح للأغنياء، والفقراء يظلون بلا عيد يا رب. فلماذا لا توزعين الفرح بعدل بين الناس أيتها السماء؟"***

وتجول داخلنا أسئلة كثيرة أخرى، لا نقولها خوفاً من التجديف./

❖

في الزفتية ينكسر الضياء في العيون، تذبل البسمة على الشفاه الظمأى لمياه الجولان المنعشة، وصباحاته الجميلة: شمس دافئة، هواء عليل، ينابيع ثرة، وسهول خصبة، كأنها فردوس النعيم. هناك بنوا بيوتهم، رابطين أعصابهم مع عصب الأرض، يزرعونها، ويسقونها، كي تهدر الحياة عميقاً في الجذور، بعدما ضخوا نسغ عرقهم في أوردتها. ها هم يتهجدون أسماء قراهم، ومدنهم مع كل صلاة، آملين الرجوع، مطلعَ كل صباح. وثمة فسحة للأمل، فما فتئوا يحلمون بالعودة إلى بيوتهم، التي يحتفظون بمفاتيحها قريباً من نبض القلب. بل قلما نامت ألسنة النساء قبل أن تمهر مساءاتها الكئيبة بحديث طويل عن قراهن، تلك التي تنتظرهن على أحر من الجمر، وينتظرن العودة إليها بفارغ الشوق، ثم يطبعن، مثل الوشم، في ذاكرة أطفالهن، وهم يلتطون بأثوابهن اتقاء البرد القارس، الأمانة كالدين

المستحق:" **تلك الأرض لنا.. لا تنسوها**." فيردد الأطفال، مثل النشيد، تلك الوصية الغالية، وهم يذهبون إلى مدارسهم، موقظين الصباح بأصواتهم الطرية:

" بلادي اطلي قليلاً فإننا راجعون

في الأمطار راجعون

في الإعصار راجعون..."

ذاكرة تقوى مع الزمن، أو ربما ضده كي لا ننسى. فالبقعة التي ولدنا فيها ليست قطعة الأرض، والبيوت، الأشجار، والأنهار، الأزقة، والحارات فحسب. إنها كل ذلك مضاف إليه حضورها داخلنا في حنين يصل إلى درجة التوحد معها، تحقيقاً للشرط الإنساني في الوجود: لا تكتمل الحياة دون وطن. وأزعم أن كل شيء يمضي في طريقه نحو الزوال إلا الذاكرة البشرية المتجددة باطراد، فهي تتوالد بين الناس كما الأجنة في الأرحام....

يمتد إقليم الجولان حتى أعماق شواطئ بحيرة طبريا وواديها، وقد سكنته القبائل العربية منذ فترات سحيقة في التاريخ، وأقامت فيه مراكز تجارية، وإمارات واسعة، بينما لم يعش فيه اليهود قط....

مر به القديس بولس، ويحكي الإنجيل أن السيد المسيح قال له:" اذهب إلى دمشق، وهناك يقال لك ماذا تفعل." وحدثت معجزة الخبز والسمك في بلدة البطيحة على الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا، فأطعم السيد خمسة آلاف جائع من خمسة أرغفة وسمكتين. وفي بلدة الكرسي عالج الرجلَ الأعمى فأبصر، وشفى المرأةَ المصابة بمرض عضال في بلدة بانياس. كما انبثقت في الحمة بركة خرج منها الماء العذب بجوار المياه الحارة، ليروي القديس بولس ظمأه. وثمة اسطورة تروى عن فتاة سقطت من رأس قمة جبل الشيخ، ومازال صوتها مسموعاً حتى الآن في جروف الصخور الشاهقة المطلة على نبع بانياس.

ولا يوجد في أي مصدر من مصادر التاريخ ما يشير، ولو بصورة مقتضبة، أنه كان للجولان تاريخ مستقل عن سورية، فمع نهاية الفترة البيزنطية أسست قبيلة عربية مهاجرة من اليمن إمارة باسم الغساسنة، عاصمتها الجابية. وقد عُرفت الجابية خلال فترة الخلافة العربية بكونها

مركزاً للجند، وفيها نزل الخليفة عمر بن الخطاب عندما زار بلاد الشام. ويبدو أن عاصمة الغساسنة هذه كانت شهيرة لدرجة أن سمي أحد أبواب دمشق باسم باب الجابية.

لقد كان إقليم الجولان، قبل عدوان حزيران 67، عامراً بالحياة والنشاط، إذ بلغ عدد سكانه أكثر من 147 ألف نسمة. وقد تم رفع المنطقة إدارياً إلى مستوى محافظة عام 65 مما أدى إلى إنعاشها، حيث يحتل إقليم الجولان بين الأقاليم السورية المرتبة الأولى في خصوبة أراضيه، وتنوع محاصيله نتيجة تعدد تضاريسه الطبيعية ما بين جبال شامخة كجبل الشيخ وهضبات متوسطة كتل الفخار، وأبو الندى، وسهول مترامية كسهل الرقاد، والبطيحة، إضافة إلى المناطق المنخفضة مثل منطقة الحمة. وتتحدث الوثائق أن أكثر من 600 مقاتل سوري استشهدوا دفاعاً عن ثراه الغالي عام 67.

❖

كل صباح تصيح الدجاجات:" تعالي خذي البيض من تحتنا يمه."

وتكون أم الجاج ساهمة، فتنبهها ابنتها الصغرى في سرور:" الجاجات بينادن عليكِ!"

-سامعتهن يا حبيبتي.

لذلك تمضي نحوهن، وهي تغني بصوتها الحنون:

يا بنياتي يا جاجاتي

انتن حليتن حياتي...

ما إن تفتح باب القن حتى يلتففن حولها، يوقوقن في ترحاب حار. فتمد يدها، تعثر على صحن الماء فارغاً، تزيحه جانباً، وتُخرج بضع بيضات، تناولها لابنتها الصغرى، التي ترافقها كظلها طوال الوقت:" حبيبتي خذيهن لجارتنا أم ديبة: مسكينة فقيرة."

-حاضر يمه.

ثم تنظر حولها إلى المرج الأخضر، وتبتسم إذ ترى دجاجاتها السبع

يتشمسن هانئات آمنات مع صيصانهن الخمسة، بينما ابتعد الديك الأسود، كعادته ملاحقاً دجاجات الجيران، وقد قذف بصحن الماء الفارغ بعيداً.

وتستيقظ أم الجاج من نومها مذعورة، لتمضي مباشرة، تحضر الصحن الفارغ، وتملؤه ماء، كي تضعه أمام القن، الذي بنته إلى جوار خشتها في الزفتية، بعدما فتحت بابه مشرعاً، ثم تروح تنثر لهن الحب، ليلتقطنه من الأرض، كأنها تراهن أمامها. فإذا سألتها ابنتها الكبرى في استنكار:" لمين بتنثري الحب يمه؟"

تجيب في سرور:" ما أنا رجعت على القنيطرة، وجبت الجاجات."

فتوبخها كعادتها:" حاجة قلة عقل."

بينما تتعاطف ابنتاها الصغيرتان معها، فحين تسألهما:" انتن سامعات الجاجات؟"

تردان بصوت واحد:" إي يمه. عم يوقوقن."

ـ والصيصان؟

ـ عم يصوصن يمه.

❖

يأخذ محيميد ركنه المعتاد إلى جوار عربته الخشبية، بعدما رصف فوقها كوم بطاطا، وكوم بندورة، وثالث كوسا، بينما مهران يرقبه عن بعد، حتى إذا ما أتى شخص، يرتدي حطة وعقالاً، يُسقط عن قصد كيس البطاطا عن ميزانه، لتتناثر الحبات على الأرض. وبينما هو يلمها في تؤدة، ويعيدها إلى كيس الورق، يرسل نظرة إلى الفدائي مهران، الذي يهز رأسه، كأنه يرد:" عُلم."

بعد دقائق من ذهاب ذلك الشخص يتقدم الفدائي مهران قائلاً:" عرفته. لكن شو خلاك تشك فيه؟"

ـ قبل كم يوم، لمحته نزل على الجورة، بعدما عتمت الدنيا. من وقتها لعب الفار بعبي. ليلتها انتظرته، ولحتى ما يشوفني تخبيت بقلب العرباية لحد ما طلع، مع أذان الفجر. و...

يقاطعه:" مبين عليك صاحي، ونحنا مفتكرينك سهيان يا محيميد."

ـ مقبولة منك يا فدائي مهران.

❖

صحن الجامع، وفيه بحرة الوضوء مخمسة الأضلاع، تجتمع حولها مجموعة حمامات ملونة، يلتقطن حباً، ينثره تايه الذي يسأل حازماً الواقف إلى جواره:" مبارح تركتك تلعب مع نجمة قدام بيتها، رجعت لقيتك لحالك على المصطبة، وين راحت؟"

ـ إجا الأستاذ عامر أستاذ الرسم يحكي معها، فسكَّرت على حالها الباب.

ثم يشير حازم إلى حمامة بيضاء جميلة، كأنه يريدها، فيومي له تايه أن التقطها. يمضي صوبها محاولاً إمساكها بكل السبل، لكنها تطير بعيداً، لذلك يعود حزيناً، فيبتسم له تايه مشجعاً:" ولا يهمك."

يهدل مثل حمامة، فتتوقف على كتفه الأيسر، يمسد على رأسها قليلاً، ثم يعطيها له، فيمسكها حازم لبعض الوقت. بعد ذلك يطيِّرها، لتنضم إلى سرب الحمامات، تدور معهن. بينما يلتف حول نفسه دائراً كاللولب، يتابعها وسطهن، فلا تغيب عن ناظريه.

❖

ويتابع الفدائي مهران الشخص الذي يرتدي حطة وعقالاً عن كثب، حتى إذا ما مضى باتجاه البستان المهجور، وهو يتلفت خلفه، خشية أن يكون أحد ما في إثره، لحقه بكل حنكة، إلى أن توغل مجتازاً الأسلاك الشائكة، حتى وصل إلى موقع عسكري، وسط الأشجار الكثيفة، راح يرسم تفصيلاته بدقة.

❖

تدخل مريم غرفتها، ترتدي ثياب البيت بسرعة، وبينما هي تمسح مرآة خزانتها القديمة، تعاين جسدها الذابل:" **صرت كأني خشبة!**"

ثم تنتبه إلى التجاعيد على وجهها، الذي اسمر كثيراً:" **وسودا كمان!**"

وإذ تلمح صورة زوجها الدكتور عزمي، التي صورتها له عندما اصطنع حركة جميلة أعجبتها، إذ امتشق طوله الفارع، وأرخى رأسه على كف يده اليمنى في ابتسامة حالمة، حتى إذا ما أحضرها من التحميض، أخذتها منه بإصرار:" هي الصورة حلوة كثير، لهيك رح حطها هون."

علقتها على مرآة خزانتها هناك في مدينة القنيطرة، وهي تكمل:" لحتى تظل قدام عيوني طول الوقت."

يرد عليها في محبة:" يخلي لي عيونك الحلوين."

تشعر بأنه حاضر معها رغم الغياب المر، فتسأله في غصة حارقة:" ايمتى رح ترجع لي يا دكتور؟"

فيهز رأسه في ابتسامة تفاؤل واثق، ويمتشق طوله واقفاً كشجرة حور، ثم يرخي رأسه على كفه الأيمن، لينظر إليها، كما في الصورة تماماً، فتضع ثيابه على سريرها المشتاق: تأخذ أولاً مريوله الأبيض المكوي باعتناء، تفرده، ثم تضع فوقه القميص، فالبنطال العسكري الذي تتلمسه بكلتا يديها، كأنها تخلصه من أي تجعيدة. تزرر المريول، ثم ترتمي عليه، كما لو أنها ترتمي على جسد زوجها في اشتياق جارف، ولهفة عارمة، بعد ذلك ترتخي متهالكة في بحة عميقة كالشهقة:" مشتاقة لك يا عزمي كثير."

لحظات، ويشيع في الزفتية عزف تايه الحزين على شبابته، مع إسدال المساء لثوبه الرمادي الباهت عليها.

❖

تنظر حاكمة أم الشامة إلى سور بيتها الواطئ، ترى أبا مهيب يتلصص عليها، فتتبسم له:" لاه يا أخو الحفيانة: عم تبصبص عليِّ؟"

يغمزها:" أنا قصدي أتمسى بهالوجه الحلو. زوجك هون؟"

- قصدك: الحمار تبعي؟ لا تخاف. راح على شغله من الصبح، وما بيرجع لبكرا آخرالليل.

وتكمل في غنج:" تفضل عيوني، بتعرف مالك غريب، يا... أبو مهيب."

تقولها في دلع زائد، وغنج. فيدخل، محملاً بأكياس الورق الممتلئة بالفواكه، وهو يحدق إليها في شلحتها النايلون، بعدما فردت شعرها الأشقر

على طوله. بينما تركت الباب موارباً، فلم تغلقه بالكامل، وقد رأتني أرقب ما يحدث من نافذتي المطلة على الطريق.

/ بدأ جمالها يستفزني طوال الوقت، لا سيما هذه الشامة الفاتنة على خدها الأيمن، قرب فتحة فمها الصغير، إذ ذكرتني بناظم الغزالي وهو يغني:

" لها خال، على صفحات خد

كنقطة عنبر في صحن مرمر

وألحاظ كأسياف تنادي على

عاصي الهوى: الله أكبر.."

وأشعر أنني عاصي الهوى المقصود. لكن ماذا أفعل؟ ولو شاهدني أبي أنظر إلى بيتها ــ يجاور بيتنا من ناحية اليمين ــ لأقام قيامتي، ومشى بجنازتي، كما يقال.

يدفعني الفضول لمعرفتها أكثر، وهي المطرودة من حضن عائلتها إلى بيت زوجها هذا، بسبب جنين شب في رحمها دون رباط شرعي، مع أنهم أجبروها ــ بعد ولادته بفترة وجيزة ــ على رميه في إحدى جور المدينة للصرف الصحي.

أنظر من فتحة الباب الموارب، أراها تغمزني، ثم تشير لي مع ابتسامة خفيفة: "تعال." فأنزل مسرعاً، أبحث عن أبي مهيب، تطمئنني: "طردته كرمى لك."

تتأبط ذراعي، فأقول لها: "انتو حلوة كثير اليوم."

ـ أنا دايماً حلوة. بس ما في حظ.

أقدم لها علبة تبغ من النوع الفاخر، أهدانيها صديقي عدنان القاطن في الدحاديل، فتُخرج منها لفافة، ترطبها بلسانها، الذي يبدو لي أصفر من كثرة التدخين. وتصمت في حرقة، على غير عادتها، إذ تراني أعاين لسانها. تقدم لي لفافة، أرفضها بإصرار، فتسألني: "عندك صاحبة؟"

أهز رأسي بالنفي.

ـ ونجاة؟

أصمت، فلا أجيب.

- ولا بتشرب؟

- لا.

فتقول ساخرة: " برافو رح تموت وصحتك عال العال."

فجأة أسمع باب بيتنا يُفتح من خلال صريره المزعج، ويتناهى إلى أذني سعال أبي مجلجلاً، كعادته كلما دخل البيت، فأصحو مرعوباً، أفتش، في غرفتي عن حاكمة. لا أجدها. لذا أعاود الاستناد إلى حافة نافذتي المطلة على الطريق، بينما نسمات الهواء عليلة، تغري بالنوم./

❖

يدخل محيميد في بطن عربته، رغم البرد القارس، والمطر الغزير، لينام فيها ثلاث ليال. في الرابعة يخبر الفدائي مهران: " نزل صاحبنا على الجورة، واختفى."

- إذاً بوجهك على المخفر.

يتلكأ محيميد، وهو يتلمس على رجله اليمنى، التي يبقيها ممدودة طوال القت كأنه يتفاجأ بما يؤمر به. ثم يوثق رباط ساقه الخشبية التي ركبها بدل ساقه التي أكلها لغم انفجر به، زرعه المحتلون الصهاينة على الطريق إلى أرضه المحاذية لفلسطين هناك في الجولان.

مع ذلك ركض محيميد بأقصى سرعته إلى مخفر الشرطة، الكائن في منطقة المجتهد. بينما ظل الفدائي مهران ملتطياً وراء العربة، في يده بارودته الهجينة، وقد زودها بسكين حادة كالحربة في رأسها، يراقب الجورة بتيقظ حذر، واستعداد تام.

بعد خروج الشخص الغريب من تلك المغارة، التي جعل لها مدخلاً سرياً، من خلال برميل مفتوح من طرفه الأمامي، يُغلَق بعد دخوله، أو خروجه، وقد وضعت فوقه أكوام من الأتربة، حجبت ذلك المدخل بالكامل، وجدت الشرطة أجهزة غريبة، تشي بأنه جاسوس.

منذ ذلك الوقت رفع الفدائي مهران - بصفته قائداً لأشبال الزفتية - وتيرة التدريب، ونظم أطفالها الذين أصبحوا مسلحين بهذه الدفوف الخشبية،

التي دقوا على رأس كل منها مسماراً معكوفاً، كسدادة على الهدف، وشدوا عليها خيطاً، جاعلين منه حمالة لهذه البواريد التي يحملونها على الكتف، ممسكين بها بكلتا اليدين في حالة الاستنفار، وخلال الحراسة ضمن دوريات مراقبة مستمرة حول الجورة للقبض على الجواسيس. أو يجعلونها على الظهر، عند القفز من أعلى الجورة إلى أسفلها في حالة الاشتباه، أو التدريب.

بعد مدة جاء ضابط، بمرافقة شرطيين، ترجل من سيارته الجيب العسكرية، ليصافح محيميداً برجولة، وإباء، ثم تحدث إليه في مودة، وسلمه ظرفاً، يحتوي مبلغاً معتبراً من المال، مكافأة على دوره الحاذق، والجريء في كشف الجاسوس الإسرائيلي. أخيراً عانق الضابط محيميداً بحرارة، ورجع إلى سيارة الجيب، ليرفع يده بالتحية الودودة، بينما بقي محيميد يلوّح له بكلتا يديه.

بعد ذلك، ظل يعمل لعدة أيام في تنضيد الرفوف في هذه الكولبة الواسعة، التي أصبحت تحتوي أنواع الخضار والفاكهة، وراحت نساء الزفتية، يأتين إليها لشراء حاجتهن، لاسيما والظروف قاسية مرة، وأبواب الرزق مسدودة في وجوه الرجال، الذين يحاولون تدبر أمورهم، كيفما كان، بانتظار أن يفرجها الله، ويعودوا إلى بيوتهم في الجولان.

وبقي محيميد، يبيع برخص، ماداً رجله اليمنى على طولها كالمعتاد، يراقب تلك الجورة. لكن مع ابتسامة ترتسم على شفتيه طوال الوقت، فإذا ما عتم الجو عدَّ ما في جيبه، ثم اقتطع مبلغاً منه، كي يمضي إلى مطعم، لتناول وجبته الوحيدة في اليوم: لحم مشوي، إذا كانت الغلة وفيرة، والسوق كيِّس، كما يقال، وإلا فإلى مطعم الفول والمسبحة، وربما سندويشة فلافل فقط. بعد ذلك يغلق كولبته بواسطة دفتي خشب، يربطهما بجنزير حديدي، ينتهي بقفل محكم، منطلقاً باتجاه بيت أم مهران، يقدم لها كيساً من الخضار، وآخر من الفواكه. ثم يسألها عن أخباره بعدما انضم إلى الفدائيين مؤخراً.

❖

بدا مهران يتحدث عن فلسطين، مثل أبيه، بوصف البندقية طريقاً إليها، وهي الطريق إلى الحياة الكريمة بلا ذل. كثيراً ما شاهدته، يضع نظارة سوداء على عينيه، مع هزه لجسمه، وكأنه يرتجف، فيبدو مثل سيد مكاوي، وهو يغني بصوت متهدج:

" ولا فقلبي ولا عنيَّ إلا فلسطين

وانا العطشان ما ليش ميَّ إلا فلسطين

ولا تشيل أرض رجليَّ

وتقوّي خطوتي الجيَّه

إلا فلسطين..."

كانت عيناه تتوهجان بريقاً أخاذاً، فأقرأ فيهما القوة، والتصميم الواثق، كلما حدَّث أمه عن الفدائيين. تقاطعه:" بس الفدائيين بيموتوا يا مهران."

- لا يما: يستشهدوا آ. بس يموتوا لا.

وكانت أمه توافقه الرأي. لكنها لم تشأ أن يذهب، ويتركهما وحيدتين، فوقفت في وجهه:" أنا ونجمة مين إلنا غيرك؟"

لكن حين وجدته بلا عمل، سوى تقليد الشخصيات، كأنه مهرج، وتدريب أطفال الزفتية على بواريد الخشب، قالت له:" أبوك قبلك كانت وجهته فلسطين، وما ارتاح إلا استشهد فيها، الله معك."

وحصل ما توقعته بعد غيابه الطويل، إذ جاء عمه، ليخطب نجمة لابنه الملقب بالشيخ جاسم. ولم يكن ثمة مهرب أمامها، فالكل مع أن تكون ابنة العم لابن عمها.

❖

عندما سمعت أم الجاج أن مهراناً سوف ينضم إلى الفدائيين جاءت مع الصباح الباكر، تصحبها ابنتها الصغرى، لتوصيه:" ابني مهران إذا قدرت تجيب الجاجات جيبهن. أمانة الله ما بدي منهن شي. خليهن عندك. المهم شوفهن بعيوني."

رد عليها:" معقول يا خالتي؟ هو أنا رايح على الفدائية لأحارب إسرائيل، ولا أجيب جاج؟"

- طيب حبيبي لا تجيبهن. بس طلعهن من القن، وخليهن يسرحن.

فلما غاب طويلاً، وأكدت الأخبار أنه استشهد داخل الجولان في عملية ناجحة، كبدت العدو خسائر كبيرة - ألصقت أوراق الإعلان عنها على جدران الزفتية والحقلة دون العبارة المعتادة:" وعاد الفدائيون إلى قواعدهم سالمين." بل اختتمت بالقول:" نعاهد رفيقنا الشهيد أن نسير على خطاه حتى تحرير آخر شبر من الأراضي السليبة." - ذهبت أم الجاج إلى سوق الطيور في مدينة دمشق، واشترت مثل عددهن بالضبط: سبع دجاجات وخمسة صيصان مع ديك أسود، ولم تنسَ شراء قفص بانتظار الرجوع إلى مدينة القنيطرة.

❖

/ تخرج حاكمة من بيتها، وإذ تنتبه لوجودي على النافذة، تغطي شعرها بمنديل، تعقده وراء أذنيها، فتهرب خصلة صغيرة من غرتها، لتستقر على جبينها الناصع البياض، وهي تغمزني لأتبعها، بعدما أقفلت الباب خلفها بالمفتاح. أسألها:" ليش ما عندك ولاد؟" فتبدو غير متيقنة تماماً: هل أنها بعدما رمت وليدها الجميل - مثل القمر حسب تعبيرها - في المجاري العامة لم تعد تحبل، أم هو إجبار زوجها لها على الإجهاض، مرة بعد أخرى، بحجة أنه لا يريد أولاداً، جعلها تمسي عقيمة.

لكن أبا مهيب يفاجئنا بعد عدة خطوات:" السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا ست حاكمة."

ترد عليه ساخرة:" مهذب يخزي العين!"

يردف:" أظن الحمار تبعك مناوب، ومو راجع إلا وجه الصبح."

- ما شا الله قديشك ناصح.

ثم تضيف، وهي تعود القهقرى، لتفتح الباب الذي أحكمت إغلاقه بالقفل:" اي حضّر لي لسانك لجوا."

فيخرجه من فمه:" بدك أحسن من هيك؟"

تردف، وهي تدفع الباب بقدمها، ثم تبصق عليه في قرف:" كنت طالعة

جبلي غرضين من السوق."

- أنت تأمريني، وأنا بخدمتك.

- حضرة زوجي المحترم يداوم (48) ساعة، ولما يرجع على البيت يظل نايم طول الوقت.

*تقول ذلك، وهي تردد في همس داخلها: "**ليك لعبت الريح ببابي**."*

ثم تدخل خلف أبي مهيب، تاركة الباب كعادتها موارباً، إذ لا تحكم إغلاقه إلا عند خروجها من البيت./

❖

يسير مهيب مثل قطة عمياء، الوقت ليل متأخر، أعمى هو الآخر....

لقد ذهب إلى البيت، فوجد أن أمه نسيت ترك الباب مفتوحاً، كعادتها حتى يدخل في هدوء، ويندس في فراشه دون أن يحس به أبوه، لذلك يجمع عدة أكياس ورق أمام دكان أبيه، كي يفترشها، وينام. فإذا جدعان يدعوه إلى غرفته:" أحسن من النومة هون روح معي."

يرفض بإصرار، لأن سمعة جدعان مشبوهة، فيتحداه قائلاً:" ولو يا مهيب خايف مني؟ شو مالك رجّال؟"

أراد أن يقول له:" **كيف بدي كون رجّال، وأبي طول الوقت يناديني يا ولد؟**"

لكنه قالها بصوت مكتوم، ونطق بصوت مسموع:" لا. بس إذا أبي عرف..."

لا يدعه يكمل جملته:" إذا ما بتمشي معي أنا رح خبره شي صار، وشي ما صار. شو قلت؟"

إذ يحاول الهرب يلحقه حتى يمسك به، ثم يهدده في لهجة حازمة:" بدك تروح معي بالتي هي أحسن."

ثم يلوي ذراعه خلف ظهره بقسوة متعمدة، يحس معها مهيب بعدم قدرته على فعل شيء، فيجره جدعان إلى غرفته المنعزلة وسط البستان.

❖

تخرج مريم من بيتها بعدما سمعت نشيجاً قريباً، فإذا أم مهران تجلس على المصطبة تبكي، أمامها برميلها الكبير فارغاً:

- شو مقعدك هون؟

- منتظرة مهران، يخلصنا من هالبلوة.

- قصدك خطبة نجمة. مو هيك؟

- آخ يا خيتي مريم: هذا الشيخ أبو جاسم هو اللي جبرنا نرحل من حوران لهون بعد ما استولى على بيتنا بالغصب، مع إنه غني، عنده مصاري، ما تاكلها النيران، وعنده غنم، ومعزة، ورعيان كثير.

- طيب خيتي روحي على بيتك، وإن شا الله يجي مهران عن قريب.

قبل توجهها إلى بيتها تقول:" كنت كلما شميت ريحته بلاقيه جنبي يا أم حازم."

-وشو ريحته؟

-مثل ريحة الأرض، وهي مرشوشة بالمي.

ثم تردف في حرقة وألم بعدما ابتعدت عن مريم، كأنها تسرُّ لنفسها:

" للأسف ما عدت شميت ريحته هالأيام، ما بعرف ليش!"

شيئاً فشيئاً، وكلما زادت فترة انتظارها له، كانت أم مهران تذوي، بدأت تشعر بتثاقل في قدميها، وألم ممض في مفاصلها، مع وجع دائم في رقبتها، نتيجة حمل هذا البرميل الكبير من حنفية الجامع إلى بيوت الزفتية طوال اليوم. أخيراً تهالكت على نفسها منهدة كشجرة هرمة، أثقلت ظهرها الأيام، رغم أنها لم تتجاوز الخمسين، لا سيما بعدما هربت نجمة مع الأستاذ عامر....

كانت تكرهه إلى درجة العمى، كما يقال، لكن حين جاء ابن عمها، الملقب بالشيخ جاسم، لخطبتها كتبت أول وآخر رسالة مواعدة في حياتها، وأعطتها لحازم كي يوصلها، متضمنة خمس كلمات:" أستاذ عامر: ممكن نلتقي بالبستان؟"

❖

على الطريق سألها حازم:" مو بكرا عرسك؟"

- بس أنا ما بدي أتزوج الشيخ جاسم.

- معك حق مبيّن عليه ختيار بهالعباية.

وفي البستان وقف حازم جانباً، يحاول ربط خيط حذائه الذي انفلت من جراء السير الطويل دون جدوى، ووقفت نجمة في مواجهة الأستاذ عامر، الشاب الأسمر بشارب أسود رفيع. كانت بيضاء ممتلئة الجسم، وجهها يميل إلى اللون الزهري، كأنها ذات أصول شركسية، لكنه ظهر لها طويلاً، إذ وقفت إلى جواره، وبانت قزمة. هو لم يكترث بذلك، فمد يمناه لمصافحتها، وجدتها كبيرة، لا تستطيع ضمها بين أصابعها، لذلك تركت له أن تنام يدها في يده مثل عصفور صغير، فتسرب دفء لذيذ إلى قلبه، وكاد عصفور صدره يقفز فرحاً. غير أنها شعرت بالحرج من قصرها أمام طوله الفارع، وسحبت يدها. فوضع رجله اليسرى على تبة مرتفعة قليلاً، وهو يحدثها عن والديه، اللذين قتلتهما قذيفة نابالم إسرائيلية، خلال رحلة النزوح عن مدينة القنيطرة عام 67، بينما هو يتبول داخل حرش على الطريق. ثم رفع بنطاله إلى أعلى ساقه مظهراً آثار الشظايا التي أصابته، والعملية التي أجريت لإخراجها من ساقه، مما أدى إلى قصرها عن الساق الأخرى.

اختلط لون بشرتها ناصعة البياض ببعض الحمرة، وسط وجنتيها الطافحتين بألق الأنوثة الخجول، مما زادها جمالاً، مع نظرة محبة من عينيها المشعتين بوهج طافح، انسكبت في شريان قلبه حباً صافياً. أخيراً لوحت له مودعة، كأنها لم تغلق الباب في وجهه مرات ومرات، كلما جاء يتحدث إليها، ومضت لتمسك بيد حازم، الذي عاود سؤالها:" لو الفدائي مهران موجود ما كنتِ جيتِ على البستان. صحيح؟"

- لو كان موجود الفدائي مهران ما كانت هالخطبة كلها يا حازم.

ومع أن الجميع أجمعوا أن أم مهران لن تعيش طويلاً، إلا أنها أقسمت ألا تموت قبل أن يجيء...

(5) يوم الاثنين

تسير أم عايد متعثرة، رغم عدم وجود أحجار، أو حفر، وهي تقول بصوت مسموع:" كنا وقت نروح من مطرح لمطرح نلاقي حدا يستقبلنا إلا بالزفتية، ما في غير الشقا."

وإذ تكاد تسقط إلى جوار أحد البيوت يلتقط حازم يدها بقوة، ليبعدها عن الجورة في اللحظة الأخيرة قائلاً:" خليني وصلك البيت يا خالتي."

تحاول أن تتملص من يده الصغيرة، التي أمسكت يدها بثقة، وقد عرفته من صوته: حازم ابن الدكتور عزمي. لكن شيئاً يمنعها من ذلك، فتسأله:" كيف حال الدكتور؟"

- مسافر من زمان.

تبتسم محاولة أن توضح له قصدها، فهي تسأله عن نفسه، لا عن والده، الذي تعرف بأنه مفقود منذ النزحة المشؤومة، لكنها تحجم عن ذلك في اللحظة الأخيرة قائلة:" أبوك رح يرجع يا حازم، وتذكر كلامي."

حتى إذا ما وصلت إلى بيتها، دعته للدخول:

- تفضل، دكتور حازم.

- شكراً. بخاطرك.

- مع السلامة يا بني، وسلم لي على أمك.

ويستغرب عايد، الذي ينظر من النافذة، ما يراه، إذ ترفض أمه أن يقودها أحد، مستدركاً داخله:" **إلا حازم ابن الدكتور عزمي العايش**."

ها هي تسأل عايداً، الذي جلس يتأملها:" ونحنا هون، مين بيزور قبر أبوك هُناك؟"

يظل صامتاً، فلا يجيبها، كأنه يقول:" لا أحد." فتردف:" لهيك بتلاقيه شاعر بالوحدة من بعدنا."

ثم تتأفف مستنكرة غير مصدقة ما جرى:" معقول تركنا القنيطرة، وجينا نعيش بهالخشش يا عايد؟" مسترجعة ماضيها في تحسر أليم:" يرحم أيام القنيطرة."

❖

/ على زاوية بيت الأستاذ عامر أقف حاملاً صفيحتي، التي ثبتُّ أعلاها بخشبة في المنتصف، كي يسهل علي حملها، منتظراً نجاة، ما إن تظهر حتى أنطلق باتجاه حنفية الجامع متلهفاً للقائها. وهناك نلمح مجموعة أولاد، يحاولون دخول الجامع، فيقف لهم مؤذنه الشيخ سليم بالمرصاد:" منين جايين؟"

- من الزفتية.

- يعني نازحين؟

لا يجيب الأولاد، فيرفع عصاه متوعداً:" اللي بيخطي عتبة الجامع أكسر رجله."

ويلوِّح بتلك العصا الغليظة بقوة وعنف، فيهرب الأولاد الصغار خائفين. بينما أملأ صفيحتي، وتملأ نجاة طنجرتها الألمنيوم الكبيرة، ثم نأخذ طريقاً طويلاً، لا يسلكه أحد غيرنا، باتجاه العودة إلى الزفتية، وهي تخبرني عن والدها، الذي أشبهه بحب المطالعة:" كان مهووساً بشراء الكتب، ومرة قبل أن يصل إلى البيت، تذكَّر أن يشتري لنا خبزاً، مثلما أوصته أمي، فرجع للفرن، ولما وصله، بعد وقت طويل، مدَّ يده إلى جيبه، لم يجد نقوداً تكفي، فنظر إلى مجموعة الكتب التي اشتراها، وقال للفران:" خلِ هالكتب رهن عندك، وعطيني كيلوين خبز."

رد عليه الفران، وهو يبتسم:" تفضل هي خبزاتك، وخُذ كتبك معك."" /

❖

يلاحق مهيب كعادته قطة، تبدو نشيطة، إذ تستطيع بمهارة تجنب حجره المرة تلو المرة. لذلك يركض خلفها ممعناً في مطاردتها، حتى إذا ما وصلت مرتاعة إلى الطريق العام، حاولت أن تعبره لكن سيارة مسرعة في جنون دهستها. عندئذ عاد إلى الزفتية، فرأى الزاروب المؤدي إلى بيته، يضيق بجموع الجيران، الذين يتزاحمون أمامه، بينما إخوته في الداخل يبكون.

بادئ الأمر فوجئ أن أباه مات، فتسمر، لا يعرف ماذا يفعل، ولا كيف يبكي، كما يبكي إخوته. لكن شعوراً بالانعتاق دهمه، فراح يرقص داخله: " **رح أخلص من المسبات، والضرب، والإهانة**."

فجأة يمد أبو هشام يده إلى جيبه، يُخرج بعض النقود، ويعطيها لإخوته الصغار، فينطلقون إلى بائع البوظة، يشترون منه" الأسكا" الملونة، ويفرحون غير عابئين بما حصل لأبيهم ....

تكثر الأقاويل حول موت أبي مهيب، فالبعض يزعم بأنه وراء الطلق الناري من بارودة قديمة، الذي أصاب البيك أبا محروس الشهر الماضي في صدره، وأنه ـ أي البيك ـ مات فعلاً. لذلك لبست جورية الثياب السوداء حداداً عليه. بينما تؤكد أقاويل أخرى أنه مازال يعالج حتى هذه الساعة، وهو الذي وجَّه أزلامه لقتل أبي مهيب. فاستدعته جورية على عجل، وجاءها متلهفاً للقاء، ليعود إلى بيته محملاً بين الحياة والموت.

ولم تنزل دمعة من عيني مهيب إلا بعد الدفن حين جثا على ركبتيه، وانفجر في بكاء مر، طغى على صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد المنبعث من مسجلة الملازم ناجي، وهو يتلو القرآن. لكنه عندما دنا من القبر خرجت يد أبيه من تحت التراب، وصفعته عدة صفعات بقسوة متعمدة، مثل العادة، فصاح مهيب داخله مستنكراً: " **حتى وانت ميت يا أبوي؟**"

ولم يفكر في سبب الصفعات طويلاً، فلطالما صفعه دون سبب، لذلك قرر الهرب بعيداً.

❖

يجتمع الرفاق في عيادة الدكتور حلمي، التي افتتحها مؤخراً في منطقة الجزماتية، قريباً من الزفتية....

لقد حضر، قبل فترة وجيزة، حصة الموسيقا، واستمع إلي أغني نشيد زهرة المدائن لفيروز، لذلك يعقب الآن، في حنين جارف لمدينته القدس، التي هي ـ كما يؤكد في ثقة مطلقة ـ زهرة المدائن فعلاً:" جزء لا يتجزأ من ذاكرتنا تلك المواقع، التي درجنا فيها أيام الطفولة. ولا تكتمل الحياة من دونها، مثلما لا تستطيعون تصوير مشهد من غير مكان يُنسب إليه، يا رفاق."

نتداول في بعض المواضيع، ونستمع إلى قصيدة لمحمود درويش:

" وليكن..

لا بد لي أن أرفض الموت..

وأن أحرق دمع الأغنيات الراعفة

فإذا كنت أغني للفرح

خلف أجفان العيون الخائفة

فلأن العاصفة

وعدتني بنبيذ.. وبأنخاب جديدة..

وبأقواس قزح."

يعيرنا ديوان:" آخر الليل نهار" طالباً أن نتبادله فيما بيننا.

مع نهاية الجلسة نسأله كالعادة:

ـ ايمتى رح نحارب؟

يرد علينا بالفصحى:" كل شيء في أوانه يا شباب."

أخيراً يستفسرعن أحوال أم مهران، ولا يستغرب حين نخبره:

ـ أجلت موتها لحتى يجي مهران.

بل يعقب منزعجاً:" كان يحب أن تنادوه الفدائي مهران. صحيح؟"

❖

ظهر محمولاً إلى حلمه بجناحين من ضوء....

كانت الزفتية مزدانة، عندما قدمت سيارة صالون عسكرية، سأل

سائقها، الذي يرتدي اللباس المموه، إمام الجامع الشيخ عبد الستار عن بيت الفدائي مهران، فأسرع الشيخ نحوه، يردد مهللاً: "البشارة يا أم مهران، رجع ابنك الفدائي."

ولم تعرف النساء، والفتيات المجتمعات في عرس قادر، ماذا يفعلن، وهن يشاهدن الشيخ عبد الستار، يهلل بقدوم الفدائي مهران، بعدما حلمن به طويلاً، يرجع إلى الزفتية، ببذته المموهة، حاملاً بندقيته، مع عدة قنابل على خصره، فرحن يزغردن بسرور بالغ. وطيَّر الأطفال ضحكاتهم فرحين بعودة مدربهم البطل، بينما علا البشر وجوه الرجال، كما لو أنه ابن كل واحد منهم، فبدت عيونهم تلمع في نداوة.

يومذاك سقط مطر خفيف، مثلما الندى، في مقبرة السيدة زينب، فترطبت أرضها، وصارت أسهل حفراً، لاستقبال زائرها، الذي بدا لي كأنه استلقى، يرتاح قليلاً، وقد أغمض عينيه نصف إغماضة، مصراً على رؤية ما سيحصل بعده، فكدت، وأنا أرى قامته ازدادت طولاً، أن أسأله: "هل هذه استراحة المحارب يا فدائي مهران؟"

بدت البيوت القليلة المنثورة، هنا وهناك في السيدة زينب، تنظر إليه مستغربة هجوعه المبكر، فقلت داخلي: "**بعد قليل سيعاود الوقوف على قدميه، وتدريب الأطفال على بندقيته الجديدة من نوع كلاشينكوف، ليخوضوا عمليات فدائية أخرى حتى تحرير فلسطين.**"

ويحكى أنه منذ ذلك اليوم لم تتعرض الزفتية إلى أي حادث سرقة، باستثناء اقتحام الشيخ جاسم وابن عمه ضرار لمنزل الأستاذ عامر المطل عليها، ومعرفتهما أن له بناية من ثلاثة طوابق في مدينة القنيطرة المحتلة....

يومها لاحظا وجود عدة لوحات غير مكتملة الرسم، لكن ما أثار استغرابهما أن هذه اللوحات كلها كانت لنجمة التي تتبدل ملامحها من حالة إلى أخرى.

وأقسم بعض أهالي الزفتية أن الفدائي مهران يزورها كل اثنين، وهو اليوم الذي استشهد فيه، وأنهم كثيراً ما يرونه، جالساً تحت الشجرة الوحيدة الجرداء، ينظف بندقيته من الداخل بسيخ التنظيف، ثم يلمعها حتى

تبرق تحت الشمس. بل إن العديد من الرجال صاروا إذا ما اعترضهم أمر جلل، فاختلفوا حوله، ينبري أحدهم قائلاً: " لو أن الفدائي مهران بيننا كان عمل كذا."

فيتبعون قوله.

فاحت رائحة عطرة في مقبرة السيدة زينب، بعدما هربت منها الديدان بكل أنواعها، كما انتشرت شقائق النعمان وسط دروبها، ووصلتنا رسالة عاجلة، تحمل عنوان: " حتى نلتقي"....

بعد التحية: أتذكر تلك الساعة العصيبة منذ وصولي إلى الزفتية بسيارة صالون عسكرية، جلس في مقدمتها الرفيق عز الدين القسام، طبعاً هذا اسمه الحركي، وجاء الشيخ عبد الستار، كي يحضر عرس قادر، فسأله السائق عن بيتنا، رد الشيخ مستفسراً: " معك الفدائي مهران؟" فهز رأسه في هدوء، وقبل أن يطلعه الرفيق عز على الحقيقة المرة، أسرع الشيخ باتجاه بيتنا، مهللاً: " البشارة يا أم مهران." يكاد يتعثر بخطواته المتلاحقة، بينما تناهى إلى أذني عزف شبّابة تايه، فتمنيت لو أدبك قليلاً. لكن الرفيق عز الدين انضباطي مثل الساعة السويسرية، ولن يسمح لي بذلك. فجأة رأيت أمي تخرج بأحلى ثيابها، ففرحت إذ تأكد لي أن الشيخ أخبرها بحضوري فقط ـ **من أين له أن يعرف أنني جئت شهيداً**؟ ـ فراحت تبحث عني وسط الدبكة، التي تعرف إنني أحبها كثيراً، وهي تنادي بصوتها الدافئ: " وينك يا عمري؟ وينك يا مهران؟"

فقال لها الشيخ: " ناده يا فدائي مهران، هكذا يحب أن ينادى."

هزت رأسها موافقة: " أي والله صحيح."

لما شاهد ذلك الرفيق عز خشي عليها، إذ هي مسرورة بعودتي إلى هذا الحد، تكاد تطير من الفرحة، وتُفاجأ أنني استشهدت، قائلاً داخله في ألم: " **ستقضي عليها الصدمة بالتأكيد**."

ثم أمر السائق بالتحرك، فانسحب بالسيارة مسرعاً خارج الزفتية، كي لا يرى أحد نعشي في الخلف. ثم أرسل يستدعي الشيخ عبد الستار إلى الطريق العام، وشرح له الموقف فاضطرب الشيخ، وكاد يغمى عليه، لكن

الرفيق عز طلب منه أن يكون على قدر المسؤولية:" أنت كبيرنا يا شيخ عبد الستار."

ثم نزل معه، ليدله على شبان يحفظون السر، ولا يفشونه، كي يكلفهم بحفر قبري. فاستغليت الفرصة، وانسللت نحو الدبكة، شبكت يدي بيد أمي، التي شدتها أم قادر لتدبك إلى جوارها، ورحت أدبك معها في الوسط، على غير عادتي، إذ كنت أمسك دوماً على رأس الدبكة. وبينما تقدم تايه صوب أمي، التي بانت مبتهجة كالعروس في يوم زفافها، يعزف خصيصاً لها، وراح عواد الصادح يغني أغاني الفدائيين احتفاء بي، كان نعشي المغطى بعلم فلسطين يدخل بيتنا، حسب وصيتي، ثم يسير في زواريب الزفتية، حتى إذا ما ضاق بعضها، فاستحال مروري عبرها رفعوني عالياً، فرأيت البيوت تتحاضن في إلفة، بعضها يستند على بعض مثل جسد وحَّده البؤس والشقاء، وأثقلته الهموم الكبيرة، التي يحملها الجميع على كواهلهم، نازحون وغير نازحين.

بعد ذلك ساروا بي فوق الأسطحة نحو الطريق العام، حيث كانت سيارة الصالون العسكرية بانتظارنا.

مرت ليلة أول أمس بسرعة، فقد كنت متعباً من مسيرة الطريق من الزفتية حتى مقبرة السيدة زينب، حيث وسدوني هناك على سنابل خضر، تتوسطها بعض الورود. وظل أحد الشبان يتلو، فوق رأسي تماماً، سورة" يس" كأنه لا يحفظ غيرها. لذلك انتظرت إلى أن عاد الصباح، فعدت لأرتاح قليلاً، كعادتي، تحت الشجرة الوحيدة عند مدخل الزفتية. ثم بحثت عنك طويلاً يا أمي لم أجدك. ظننت أنك مازلت تملئين الماء لأهالي الزفتية ببرميلك الكبير، لكنني لمحته وحيداً فارغاً، فقلت ربما ذهبتِ إلى مزرعة أبي محروس، كي تحضري بعض الخبيزة التي أحبها، غير أن سكينك الصغيرة التي تقطفين بها مازالت تنام في مكانها بالمطبخ. أخيراً توقعت أن تكوني عند جارتنا مريم أم حازم، فلم أشأ قطع حديثكما. أعرف أنكما تسران لبعض طوال الوقت.

وبعد يا أمي: رفاقي في القاعدة الفدائية يسلمون عليك، وهم يؤكدون أن نجاح عمليتي يعود إلى دعواتك، المستجابة من السماء، ورضاك عني. أما رفاقي الذين سبقوني، ووجدتهم في استقبالي، فهم يهدونك السلام أيضاً، ويتعهدون باستقبالك، بعد عمر طويل، بزفة عروس.

لا أستطيع تصديق ما حدث يا أمي، وأنك لن تضميني إلى صدرك في حنان، ثم تمدين يدك، لتمسحي على خدي، وأنت تقولين:" صارت لك ذقن يا مهران."

فأرد عليك:" ناوي أربيها يمه."

ـ مثل هذا اللي صورته عندك. هو شو اسمه؟

ترد نجمة بعفوية، ونباهة:" غيفارا يمه. تشي غيفارا."

أمي: أنا بخير. غير أني عدت ليلة أمس إلى بيتنا، وسمعت تلاوة حزينة، فانقهرت مغتاظاً:" ليش يمه؟ ألم أطلب منك أن تشغلي المسجلة على أناشيد الثورة، كما نفعل في القاعدة الفدائية عندما يستشهد رفيق منا؟

بعد قليل ساد صمت عميق، وتناهى إلى سمعي صوت أبي قادر يسر لأبي يوسف عميشة بأنك عندما علمت بخبر استشهادي أسرعت إلى غرفتي، وقبلت خارطة فلسطين المعلقة على جدارها القبلي، ثم أجهشت في البكاء طويلاً، حتى سقطت من طولك، فاستذكر الشيخ عبد الستار قسمك بأن لا تموتي قبل أن أجيء قائلاً:" لقد برت بقسمها."

ثم سمعت أحدهم يقول بأن نجمة هربت مع الأستاذ عامر. لذلك حامت روحي حول بيتها، حتى رأيتها تخرج معه: بدت قزمة، وهي تمشي إلى جواره. لكنني شعرت بأنها سعيدة معه، فناديتها:" نجمة يا نجمة."

شهقت مرعوبة، وكادت تتعثر بقدميها، خوفاً من ابن عمها، الذي أقسم أن يذبحها، فاستغرب الأستاذ عامر ذلك، وخشي أن يكون ذلك الملقب بالشيخ جاسم قد لمحها حقيقة، لكنها طمأنته في هدوء رزين كعادتها:" لا. هذا صوت أخي الفدائي مهران، كان يناديني."

ـ يمكن تكوني متوهمة، لأنك مشتاقة لأخوك.

فلما أكدت أنها سمعت صوتي بالفعل قال:" بالتأكيد حبيبتي هي روحه عم تحوم حواليكِ حتى تحميكِ."

أمي: أرجو أن توصلي سلامي إلى أصدقائي في الزفتية، وخاصة هذا الصبي الذي يحب أن يعتزل في غرفته المطلة على الطريق، يقرأ ويقرأ، ثم يخرج علينا ببضع أبيات من شعر الغزل غالباً، وهنا أود أن أخبره أنني في القاعدة الفدائية، حيث تدربت، قرأت الكثير من الكتب الثورية، والأدبية، وتأكدت مما كان يقوله دائماً بأن الكتاب حياة نعيشها دون أن نهدر عمرنا، ورحلة نخوضها، ونحن في مكاننا.

كما وجدت أن للقراءة متعة، لا تضاهى، تمارس من خلالها حريتك في اختيار ما تريد قراءته، ولك حرية اختيار الوقت، والمكان لممارسة هذه الهواية الجميلة. ومن ناحيتي كنت أقرأ طوال الوقت حتى في أثناء نوبات حراستي، وخلال فترات التدريب: أقرأ كثيراً، وأنام قليلاً، ثم أناقش ما أقرؤه مع الرفيق عز الدين، الذي أكد لي بأن المعرفة الموجودة داخل هذه الكتب مثل الورد، والياسمين، بل هي النار أحياناً.

وبعد يا أمي الغالية، فمازلت أستذكر، منذ كنت طفلاً صغيراً، وجه أبي باسماً، وهو يكرر مقولته التي أصبحت حكمة:" الأيام قادمة، والطريق طويلة إلى فلسطين." ثم يتوجه إلي قائلاً:" ارفع راسك، أنت فدائي."

أمازحه:" قصدك مخرب يابه."

ولقد ظل رأسي مرفوعاً، وأنا أقتحم مقر قيادة العدو في الجولان، فذهل الضابط الإسرائيلي عندما رآني أقف في مواجهته، وقد غطيت عيني اليسرى بعصابة سوداء مثل وزير حربه موشي دايان، فصاح غاضباً:" كيف وصل هذا المخرب إلى هنا؟"

مع قبلاتي ليديك الطاهرتين، والسلام ختام.

المرسل ابنك: الفدائي مهران

❖

/ أسترجع ما حدث في غصة حارقة، يوم توفيت أم مهران....

في ذلك اليوم الكئيب، لم يجد الشيخ عبد الستار ماء، يغسلها به، قبل أن يكفنها: كانت حنفية الجامع معطلة، يصلحونها منذ مدة طويلة، وشبكة المياه في الحقلة تعاني الانقطاع الدائم، فنظر إلى السماء، الشاحبة بعبوس، نظرة استجداء، حزيناً على أم الفدائي الشهيد مهران، وملاية الزفتية، كما ندعوها، لأنها تجلب الماء لبيوتها على مدار الساعة، ولا نجد ماء لغسلها قبل الدفن. فإذا الجو يكفهر فجأة مع هبوب زوبعة هوجاء، جرفت كل ما صادفها في الزواريب الضيقة من غبار وأوساخ. ثم أرعدت السماء، وهطل المطر مدراراً، كأنه السيل، أو كأن السماء تبكي. فلم يشك الشيخ عبد الستار للحظة بأنها دموع السماء.

وما هي إلا دقائق معدودة إذا برميل أم مهران الكبير، الذي لم تكن تنزله عن رأسها طوال النهار، وهي تنقل الماء من حنفية الجامع إلى بيوت الزفتية، قد امتلأ./

(6) مسألة وقت

ليس كل الحكايات

ختامها مسك

/ في الزفتية.. ذكريات الصبا.. آلام.. وآمال المراهقة.. والنضج.. ذكريات الحب الأول.. واللمسة الأولى.. ووقفة النازح مع ذاته: ***" لقد لعنت النزوح.. وكنت على حق. لكن دمشق قدمت للكثيرين منا مزيداً من الفرص للتعلم والعطاء.. فها هم أدباء.. وفنانون.. أساتذة جامعيون.. أطباء.. ومهندسون.. ومسؤولون على أعلى المستويات... ولقد خففت عن البعض منهم شيئاً من المظالم التي عانوها تحت سيطرة أمراء.. لم يكن هم بعضهم إلا الحصول على كل امرأة جميلة.. حصان أصيل.. وبقرة حلوب."***

والآن بعدها في مديحها: فتلك البقعة ـ حول المحلق الجنوبي، والبنايات العالية، ما بين حي الزاهرة، ومنطقة الجزماتية وصولاً إلى باب المصلى ـ ماتزال تحمل رائحة أجسادنا، آثار أقدامنا، بهجة ألعابنا الطفلية، ووجع معاناتنا اليومية، وما انزاحت ذاكرتنا عنها قيد أنملة منذ هُجرنا منها بسطوة التهبيط، لأن جذورنا فيها: صحيح تركناها إلى أماكن أخرى أفضل بمواصفاتها الخدمية، لكن في الزفتية كنا الأهل، العائلة الواحدة، والقلب الواحد./

❖

يحرِّض ضرار جاسماً: " لا تنسَ يا شيخ: نجمة صارت معيوبة، وحمَّلتك العار، لأنك طلبتها للزواج، انت ابن عمها الشيخ، بس هي هربت مع هذا الكلب عامر. لهيك لازم تقتلها."

ـ ما أكون الشيخ جاسم إذا ما كومتها حدَّه. بعدين أسلم نفسي للمخفر.

لكنه يستدرك بعد برهة صمت:" وبركي ندمت على فعلتها، وحبت ترجع لي يا ضرار؟"

فيلتصق به هامساً في أذنه:" ولو يا شيخ: إنت تقبل تركّب لك قرون؟"

ـ صحيح. معك حق: أنا لازم أقتلها حتى أمحي العار، وأمشي بين الناس مرفوع الراس.

ثم يلتفت إليه في انزعاج، وهو يمشي إلى جواره:" وانت إش تساوي جنبي؟ إمش بعيد خطوتين ورا الشيخ."

وينفخ صدره سائراً في خيلاء، يتبعه على بعد ضرار.

❖

يتأخر لطيف مع طلعة في سوق الهال ـ بعدما احتجزت الشرطة، بتحريض من أصحاب الطنابر، عربتهما ذات الدولابين ـ لعلهما يشتغلان بعدما انصرف الصبيان الأكبر سناً، فلا أحد يُشغّلهما في حال وجود هؤلاء، لصغرهما طبعاً، وضآلة جسديهما. لكنهما يستعيذان بالله من الشيطان الرجيم عندما يشاهدان العتال اسماعيل، الذي سمعه الكثير منهم يقول لبغله:" هري ورا، ولا نازح."

ورغم أنهم جميعاً في سوق الهال راحوا ينظرون إليه شزراً، وعرف أنهم نازحون، بقي يستفزهم بقولته تلك، بل صار يُكثر من ترديدها كلما رآهم، فاجتمعوا عليه الأسبوع الماضي، رغم ما عُرف عنه من جسارة وفظاظة، وظلوا يضربونه: "وين بيوجعك" كما يقال، حتى أدموا أنفه، وفمه، وورّموا عينيه، وجنبيه، دون أن يهرع أحد، من عمال السوق، أو أي من تجاره، لنجدته، أو محاولة تخليصه من أيديهم، لأنه مكروه، والجميع يقولون عنه:" إنه بلا أصل." ففر هارباً، لا يلوي على شيء.

ومع أن لطيفاً وقف حينذاك في وجه الشلة، يطلب التوقف عن ضربه، صائحاً في رجاء:" يكفي يا شباب، اتركوه رح يموت." وظل طلعة بعيداً، إذ لا حاجة له لصغره، وكثرتهم، راح اسماعيل يتبعهما عن بعد حين لمحهما، كي يتأكد من أن رفاقهما الآخرين مضوا، حتى إذا ما تيقن أن لا أحد منهم الآن في السوق، شهر موسه الكباس" أبو الخمس طقات" وقد شحذه حتى أصبح كالشفرة، يلمع تحت الشمس، كلما لوّح به على مرأى منهما.

فطلب طلعة من لطيف أن يهرب، بينما هو يستدرجه، لكن اسماعيل بدلاً من أن يتبع طلعة الذي راح يستفزه بالكلام، وما توفر لديه من حبات بطاطا، أو بندورة، يضربه بها على رأسه تماماً، وهو المشهور بدقة الإصابة، توجه نحو لطيف غير عابئ بطلعة، الذي غافله، ووضع رجله اليسرى أمامه، بينما هو يركض خلف لطيف، فسقط بقسوة على وجهه، وارتطم رأسه بدولاب طنبر، فشُج، وسال منه الدم. رغم ذلك قام، يلاحق لطيفاً، الذي أخذ يختبئ مرعوباً من وراء طنبر إلى خلف سيارة. وكلما توارى اكتشف اسماعيل مكانه، كأنه الضبع يشتم رائحة فريسته، فيتبعها من جديد.

فجأة شاهد لطيف شاباً، يشوي عدة أسياخ من اللحمة على موقد، بينما جلس معلمه بعيداً، إلى جوار طربيزة صغيرة، فَرَدَ عليها أرغفة الخبز، وسلطة الخضار، ينتظر أن يتغدى، وعرفه لطيف: إنه إبراهيم الذي كان قبل أيام في زيارتهم، وهو من أقارب أمه، فرفع صوته، في استغاثة مؤلمة، مستنجداً:" يا خال إبراهيم دخيلك."

حين كررها مراراً، سمعه العتال اسماعيل، فانطلق نحوه مباشرة، كأنه يحصل على كنز، وإذ تزحلق لطيف بقشرة موز، وهو يحاول الوصول إلى إبراهيم، فسقطت طاقيته الصوف بعيداً عنه، وبانت أذناه محمرتين مثل الشوندر المسلوق، ردد بتلقائية كعادته:" يلعن أبو اللي رماك" محاولاً الوصول إلى إبراهيم زحفاً، وهو يمدُّ يده بوهن إلى طاقيته، فداس عليها إسماعيل بقسوة وتلذذ، كي يمنعه من الهرب، ثم تقدم ليطعنه بموسه الكباس، فما كان من إبراهيم إلا أن أمسك بيده التي فيها الموسى بيساره، وبيمينه غرز الأسياخ الحارة، التي جردها من اللحم لتوه، في بطن اسماعيل، فخر ساقطاً على وجهه، تنبق ثلاثة أسياخ من ظهره وسط بركة دم واسعة.

❖

يحملق تايه في الياسمينة كعادته، وتراقبه مريم متسائلة :" **بماذا يفكر يا ترى؟**"

لقد أصبح أكثر اتزاناً من ذي قبل، فلم يعد الأطفال يلحقون به، ويسخرون منه صائحين: تايه تايه يا مجنون."

بل إن الفتيات رحن يحاولن لفت نظره كلما شاهدنه عند حنفية

الجامع، وتعترض أخريات طريقه، ليرششنه بالماء بزعم أنهن يرششن بعضهن.

إنه يعمل الآن مدقق حسابات في سوق الجزماتية عند بائع الجملة أبي جميل، الذي ينقده مبلغاً محترماً آخر الأسبوع، فيجخ حسب التعبير السائد، أي يتأنق في لباسه، مختاراً أجمل الثياب وأغلاها.

ها هو يجلس مع حازم، الذي يلبس شماغاً كبيراً، على مصطبة بيته، بينما يضع الشبابة المعدنية الجديدة، التي اشتراها من سوق الحميدية، في فمه: يبدأ بأصابع يده اليمنى، يضعها على الثقوب الأمامية، ثم أصابع يده اليسرى على الثقوب الخلفية، وينظر إليه حازم بإعجاب. وإذ تخرج أمه بسرعة تراهما، فتبتسم لهما، وهي تمضي باتجاه مزرعة أبي محروس، فيلوحان لها في سعادة: "مع السلامة."

لكنها تعود لتوصي تايهاً: "إذا طلعتوا على أي مطرح اربط له صباطه منيح. لو سمحت."

❖

بينما يسير الشيخ جاسم في المقدمة، خلفه ضرار الذي يتقدم منه قليلاً، ثم يسأله: "وش هذي الزفتية يا شيخ؟"

يرد عليه: "الزفتية فيها مشكل ملون يا ضرار: نور.. ونازحين.. ومن المحافظات الثانية."

ويبتعد الشيخ جاسم عن ضرار، ليتحدث مع نفسه: "**ياه شو صعبة العيشة بالزفتية، وياه شو محترمة نجمة، وهي تكاشفني: انت على راسي، وعيني، لكن ما أريد أتزوجك. سألتها: تكرهيني يا بنت عمي؟ ردت: لا ما اكره أحد. بس أبوك...**"

يكمل متوجهاً بالحديث إلى ضرار: "وآني معها، الحق كله على الشيخ أبوي. إنت تدري قديش عذبهم، يبي أم مهران زوجة، وهي ما تبدل رجلها الفدائي بكل الزلم بالدنيا، لهذا السبب خلاهم يتركون بيتهم، ويسكنون بهذي الخرابيش."

- أريد أعرف انت من أي شي مخلوق يا شيخ؟

- من لحم ودم وشوية عواطف يا ضرار.

- ما هو مبين.

- إي روح كل جزر وفتّح عيونك زين.

ثم ينهره، وقد أصبح قريباً منه:" ارجع خلفي خطوتين، احترم الشيخ يا ولد."

فيمضيان، يتقدم بضع خطوات عن ضرار، الذي وضع نظارة شمسية سوداء على عينيه، وراح يحرك العود، الذي يظل في فمه طوال الوقت، عند مفترق الشفتين، ينقله من اليمين إلى اليسار، أو بالعكس.

❖

/ أنتظر نجاة أمام حنفية الجامع بعدما اشتريت الخاتم السحري من سوق الأغراض القديمة. عندما تأخرت كثيراً، انقبض قلبي فيما يشبه الرجفة، فرحت أملأ صفيحتي، ثم أفرغها بانتظار أن تجيء مسترجعاً حوارنا الأخير:" صدقني ما رح أعيش كثير."

أسخر منها:" خبَّرك عزرائيل ايمتى موعده معك، ولا بعد؟"

لا ترد. فأردف متعجباً:" شو صرتِ الله يا نجاة؟"

- لا. بس هذا إحساسي.

صمتُّ لا أدري ما أقول، فأردفت:" وتأكد إنك لما بتكون وحدك رح تلاقيني معك."

- سألتها:" معقول؟ كيف؟"

- لأن الشخص اللي بيحبّك بيكون مطرح ما بتكون.

بعد وقت لا أستطيع تقديره بدقة حملت صفيحة الماء باتجاه الزفتية، فرأيت جمعاً عند بيتها، حسبته لمة عرس درغام، لكن قادراً جاء يخبرني بشماتة:" بالغلط صابتها رصاصة براسها من مسدس أبو العريس."

حينئذ استدعي الدكتور حلمي على عجل، جاء بسرعة، وإذ عاينها أمر بنقلها إلى المستشفى فوراً./

- " لما صابتها الرصاصة، وهي ملتفتة على الطريق، انتفضت أول شي، قبل ما تسقط من السطح على الأرض، بعدين صارت ترتعش، وهي عم تتنفس حشرجة، فارتفع البكاء من حواليها، كأنه عويل، يقطع نياط

القلب، ولوقت ما وصلت سيارة الأجرة، اللي نقلتها لمستشفى المجتهد، كان المطرح حواليها صار بحر دم، شربته الأرض دفعة واحدة، ولما حملناها على السيارة حسينا جسمها ما له وزن، كأننا حملنا ثيابها، اللي كانت لابستهن."

هكذا أجمع شهود عيان.

❖

/ مضت نجاة تاركة لي أنفاسها الطيبة، تعبق على ثيابي التي كوتها لي بالأمس، وهأنذا أرتديها اليوم، ليختلط عبقها برائحة جسدي، فأتنفسه على مدى الزمان. يرتسم وجهها على سطح صفيحة الماء كلما ملأتُها من حنفية الجامع، أحدق فيه، فأرى دموعاً متحجرة في مقلتيها، لذا أحمل صفيحتي على كتفي ـ كما عودتني، لأنني شاب، ولست بنتاً ـ ثم أمضي صوب بيتها في ذهول، تصدمني الجدران، كأنني سكران من الصدمة، أو مخبول. حتى إذا ما دخلت إليه، لم أرَ أحداً، فتيقنت أن أمها ـ خوفاً من تهديدات أبي درغام، بدفنهما حيين، هي وابنها لطيف، إن لم تتنازل عن رفع الدعوى بقتله نجاة خلال عرس ابنه ـ قد هربا إلى جهة غير معروفة. وتذكرت ما فعله أبوها سابقاً حين فُصل من التدريس، فهرب إلى بيروت، ليعمل في ورشة بناء، حيث سقط بعد مدة وجيزة، في صبة بيتون عميقة، ولم يستطيعوا سحبه منها.

*أحدس: "**لعل قدر هذه الأسرة أن تعيش حياتها في الهرب طوال الوقت**."*

*كانت السماء صافية، لكن بدا لي السقف يدلف، كأنه يدمع بحزن، فتساءلت في سري: "**هل يبكي أصحابه الذين هجروه؟**"*

أتذكر يوم الفجيعة في فزع موجع....

كنت اشتريت محبساً من سوق الأغراض التقليدية بدمشق، وأحضرت لها شالاً أزرق جميلاً من سوق الحميدية، كي أفاجئها به، بعدما طلبت منها أن تقف على السطح، تترقب الطريق حتى أعود. لذا أُحمِّل نفسي مسؤولية مقتلها، لأني جعلتها تقف هناك، وهي التي لا تحب الأعراس، ولا الوقوف على الأسطحة./

❖

بعدما كانا يمضيان باتجاه سوق الهال للعمل معاً عاد وحيداً، فلقد هرب لطيف مع أمه ولم يُعرف لهما مكان، فراح طلعة يعمل في بيع الخبز اليابس، حاملاً على ظهره كيس خيش، داخله ميزان، يلهث من ثقله، وهو يصيح طوال الوقت:" اللي عنده خبز يابس".

البعض يأخذ منه ثمن الخبز بعد وزنه، والكثيرون لا يأخذون. إلى أن نادته امرأة من نافذة بناية في حي الفحامة:" يا ولد: تعال لعندي."

حين وصل فتحت له الباب فتاة جميلة، تلبس نظارة طبية سميكة، طلبت منه أن ينتظر قليلاً حتى تُجهِّز أمها ما لديها من خبز يابس. بدت مشغولة تفكر بعناء في حل مسألة هندسة، فقال لها على سبيل تزجية الوقت:" ورجيني."

تمنعت بادئ الأمر، لكنها قدمت له دفترها أخيراً، وصمتت تقول داخلها:" **معقول تقدر تحلها يا بياع الخبز اليابس؟**"

لحظات وقال لها:" تفضلي الحل آنسة هدى."

ـ تعرف اسمي؟

ـ مكتوب على الدفتر.

ثم أشارت إلى مسألة ثانية، وثالثة، فرابعة، حتى حل لها مسائل الدرس كلّها. قالت له:" خطك حلو كثير يا..."

ـ طلعة.

وأردف في سرور:" أنتِ أحلى يا هدى."

فانطلقت إلى أمها في سرور غامر:" ماما حليت كل المسائل."

لكن أمها استخفت بما سمعته، وقالت لها في تأثر واضح:" بعد شوي جاي أستاذ الرياضيات، والله بيعينا على أجرة الدروس."

فأكدت قولها، وهي تقدم دفتر وظائف الهندسة لأمها:" حلهن هذا الشب."

ونظرت أم هدى إلى من نادته قبل قليل بالولد، وقد انفرجت أساريرها بابتسامة مشرقة:" أنت أي صف؟"

ـ حادي عشر.

وكانت ابنتها في الصف التاسع.

- شو رأيك تدرّس هدى؟

وافق طلعة، وظل يدرسها حتى نجح في الصف الخاص، فطلب يدها، وطارت من الفرح.

❖

في ساحة باب الجابية بمدينة دمشق، يقعي بعض صبيان الزفتية على مؤخراتهم، أو يقرفصون بعيون حزينة متعبة، سواعدهم مفتولة، وقد راحت شواربهم تخط على شفاههم، يبحثون عن رب عمل يشغلهم، أي شغل مهما كان، فلا يجدون، لذلك يقول أحدهم في ظرافة: "إذاً خلونا نتمشَ لعند الصالحية، وإذا واحد بيعزمنا على فيلم أبي فوق الشجرة ما عندي مانع."

ويسترجعون في حنين أيام السينما الجميلة: "الله يذكرك بالخير يا جهاد."

- بيكون بروسيا كل يوم عم يحضر فيلمين، ثلاثة يا شباب.

❖

/ أرجع إلى بريد موسكو، وتلك الرسالة الطويلة، التي تحدث فيها جهاد عن العاصمة موسكو في شغف حميم:" نظرت إليها نظرة عاشق، أحب فتاته قبل أن يراها يا أيمن:

- مدينة كبيرة.. مليئة بالأشجار.. والرايات الحمراء.. والترامات.. والملابس الزاهية.. والنساء الضاحكات. أما صديقتي فاليا فتتقن العربية بطلاقة.. وتضحك طوال الوقت.. بينما أنا أغمرها بالقبلات وهي تردد في فرح طاغ:" أنتم العرب كالأطفال عندما تحبون."

يخبرها أنه من الجولان، فتسأله بدهشة واستغراب:" أ لست من سورية؟"

- نعم. الجولان جزء من سورية، احتلته إسرائيل عام سبعة وستين يا فاليا.

متمنياً لو أنني معه الآن، فيصحبني لنضع باقة زهور حمراء، عند قدمي بوشكين، المحدق عالياً في السماء. ثم يحدثني عن نظام المعهد الذي تُقدَّم فيه، على مدار السنة، أفلام قديمة وحديثة، تتبعها نقاشات تغنيها. و" تشبع

نهمنا للتعليم. ومن ناحيتي أقضي أيام العطل في بيت الطلبة، أقرأ روائع الأدب العالمي" مفضياً بهذه المعلومة المثيرة:" تصور أن الحمامات هنا مفتوحة على بعضها دون حواجز، فحمامات الطالبات تجاور حمامات الطلاب، بحيث لو خطر ببالك أن تدخلها، فستجد نفسك بينهن، وهن عاريات، ولن يضربنك، أو يصرخن بك، بل سيقمن بدفعك إلى الخارج قائلات:

- عيب عليك."

متحولاً إلى السينما، حبه الكبير:" الفيلم الجيد، كما يعلموننا هنا، هو الذي تخرج منه لتبحث عن أبطاله في حيك، ومدينتك، وربما داخلك أيضاً. لقد أعلن لينين أن السينما هي أكثر الفنون أهمية للسوفييت." ويسألني:

- أتذكُرُ كم شاهدنا أفلاماً في سينما العباسية.. ودمشق.. الشرق.. وعائدة.. الأهرام.. واوغاريت.. السفراء.. والزهراء.. الفردوس.. والخيام.. وحتى سينما النجوم في مخيم فلسطين؟ لا سيما إذا كانت صور المناظر المعلقة عند المدخل مثيرة ومشوقة.

يكمل:" أم تراك نسيت كم كنا نركض من سينما إلى أخرى. وخيبتنا الكبيرة حين نرى تلك اليافطة الملعونة أمام شباك التذاكر، تعلن أنه:" لم يبقَ محلات".

بعد ذلك يسهب كعادته في الأمل:" يا رفيقي ما هي إلا بضع سنوات، وأعود مخرجاً، مصوراتي، كما يقول أبي، بينما تكون أنت كتبت السيناريو، الذي أريده إطلالة واسعة على الزفتية بحيطانها المكونة من اللِّبن المختلط بالقش، بزبل البقر في طرقاتها، ورائحته الواخزة، تفوح على مدى الوقت، من خاناتها المحيطة بها كالسوار، وزواريبها الزاخرة بالمياه الآسنة طوال العام، ويزيد الطين بلة هذا الشتاء القارس لوجود الوحل، الذي يجعلنا نتزحلق كلما خطونا، فنضع حجارة، نقمز عليها مثل الأرانب، أو كالقرود."

متابعاً في محاولة لتنشيط ذاكرتي كعادته:" وإن نسيت لا أنس عندما جاء أخو جارتنا شمسة ليزورها، حاملاً عدة أكياس ورقية، فيها بعض الفاكهة، أذكر أنه كان سميناً، يلهث من التعب، فحملنا عنه تلك

الأكياس، وأوصلناها إلى شمسة، التي وقفت بالباب تنتظره، لكنه لم يصل. فما هي إلا بضع خطوات مشاها في هذا الزاروب، الذي لم يتسع له، حتى شعر بضيق في تنفسه، فما كان منه إلا أن مشى بالعرض، أو على سيفه كما يقال، لكن دون جدوى. لذا مسح جبهته المتصببة عرقاً بكم يمينه ناظراً في حسرة نحو أخته، في نهاية الزاروب الذي يضيق أكثر فأكثر، وعاد أدراجه من حيث أتى./

❖

يجلس حازم على المصطبة وحده، يتلفت حواليه، كمن يبحث عن شيء فقده وإذ تحط الحمامة البيضاء على كتفه يفرح، ثم ينادي أمه. عندما تحضر يقوم بتطييرها، ثم يصطنع صوت هديل متواصل، فتأتي وتقف على كتفه:" شوفي. شو رأيك؟"

- هي حمامة تايه؟

- اي يمه، وصارت توقف على كتفي مثل ما كانت توقف على كتفه زمان.

تحاول مريم أن تصطنع صوت هديل كي تأتي الحمامة إليها، لكنها لا تفعل. فتعلق:" لأنك صاحب تايه هي الحمامة تجي عندك."

تصمت برهة، ثم تضيف:" يمكن عم تسألك عنه يمه."

لقد أحس حازم بالفراغ بعد غياب نجمة، التي كان يلعب معها، وطغى صمت ثقيل من حوله، لا سيما بعدما افتقد تايه، الذي اختفى فجأة دون أن يودعه، تاركاً له شبابته كي يتذكره:" **ومين يقدر ينساك يا تايه؟**"

❖

مجموعتا أطفال في حالة حرب، يحملون بنادق خشبية، إحداهما في الأعلى، والأخرى في أسفل الجورة الواسعة، التي بنيت فيها مجموعة بيوت، أسقفها من التنك، أو خشب السحاحير، وأحياناً من الكرتون، يسميها أولاد الزفتية "عشش" ومن يسكنها "عبيد" لأنهم سود، نحيلون جداً، وجوههم يابسة على الدوام، لم يستطيعوا السكن في الزفتية، فنزلوا إلى الجورة، التي كانت خرابة، ترمى فيها البقايا، والأنقاض. مع ذلك لم يخالطهم، أو يتعامل معهم، أحد من أهالي الزفتية، فظلوا مثل نبات في صحراء، يلعقون

الملح، ويسفُّون الغبار.

وبينما يوجِّه الأطفال في الجورة، وهم حاسرو الرؤوس، يغطون عيونهم اليسرى بعصابات سوداء، بنادقهم نحو الأعلى، كأنهم يتصيدون الفدائيين، يصرخ الأطفال، الذين يلبسون الشماغات الحمراء، بأصوات عالية:" الله أكبر. ثورة حتى النصر."

ثم يلقون الحجارة، المفترض أنها قنابل في ضعف واضح، فيلتقط الأطفال في الجورة الكثير منها. ويتحسر أحدهم في مرارة:" **وينك، يا فدائي مهران، لتدربنا."**

❖

يهرب الأولاد من طريق الشيخ سليم، ما إن يظهر متخبطاً في مشيته كالعادة، لكنه فجأة يتعثر بجورة على الطريق، ويقع أرضاً. فيأتون، ويأخذون بيده، ثم يوقفونه، فيسألهم:" انتو من الحقلة. صحيح؟"

ـ مالك شايفنا شيخ سليم؟

ـ أنا هلق أعمى تماماً يا أولادي. هي إرادة الله سبحانه وتعالى.

ثم يعاود خلال الطريق الطويل إلى الجامع سؤالهم:" ما قلتولي منين انتو؟"

يتجرأ أحدهم، ويجيبه:" من الزفتية."

يستهجن في صلف:" كيف؟ يعني نازحين؟"

ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عدة مرات، فلا ينبسون بحرف، بينما يأخذ طريقه بعدما انتفض رافضاً أن يقودوه.

بعد خطوات يعاود السقوط متعثراً بحجر موضوع إلى جوار أحد البيوت، فيتقدمون مسرعين، ليوقفوه على قدميه، ويحضرون عصاه التي طارت بعيداً عنه، مع ذلك يتملص من بينهم، ليمضي وحده. لكن ما إن يكاد يسقط مجدداً حتى يسندوه ـ هذه المرة ـ من جنبيه، بينما ينفض بعضهم الغبار عن قمبازه:" ع الجامع شيخ سليم. مظبوط؟"

وهكذا يبقون حواليه، حتى يوصلوه إلى باب الجامع، ويصعدون معه درجاته الثلاث، إذ إنه كلما دخله، وهو يشخص بنظره الواهن إلى الأعلى، تعثر بهذه الدرجات، كأنه لا يريد الاعتراف بوجودها....

وكان الأطفال، حين يشاهدونه كذلك، يضحكون ببراءتهم المعتادة، فيستغفر ربه قائلاً:" هذا عقاب الله لنا بسبب وجود النازحين بيناتنا."

بعد ذلك يسلمونه العتبة، ويعودون صامتين. غير أنه يناديهم:" يا أولاد إذا بدكم تفوتوا على الجامع فوتوا. هذا بيت الله."

❖

تمشط مريم شعرحازم بيديها الحانيتين، وهي تدندن بصوتها العذب أغنية فيروز:" يللا تنام ريما..."

تحتضنه في لهفة غامرة، وهي تكمل بصوت عذب حنون:" روح يا حازم لا تصدق بضحك ع بابا تا ينام..."

ينظر إليها مبتسماً، وهي تنطق اسمه في الأغنية، التي تكررها مراراً، فتعلق:" هي الأغنية كنا أنا وأبوك نغنيها."

إذ تنتبه إليه بعد قليل تجده قد نام، فتطبع عدة قبلات على شعره، ثم تستلقي إلى جواره، مستعيدة ذكرى والده، الدكتور عزمي العايش، الذي تخاطبه، كأنه حاضر معها الآن:" شعره ناعم مثل شعرك يا عزمي."

❖

/ أخيراً صدق توقع جهاد بخصوص صاحب معمل الصابون أبي هشام، الذي أخبرته بتصرفاته الوقحة مع بعض الفتيات اللواتي يأتين بمفردهن إلى معمله، وذلك خلال عملي في تعبئة أكياس البرش، مساء كل يوم خميس، حيث رد في إحدى رسائله بعبارة موجزة:" ستكون نهايته بشعة يا صديقي"....

فعندما تعطلت حنفية الجامع، وطالت فترة إصلاحها، اُضطرت امتياز - أجمل وأذكى فتاة في الزفتية حسب رأي الجميع - لمسايرته، حتى لا يظل يرفع صوته الأخن كلما رآها من غرفة إدارته المشرفة على الطريق، وهو يردد:" الله يوفّق لنصفّق." فيغلق الحارس أبو رعد باب المعمل في وجهها، ووجوه الفتيات اللواتي معها مما جعلهن - مع الزمن - يرفضن مرافقتها لتعبئة الماء، لأنهن سوف يجدن باب المعمل مغلقاً في وجوههن. لكنه تمادى معها، ولم يكتف ببضع قبلات، تنشط دورته الدموية كما يزعم عادة. بل أراد أن يثأر منها لأنها خدعته، أو ضحكت عليه، وعاملته كولد صغير، حسب

تعبيره، فدبر مكيدة محكمة، واستفرد بها مستغلاً هرب أخيها ياسين من وجه أجهزة الأمن إلى لبنان، بعد تورطه في الدفاع عن شخص، اعتدى عليه ثلاثة لصوص، بقصد سلبه دراجته النارية، فأصاب إثنين منهم بجروح، ومات الثالث في المشفى. ولم تخبر امتياز أحداً، اللهم إلا أمها التي استدعت ياسيناً، فخرج من لبنان مثلما دخله ـ ومثلما سيعود إليه ـ عن طريق التهريب، لتصحو الزفتية على مشهد فظيع لأبي هشام، مرمياً تحت حنفية معمله، موثوق الذراعين خلف ظهره، وقد حُشر لوح صابون في فمه الكبير، وغُرزت سكين طويلة في عضوه التناسلي، اخترقت خصيتيه، ليظل ينزف طوال الليل، في ألم شديد لا يحتمل، وفق ما جاء في التقرير الجنائي عن الحادثة، التي قيدت ضد مجهول./

❖

صباحاً تُلبس مريم حازماً ثيابه المدرسية الجديدة، فيطفح وجهها بالبشر، وهي تقول له في سرور: " والله صرت بالمدرسة يا حازم."

ثم تردف: " يعني صار لازم تسرِّح شعرك، تقص أظافرك، و تعرف تربط بوطك لوحدك."

إذ تراه يمتعض من ربط بوطه توضح له: " بركي فلت، وإنت بالمدرسة، مين بدو يربط لك ياه يا أفندي؟"

تكمل: " ولازم تدرس دروسك أول بأول، حتى تصير دكتور."

ـ بس أنا بدي أصير ضابط مثل أبوي.

وابتسمت، لكنها تفاجأت به يتابع كلامه: " صحيح أبوي دكتور، بس خبرني الفدائي مهران إنه راح على الجيش، برتبة ضابط، مشان يحرر فلسطين، وأنا شفت صورته لابس بدلته العسكرية، وفي نجمة على كتفه. مظبوط يمه؟"

تهز رأسها بالإيجاب. ثم تمسك بيده، وقد ارتدى صدارة مدرسية، يحمل حقيبة صغيرة، تحتوي كتاباً ودفتراً وقلماً.

بعد خطوتين يترك يدها، وهو يرفع صوته قائلاً في ثقة: " وبدي أروح على فلسطين مثل أبوي."

ثم يمضي في طريقه إلى مدرسة يوسف العظمة...

الدفتر الثالث

مازال اسمها القنيطرة

(سفر الحرب)

"عيد بلادي بعسكرها
ونعمرها ونعليها

يا رب يدوم العيد
وتزغرد البواريد"

◆أغنية لمصطفى نصري

لمين العيد

لم تكن طريق العودة هي طريق النزوح بالضرورة: أشجار.. ومساكن على اليمين.. بقايا أعتدة حربية مدمرة.. عشب محروق.. إنها رائحة المعركة. وكلما امتدت بنا الطريق نحو مدينة القنيطرة.. ومنها إلى فلسطين.. فهي الهدف والمرتجى.. استعاد النازحون لحظات هاربة من الذاكرة....

لقد تركوا أشجار الزيتون.. والتين.. والتفاح.. والرمان.. والتوت.. والكرمة بلا سقاية.. بقراتهم لم يُعِدُّوا لها المعالف كما اعتادوا.. قطعان أغنامهم.. تبحث عن رعاتها حتى الآن.. دجاجاتهم داخل الأقنان الموصدة.. وأصص حبقهم عند مداخل البيوت.. يخنقها الإهمال.

كانوا هناك يحرثون ويزرعون.. فيأتي الغيم مدراراً.. ينتظرون البذرة حتى تصبح ثمراً شهياً.. أرض خصبة معطاء، تجود بمواسم الخير، ليأكل الناس أطيب الطعام، ويكون جني المحصول علامة مميزة، تتوجها ولادة طفل جميل، يسير على خطى والديه في حب الأرض وفلاحتها، ورعاية الأغنام ومحبتها، حيث ولادة خروف مدعاة للبهجة، والفرح بالخير القادم.

تقول الجغرافيا: " في جنوب الجولان يأتي الربيع باكراً، وعند وسطه يأتي في الوقت المعتاد، ويأتي متأخراً في شماله، ما يجعلها، أقصد منطقة الجولان، ربيعاً دائماً."

يستعيدون خروجهم لقطف الفطر الذي يكثر أيام الضباب والرعد. طبول تدق.. مزامير تصدح.. والخيل تلعب في أثناء الأعراس.

والآن نشاهد مجموعة خراف صغيرة ترعى عشباً أخضر على طرف الطريق.. رتل أبقار يسير في شكل غير منتظم.. بساتين مترامية من أشجار باسقة.. قطيع ماعز يلهو خلف راعية حسناء.. أصص زهور متنوعة أمام

البيوت.. وبضع دجاجات.. بينها يتبختر ديك بلدي.. يعرض ريشه الملون في خيلاء.. وآخر أسود.. يلاحق الدجاجات.. ويهربن منه.. هواء مفعم بالأوكسجين الطازج.. نشتمه في انتعاش.. وعلى البعد ينتصب جبل الشيخ معتمراً قبعة بيضاء.. ذاب جزء منها.. وثمة مرصد.. يقبع على إحدى قممه.. لقد شهد معارك ضارية خلال حرب تشرين.. ولسوء الحظ كان الثلج سنتها كثيفاً.. البرد قارساً جداً.. ولا أدري كيف احتمل مقاتلونا الأبطال ذلك الصقيع القاتل مع نقص المؤونة.. وانقطاع الإمدادات عنهم.

أشجار حراجية من سرو.. وصنوبر.. وكينا.. وعلى البعد قرى كانت تضج بالحيوية قبل الاحتلال.. تغص الآن بالصمت والخراب.. بينما الأسلاك الشائكة.. تفصل ما بين طرفي وطن واحد.. وتراب واحد. تلك على مرأى النظر سنبلة.. تقف بزهو منتصبة بين تلك الأسلاك.. تعِد بنهار قادم.. بلا أسلاك....

انتبذت شمس القنيطرة مكانها اللائق في السماء.. مثل قرص من فضة.. فاطمأنت القلوب.. وتهللت النفوس.. لمع الفرح في العيون التي كانت شاحبة تذوي قبل بعض الوقت.. وأزهرت في نفوسنا الآمال:" **غداً نعود إلى القدس.. وكل فلسطين."**

تتسع مدينة القنيطرة، لتشمل الوطن كله.. فتعم الفرحة أرجاء سورية من أقصاها إلى أقصاها بتحريرها، وانسحاب المحتل الإسرائيلي عنها.. وينتظر الوطن.. كل الوطن بقايا نهار.. يكتمل.. لا ريب في ذلك.. بعد حين....

زحف أبناء الجولان.. رجالاً ونساء.. صغاراً وكباراً.. في موكب مهيب.. ليشهدوا عرس عاصمة جولانهم.. وحاضرته الأثيرة إلى قلوبهم.. بعد سبع عجاف من الاحتلال البغيض.. فظهر رتل طويل من الحافلات الكبيرة والصغيرة.. اكتظت بالمواطنين الذين ذهلوا عندما دخلوا مدينة القنيطرة.. فأجهشت النساء بالبكاء المرير.. بينما ارتسم الحزن على وجوه الرجال.. وهم يشاهدون مدينتهم مخربة.. تحولت إلى بقايا وأنقاض.. إذ قام جيش الاحتلال قبيل انسحابه منها مرغماً بهدمها بواسطة البلدوزرات والجرافات.. وعبر النسف بالديناميت أيضاً.. بشكل متعمد وسافر.. ضارباً عرض الحائط بكل

الأعراف والمواثيق الدولية. لكن وعلى الرغم من مخاطر وجود ألغام.. وقنابل موقوتة.. زرعها العدو الحاقد.. قصد أبناء المدينة منازلهم.. ليقبلوا عتباتها.. ثم افترشوا الأرض إلى جوارها.. وهم يمسحون دموع الفرح بتحريرها.. ودموع الحزن والألم لأنها مدمرة بهذه الهمجية البغيضة.

❖

يرى حازم أمه، تنظر نحو البعيد، فيباغتها بالسؤال:" ليش زعَّلتِ تايه يمه؟"

لا ترد عليه. لكنها تسترجع الموقف الحزين....

لقد هدأت نفسه بعدما عمل عند تاجر الجملة أبي جميل مدققاً لحسابات متجره في سوق الجزماتية، فراح يراقبها عن كثب. وهي تعود من عملها المجهد في مزرعة أبي محروس، ثم اقترب منها متجاسراً، على غير عادته:

- ست مريم: صرت أشتغل، وفيكِ تعتمدي عليِّ، تتزوجيني؟

وتبهت، فتنتفض مصدومة:" وزوجي؟"

- كل الناس بيقولوا إنه مات.

- لا يا تايه: الدكتور عزمي عايش، ورح يرجع.

ثم تروح في بكاء مرير كالنواح، يمزق القلب. فينسحب صامتاً، كأنما فقد النطق، مستشعراً الندم العميق، وسط نظراته المنكسرة نحو الأرض.

خطوات كأنها القهقرى، وهو يحاول كتم آلامه، حتى لا يصرخ، ثم يركض بأقصى سرعة، كما هي عادته، كلما انزعج.

تتابع مريم في حرقة موجعة، وهي تبوح بالحقيقة المرة إلى ابنها، الذي مضى يلوِّح بعلمه ذي النسر الذهبي، تسابقه الحمامة البيضاء غير عابئ بسماع الجواب على سؤاله الذي طرحه قبل قليل:

- وهيك راح تايه. وماعاد رجع يا حازم.

❖

يعاين الصحفي موفق جداراً عليه كتابة بالعبرية، فيسأله المصور ميشيل:" مين كاتبها؟"

- عسكري إسرائيلي.

ثم يسجل ميشيل العبارة مترجمة بصوته الجهوري إلى العربية:" ولدت تعباناً، وأتمنى لو أنني أعيش الآن حياة جديدة. أعطوا فرصة للسلام والراحة، ولا تصنعوا حرباً جديدة.

التوقيع يهودا"

❖

بدت مدينة القنيطرة بحراً زاخراً، يموج بالمواطنين من كل أنحاء سورية، والوطن العربي. ثمة رجل مقعد، على كرسي متحرك، تجره ابنته الشابة باتجاه الساحة العامة، حيث سيرفع السيد الرئيس العلم السوري، بينما تظهر بضع طائرات هيلوكوبتر في الجو، ترفع أعلام صنوف أسلحة الجيش: مدفعية ميدان وطيران، مشاة ومدرعات، دفاع جوي وبحرية... ويتابع النقيب ناجي ذكرياته عن تلك الأيام قبل حرب تشرين المجيدة:" لقد كنا نتراجع، يوماً بعد يوم، عن الحرب، حتى ظننت أننا لو خضناها فقد تحتل الأراضي التي نحن عليها، إلى أن بدأت حرب الاستنزاف الأولى عام 70: أذكر الاشتباكات التي امتدت لثلاثة أيام من 24 إلى 27 حزيران في ذلك العام حين نفذت قواتنا هجمات مدرعة قوية، واحتلت نقطة الاستناد المعادية في تل شعاف السنديان، فرد العدو بقصف جوي ومدفعي، استمر ليومين متاليين على جميع نقاط استنادنا في الحد الأمامي، كما نفذ هجمة بقوة لواء مدرع، تم صدها باستخدام فوج مدرع من الفرقة الخامسة مشاة، وغيرها كثير، قام خلالها الطيران المعادي بقصف منشآتنا الاقتصادية، ومراكز التدريب العسكرية في العمق، حيث وقعت أكبر خسائرنا البشرية عندما استهدف مدرسة المدفعية في قطنا... وفي حين توقفت حرب الاستنزاف التي بدأت يوم 8 آذار 1969 على الجبهة المصرية بقبول مبادرة روجرز في 24 حزيران 1970 استمرت على جبهتنا حتى منتصف كانون الثاني عام 73. وحقيقة لولا حرب الاستنزاف هذه ما كانت حرب تشرين الأول/ أكتوبر 73.

يتلمس ندوباً، مازالت على وجهه، من آثار قذيفة إسرائيلية، مرت قرب رأسه، وقتلت سائقه المجند شريف، بعد لحظات من استشهاد المقدم أسامة قائد كتيبة الاستطلاع، ثم يقول وسط غشاوة من الدمع: "الله يرحمك يا مقدم أسامة، ويرحمك يا مجند شريف." مردفاً في شغف حميم:

ـ مساء اليوم الأول للحرب وصلنا إلى السفح المنحدر باتجاه بحيرة طبريا، ووددت أن أخوض في مياهها، التي كانت تلمع أمامي، كأنها سطح مرآة صقيلة، كي أغتسل من آثار حزن، تحملته منذ أكثر من ست سنوات، لكن قذيفة جعلتني أنقذف من السيارة، فأهوي على الأرض. لقد وجدنا أنفسنا تحت مرمى القذائف المعادية، كأنهم كانوا بانتظارنا، وحين اقتربنا أكثر طالنا رصاصهم المنصب علينا بغزارة وتركيز، فأخذت أبتعد عن مرماه. حينذاك نظرت حولي، فرأيت زهوراً بيضاء مصبوغة بدماء الرفاق الذين استشهدوا على الطريق إلى تلك البحيرة. أذكر أننا استطعنا سحب واحد منهم، وهو جريح يتلوى من الألم، وجدت في جنبته، التي نسيها في أرض المعركة، دفتراً، أكلت رصاصة جزءاً منه، وصبغه الدم بلون أحمر. بعد فترة طويلة أُخبرتُ أنه استشهد في إحدى المعارك، وأُرسل إلي هذا الدفتر ثانية."

❖

/ أحضر لي النقيب ناجي هذا الدفتر، الذي بدت سطوره متقطعة، كأنها كتبت على مراحل متباعدة، وصفحاته غير مكتملة، إذ تجد نصف صفحة أحياناً مقابل صفحة فيها سطران فقط، مع بعض الرسوم الموزعة هنا وهناك، قائلاً: "ما بعرف مين صاحبه، ما فيه لا اسم، ولا عنوان، خذه بركي تكتب قصة عن الحرب."

لحظتها خطر في ذهني أن أعنونه: مذكرات مصبوغة بالدم، وأضع سطوره، المكتوبة بخط غامق، بين هلالين./

(لطالما تخيلت نفسي ضابطاً، كما تمنى والدي، فقررت، قبل أن تبدأ الحرب، أن أتطوع في الجيش، مع أني معفى من الخدمة الإلزامية، لأني وحيد. وخشية أن لا يقبلوني سمّكت قاعدة حذاء القدم اليسرى، ورفعت

اليمنى، إذ كنت أشكو من قصر في رجلي اليسرى، يجعلني أعرج قليلاً، مما يشعرني بالتعب نتيجة الوقوف الطويل أمام الطلاب، وهم يرسمون. لكن الأستاذ فتحي الحاج سعيد يخفف عني كثيراً، لا سيما، وهو يدعوني للاستماع إلى أنشودة زهرة المدائن، أو أحلف بسماها وبترابها.

والآن أحس بأنني كبرت عشرة أعوام، وأنا أعيش أحداث هذه الحرب التي استطعنا في ساعاتها الست الأولى خرق خطوط العدو، والتغلغل في قلب دفاعاته الحصينة....

بدأت قواتنا هجومها الساعة 14 من يوم السبت 10 رمضان 1393 هجرية الموافق 6 تشرين الأول 1973ميلادية بقصف جوي شاركت فيه حوالي 100 طائرة، وتمهيد مدفعي، شارك فيه 1152 مدفعاً وهاوناً، وسيطرت وحدة خاصة من المغاوير، أنزلت بالحوامات على مرصد جبل الشيخ الحصين، ورفعت فوقه العلم السوري، كما تمكنت قواتنا من اختراق خط دفاع العدو المحصن ـ ـداً، المسمى خط آلون خلال ساعتين وعشر دقائق، وهو الخط الذي عُدَّ، مع خط بارليف على الجبهة المصرية، أكثر تحصيناً من أقوى الخطوط العسكرية في الحرب العالمية الثانية.

وإن كانت خطط العدو السابقة أن يقتحم مواقعنا بدباباته دون أن يقيم وزناً لقوات المشاة، فقد فاجأناه إذ تحوَّل كل منا إلى قذيفة، تدمر دروعه ودباباته....

لقد كان جنودنا الأبطال يتسابقون إلى مكامن الخطر بلا خوف، وكيف أنسى صور الجرحى الذين ظلوا يقاتلون رغم دمائهم النازفة. إن صورهم لتتحفر في ذاكرتي، لا أستطيع نسيانها. وأقول لكم: أشعر أنني ولدت إنساناً جديداً بإرادة لا تلين، وأنا أسمع صوت الأرض في جولاننا الحبيب تهتف بي من الأعماق:" طهرني من دنسهم يا ولدي، أعدني إلى حماك.")

❖

/ لوهلة استرجعتُ أيام الزفتية، وتأكدت أنه الأستاذ عامر....

في المدرسة كان يصمت طويلاً، وهو وسط الأساتذة، لكن عندما

يتحدث تنبعث المودة من أنفاسه، وتتكشف المحبة في عمق نظراته، فإذا ما ضحك ضحك ملءَ فمه، حتى يبعث المرح بين مجالسيه.

وفي الصف، خلال حصة الرسم والأشغال، كان يحدثنا عن الفارق بين الرسام والفنان: "كلاهما يرسم وردة جميلة. لكن الفنان هو الذي يشعركم برائحتها يا شباب".

ثم يحثنا أن نرسم طائرات الميغ والسوخوي، أو نشكلها من المعجون، والكرتون، والجبصين، والخشب، وهو يعرفنا على بعض مزاياها مقارنة مع طائرات العدو: "هذه طائراتنا التي تحمينا، وتدمر عدونا، احفظوا أشكالها"....

منذ ذلك الوقت شاعت أشكال تلك الطائرات بيننا، فرحنا، أقصد صبيان الزفتية، نشتري بعض نماذجها المصنعة من الألمنيوم أو النحاس على شاكلة حمالة مفاتيح من سوق الحميدية، وأصبح كثير من السيارات، والحافلات العامة، والخاصة أيضاً، يضع هذه النماذج الأكبر حجماً على مقدماتها بكل فخر واعتزاز.

يحدد الأستاذ عامر على خارطة سورية مواقع القرى المحتلة في الجولان ومدينتي فيق والقنيطرة قائلاً: "تنتعش روحي كلما خطرت هذه الأسماء على لساني يا شباب".

كنا نحس بحبه للجيش، فلطالما حضنا على التطوع، حتى أنه أخبرنا مراراً برغبته في ذلك، وسألناه: "لماذا؟"

ـ لا تنسوا أني من مدينة القنيطرة، عاصمة الجولان المحتل، وعندي بناية فيها.

ـ احك لنا عنها يا أستاذ.

ـ ضيعة كبيرة.. بيوتها حلوة.. بنياتها سطوحها قرميد أحمر.. محلات بيع كثيرة.. أربع جوامع.. وكنيستان.. مستشفى كبير اسمه مشفى الجولان.. أحياء بأسماء الناس القاطنين فيها.. كحي العرب.. وحي الشيشان.. وحي الشركس.. وحي النهضة.. وحي النصارى.. مدارس عديدة منها ثانوية أحمد مريود التي درست فيها.. نوادٍ رياضية متنوعة.. وطبعاً مثل أي مدينة.. شوارع..

وحدائق.. وشجر أخضر.

يتابع في وجد مفعم، ولسان فصيح:" فيها زهور.. وعصافير تطير طليقة في سماء من البهجة والفرح.. ماؤها يترقرق صافياً منعشاً.. وثمة أناس أحبوا مدينتهم.. وأحبتهم.. فخلفوا ظلالهم.. ومضوا ميتين في هناء ـ لعله يقصد أجداده، وأجداد أجداده ـ لأن الأرض اللطيفة اللدنة أرضَهم ستحتضن أجسادهم بحميمية وحنان."

يكمل كما بدأ:" فيها بنك.. مقاه عديدة.. وصالة عرض أفلام اسمها سينما الأندلس.. لكن مسرح لا يوجد" ....

بعد حرب ال 48 تحولت الجولان إلى جبهة مواجهة، فازداد عدد سكان مدينة القنيطرة، المدنيين والعسكريين، وصارت مثالاً يحتذى للتعايش المشترك بين سكانها الأصليين، والجماعات الوافدة إليها.

يتنهد في مرارة، وهو يحكي لنا عن أسرة وافدة، سكنت إلى جوارهم:" انتهوا من بناء بيتهم قبل أيام قليلة من اشتعال حرب حزيران عام 67، ويوم بدئها ذهب الوالد منذ الصباح الباكر لشراء ثلاثة أسرة لأولاده الصغار، لكنهم لم يهنؤوا بالإقامة في ذلك البيت، ولا افترش الأولاد الأسرة الجديدة."

يتابع الأستاذ عامر في حماس:" الناس بالقنيطرة متنوعون: عرب.. تركمان.. شركس.. مسيحيون.. أرمن.. وأكراد.. وغيرهم.. وقد عاشوا مع بعضهم بمحبة.. ووئام.. الجامع إلى جانب الكنيسة.. والكل متآلفون."

أخيراً يردف:" تذكرت: فيها نصب تذكاري للجندي المجهول، ومقبرة كبيرة للشهداء."

ولم نكن نعلم أنه يريد الثأر لوالديه، اللذين قتلتهما قذيفة نابالم إسرائيلية./

(تُعتصر ذاكرتي ألماً موجعاً، وأنا أسترجع صورة والديَّ اللذين قُتلا: كان ذلك في طريق النزوح من القنيطرة إلى دمشق، ركبنا السيارة، أمي ترتعد من الخوف، متوجسة الموت في كل خطوة، وأبي يقول لها:" لا تدري نفس بأي أرض تموت يا أم عامر.")

6 تشرين الأول/ أكتوبر

لأن دقيقة العمل تساوي ستين ثانية
من الجهد المبذول

لم يظهر في شوارع دمشق ما يوحي بوقوع حرب، كان النهار صاحياً جميلاً، كأنه هارب من الصيف، انطلق المواطنون إلى أعمالهم كالمعتاد، وطلاب المدارس يستقبلون أول أيام الأسبوع. لكن عندما رجع حازم من مدرسته مبكراً هرعت مريم إلى مذياعها التوشيبا، الموضوع في محفظته الجلدية، فإذا الإذاعة تبث بشكل اعتيادي. حتى تلك الساعة، من الظهيرة، إذ قطعت برامجها، لتذيع البلاغ التالي:" في الساعة الرابعة عشرة من بعد ظهر اليوم بدأت قوات العدو بالاعتداء على مواقعنا الأمامية على طول خط إطلاق النار، وتقوم قواتنا بالرد على مصادر النيران، وإسكاتها، هذا وماتزال الاشتباكات مستمرة حتى الآن."

❖

وعرف المواطنون في هذا التجمع الصغير للنازحين، الذين اجتمعوا في مقهى الجولان، أن المعركة بدأت على الجبهتين معاً، حين أعلنت إذاعة القاهرة ما يلي:" قام العدو بمهاجمة قواتنا بمنطقتي الزعفرانة، والسخنة في خليج السويس، وتقوم قواتنا بالتصدي للقوات المغيرة."

ليتعالى هتافهم في فرح طاغ:" الله أكبر، الله أكبر" مع سماعهم أننا أوقفنا هجوم العدو على جبهتنا، وقد تمكنت وحداتنا الخاصة من السيطرة

على مرصد جبل الشيخ الحصين، كما حررت قواتنا الباسلة عدداً من القرى المحتلة في هضبة الجولان.

وعلى جبهة سيناء استطاعت القوات المصرية تركيب ثمانية جسور ثقيلة لعبور الدبابات، وأربعة خفيفة، كما فتحت 80 ثغرة في الساتر الرملي الضخم لخط بارليف، بعدما قامت باقتحام قناة السويس، ومطاردة العدو في بعض المناطق على الضفة الشرقية، حيث رُفع العلم المصري فوقها.

ويسرع الصحفي موفق كي يسجل أحاديث المواطنين، الذين راحوا يحتفظون بقطع من طائرات العدو، التي تساقطت بكثرة فوق مدينة دمشق، ليصنعوا منها تذكارات لأيام العزة، والفخار، بينما ميشيل يصور مشاهد حطام تلك الطائرات من طراز فانتوم، وميراج، وسكاي هوك....

من قبلُ: كان رواد مقهى الجولان يتجاذبون أطراف الحديث في مواضيع شتى، ويَحْدُثُ أن يقول أحدهم متعللاً:" اسرائيل مدعومة معها بريطانيا، وفرنسا، وأميركا."

يضيف آخر في غصة، وتحسر:" ما فينا عليها يا جماعة".

بالفعل كان الشك ينخر فينا، حتى نكذب أنفسنا، بما نراه يقيناً أمام أعيننا، فربما لم يصدق الكثيرون البيان العسكري الأول حول بدء الحرب، واعتقد بعضهم أنها مزحة، أو مقطع من تمثيلية.

وسابقاً كان يستعجل أبو معروف الوصول إلى خشته، حيث يجد بشرى، جهزت له الطعام. فيأكل، ثم يُمضي الوقت ساهراً، في متابعة نشرات الأخبار عبر مذياعه الصغير، الذي لا يفارقه. أما اليوم، فجاء إلى مقهى الجولان، الهادر كخلية النحل الآن، بعدما سبقه إليه تايه لمتابعة الأخبار عن سير العمليات القتالية، على الجبهتين السورية والمصرية، من خلال التلفاز الذي استحضروه خصيصاً لمتابعة مجريات الحرب.

هو ذا يقلع عن حمل عصاه، التي لم تكن تفارقه، بعدما أحس نفسه شاباً يافعاً، ويتوجه بالحديث إلى تايه الجالس قبالته، ناظراً إليه في ابتسامة مشرقة:" وجهك حلو علينا يا تايه"....

بعدما غادر منزل مريم راح يركض، لا يلوي على شيء، فشاهد هذا

العجوز، وقد انزلقت عربته عن الطريق. آنئذ تقدم لمساعدته. لكن العربة الموهنة لم تتحرك إلا مع حضور سيارة عسكرية، تجر خلفها مدفعاً مضاداً للطائرات، جلست حوله مجموعة من الجنود، اندفعوا نحو العربة بعزيمة وإصرار، من أجل أن يفسحوا الطريق لمدفعهم كي يمر. بينما انزوى ضابطان يتحادثان:" تعودنا على هذه الاستنفارات. يا ملازم مصطفى."

- معك حق: كل شي هيك بيوحي لك. بس الحقيقة غير.

- شو بتقصد؟

- حاسس هذه المرة مو مثل غيرها يا سيدي.

واستشهد الملازم مصطفى بما سمعه من أقربائه المتنفذين في الجيش عن استعدادات للحرب تشهدها الجبهة منذ حين. فما كان من الملازم الأول حسام إلا أن صاح بجنوده، يحثهم على الاستعجال:" بسرعة يا شباب. خلينا نلحق."

بعد ذلك امتطى الجنود سيارتهم من جديد. وصعدا إلى جوار السائق، وقد اعتلت الفرحة وجه الملازم الأول حسام، كأنما عاد الدم إليه من جديد. بينما بقي تايه واقفاً. فناداه أبو معروف:" اصعد، لأوصلك بطريقي"....

عادة يسير أبو معروف في الدروب الطويلة، وبين الأزقة الضيقة، كي يلتقط رزقه، فلا يعود، آخرَ النهار، إلا منهكاً، أتعبه التداول مع النسوة، والفتيات زبونات بسطته، في حر الصيف، أو برد الشتاء، فتبدو له الحياة دوامة، قلما تبتسم لمثله من الفقراء النازحين عن أرضهم التي احتلتها إسرائيل عام 67.

صعد تايه، وارتمى إلى جواره، بعدما أنهكه ركضه الطويل، وجف حلقه، فقدم له أبو معروف شربة ماء.

حين أخبره أنه بلا مأوى، ويبحث عن أي عمل، اقترح عليه أن يساعده في البيع على بسطته، وأشار بيده إليها، موضوعة في صندوق العربة الخلفي، حيث لوازم الخياطة: إبر، دبابيس، شكالات، كباسات، مطاط. وحاجات الزينة: قوارير لطلاء الأظافر، علب حمرة، أقراط معدنية، وبلاستيكية، مع شرائط ملونة: بيضاء، وزرقاء، وحمراء، لتربط بها البنات ضفائرهن،

وملاقط شعر أيضاً. ثم ينام عنده في تلك الخشة، التي يضع داخلها بسطته. فوافق تايه بترحاب، ناظراً إلى صندوق العربة مجدداً، حيث بدت له خارطة ملصقة داخلها، وكأن ضوءاً ينبثق منها. فجأة تمتد يد أبي معروف إلى مذياعه الصغير، فإذا راديو العدو يعلن درجات الحرارة في كل من اورشليم القدس.. هضبة الجولان.. وسيناء، فأدار المؤشر بسرعة، كمن لدغته عقرب، ليصدح وديع الصافي بصوته الجبلي من إذاعة دمشق:" اليوم لا غدا/ فلنسحق العدا..."

وينظر إلى تايه، يسأله:" قولتك إسا في مطر؟"

- يا ريتها تشتي يا عم.

فيبتسم أبو معروف مستبشراً، وهو ينقل المؤشر إلى إذاعة صوت العرب، فيهدر نشيد الحرب:" خلي السلاح صاحي..."

تمضي الأيام عصيبة، لا تُحتمل، وهو يعيش وسط هذا التجمع الصغير للنازحين، مع ابنته بشرى التي تخيط ثوبها الوردي، انتظاراً ليوم الزفاف الموعود، داخل مساكن ضيقة مكتظة: غرف كعلب الكبريت، ودورات مياه يدخلونها، كل حسب دوره بعد انتظار طويل....

لقد اجتثوا من حضن قراهم الرحيبة في الجولان، فتاهت بهم جهات الأرض حسب هوجاء الرياح، فهنالك حتى في الجنازة كان المشيعون يحملون الجثمان على أكتافهم، ثم يمضون به خلال الهواء الطلق صوب المقبرة الفسيحة، حيث يستقر الجسد في حضن التراب الحميم، أمَّا هنا فتضيق الزواريب حتى لمرور النعش. هذا إن وجدوا مكاناً، يدفنون فيه جثامين موتاهم وشهدائهم. مصيدة الغربة والتشرد هذا الواقع اللعين: لقد اغتصب دحام الورع ابنة عمه، واعتدى خليل التقي على ابن أخيه القاصر، بينما صار أبو منعم فوق الريح، مردداً طوال الوقت:" يا سيدي التهريب ذهب."

وينظر من باب دكانه إلى مدخل الزاروب الضيق خشية أن تدهمه دورية الشرطة قبل أن يودع البضائع المهربة في غرفته الخلفية الملحقة بالجامع.

❖

حين وصلا إلى أحد التجمعات الشعبية أنزل تايه البسطة، ثم انزوى تحت شجرة قريبة. بعد قليل التأمت حلقة الفتيات حول أبي معروف:" عندك خواتم خطبة؟"

- ما فيش.

- أساور؟

- كمان ما فيش.

وبينما تشتري امرأة بعض حاجات الخياطة، وأخرى مجموعة أشرطة ملونة، لتزين جدائل بناتها الخمس، يروح منهياً البيع، فيُدخل البسطة إلى العربة، وهو يوجه كلامه للفتيات اللواتي سألنه عن الخواتم والأساور، قائلاً في غضب ظاهر:" لا محابس، ولا أساور، قبل ما نرجع على بلادنا. فهمتن يا بنات؟"

يستند إلى عربته، حيث الظل الوارف، ويروح في غفوة، ثم يقوم فجأة بفك الحمار عن عربة البسطة، ويمتطيه، فإذا هو حصان جامح. يبدو فوق في حيوية الشباب، إذ تواجهه ريح عاصفة، تكاد تنزع كوفيته عن رأسه، محاولة أن تسقطه أرضاً، لكنه يتماسك، فيخترقها كالسهم....

على الطريق يشاهد الراعية أم مفلح، تسير في الخلف، وثمة طفلان يقودان قطيع الأغنام، يشعر نحو أحدهما - الصغير طبعاً - بالمودة الغامرة. فيتأمله طويلاً:" قديش بيشبه معروف!"

حين يصل إلى مجدل شمس يرى معالم الزينة في كل مكان، والعلم السوري يرفرف فوق بيوتها، وفي ساحتها العامة، حيث النصب التذكاري لقائد الثورة السورية الكبرى سلطان باشا الأطرش، ويسمع صوت زغاريد عرس، فيسأل رجلاً، يمر به:" لمين العرس؟"

يبتسم له الرجل، وقد تعرف إليه:" والله زمان يا أبو معروف، القرية تحررت، وهذا أكبر عرس."

فجأة تنبثق زغرودة قوية، يلتفت نحو مصدرها، فإذا طفل صغير إلى جوار زوجته حليمة التي تتقدم نحوه مبتشة:" أبو معروف! الحمد لله على السلامة."

ثم تشير للطفل الذي يشبه راعي الأغنام الصغير، الذي شاهده قبل قليل قائلة:" تعال نسلم على أبوك يا معروف."

ويتقدمان منه، فيفتح ذراعيه، كي يحتضنهما بعد غياب طال. لكن العربة تهتز بفعل حركة الحمار، الذي يجرها قليلاً، فينقز أبو معروف مستيقظاً من شروده الحالم.

حتى إذا ما رجع مع تايه إلى البيت استقبلته بشرى في مودة غامرة كالعادة:" يعطيك العافيه يا بيي."

غير أنه حين قدم لها مساعده الجديد، الذي وقف جانباً ينظر إليها بلامبالاة، انذهلت لوقع المفاجأة غير المتوقعة، ونطقت بعفوية:" قديش بيشبه ملحم!"

ويستفسر:" مين ملحم؟"

ـ أستاذ المدرسة.

وبينما هما يتجادلان ينظر تايه حوله، فيرى صنبور مياه، تجمعت حوله مجموعة فتيات، يهرع إليه، ليغسل وجهه، ثم يعب الماء عباً، فيبتعدن عنه، ناظرات إليه باستغراب، وهو يشرب بلا ارتواء، كأنه، بعدما ابتعد عن مريم، عاد سيرته الأولى ذاهلاً مستوحشاً طوال الوقت.

❖

ويتذكر أبو معروف أن سماء مدينة دمشق صارت تتكلل بالنار كل مساء، عندما توقّت طائرات العدو هجماتها مع حلول أذان المغرب، ما إن يجلس الصائمون إلى موائد الإفطار. مع ذلك اعترف طياروه أن طيرانهم في أجوائنا يعني الموت المحقق، فراحت إسرائيل تقيدهم إلى مقاعد الطائرات بالسلاسل الحديدية، كي ترغمهم على الطيران، فلا يهبطون بالمظلات حتى قبل أن تصيب صواريخ السام قلب طائراتهم.

شفق يزداد دموية نتيجة الاشتباكات اليومية المتواصلة، منذ بدء الحرب، وتصدح فيروز:

" بالغار كللتِ أم بالنار يا شامُ؟

أنتِ الأميرة تعلو باسمك الهامُ..."

يعلق الصحفي موفق مع توثيق بالصورة من كاميرة ميشيل:

ـ بدت الحياة في مدينة دمشق طبيعية، تجري مجراها العادي، فبينما الطائرات تتصارع في الجو فوق رؤوس المواطنين ظلت الحوانيت مفتوحة، والمواطنون يمضون إلى أعمالهم في هدوء، بل قلّت الرغبة لاحتكار السلع، ولم يعد هناك ميل زائد للاستهلاك.

شاع الأمل باستعادة الجولان وتحرير فلسطين، فدب النظام في كل مكان، كانت فيه فوضى، أو عدم ترتيب، نسي المواطنون همومهم الصغيرة وحزازاتهم، لتسود بينهم صلات التوادد والتعاطف، وعلت حرارة التباري لخدمة الصالح العام من غير تفاخر، حتى أن حوادث المرور نقصت نتيجة التزام المواطنين بنظام السير. فإن كانت الطائرات الإسرائيلية تغير على العاصمة دمشق بشكل متواصل، ومحموم، فطائراتنا، ونيران المدافع المضادة، وصاروخ السام لها بالمرصاد. لقد أصبح مشهوراً أكثر من علم على رأسه نار.

إنه صياد ماهر، ما إن يتحسس الحرارة حتى ينطلق، بسرعة البرق، صوب محرك الطائرة المعادية. وخلال ثوان ـ بينما الناس على الأسطحة يتفرجون، والأولاد يشيرون إلى الطائرة في متعة الاكتشاف ـ يصيبها في القلب، ويفجرها نثرات في الجو، فتعلو التكبيرات من أفواه المواطنين:" الله أكبر.. الله أكبر."

ومع أن الطائرات الإسرائيلية حاولت خداعه بأن تلتف من الأجواء اللبنانية، وعندما تصبح في سمائنا تطفئ محركاتها، لم تنفع هذه الحيلة معه.

❖

ويتابع أهالي الزفتية معارك الجو، وهم على مائدة إفطار رمضان، حتى لا تفوتهم إحدى هذه المعارك، فلقد تطوّع العديد من شبانها في الجيش الشعبي، فحملوا البنادق، والرشاشات الخفيفة، على أكتافهم بعدما تدربوا

عليها جيداً، بينما ارتدت الفتيات الملابس العسكرية، وحملن شارة الدفاع المدني، ليقمن بوضع البويا الزرقاء على النوافذ، وأضواء السيارات، بينما راح أبو يوسف عميشة يكرر قوله:" والله قربت الساعة يا جماعة." يسألونه مازحين:" ايمتى؟" يجيبهم:" يوم الاثنين." وأصبح العديد من أطفال الزفتية، الذين كانوا يلعبون بالكرة القماشية، أو لعبة السبع حجرات، يستطيعون التمييز بين أنواع الطائرات ـ الصديقة والمعادية ـ مرددين بصوت واحد، عندما سألهم الصحفي موفق عن أسطورة إسرائيل التي لا تقهر:" لقد تحطمت أمام قوة المقاتل العربي، وتصميمه على النصر."

❖

/ تصلني رسالة من صديقي جهاد، الذي يدرس الإخراج في روسيا، يقول فيها:" تحية فخر من موسكو إلى ربوع دمشق الباسلة، وبعد: فلقد تحلقتُ مع رفاقي الطلاب العرب، وبعض أصدقائنا السوفييت، أمام المذياع، والوجوم يخيم علينا أول الأمر، لسماعنا أخبار اندلاع الحرب، لكن حين عرفنا حقيقة الوضع على جبهتي القتال بعدما سمعنا أحاديث الأسرى الإسرائيليين التي بثت من إذاعتي دمشق، والقاهرة، سررنا كثيراً، وقمنا بحملة كشف للحقائق أمام المواطنين الروس: فإسرائيل تعرض أفلاماً من عدوان حزيران عام 67 مدعية أنها من معارك حرب تشرين الدائرة الآن.

يا رفيقي: يتملكنا اللحظةَ شعور بالفخر، والاعتزاز، من أنباء انتصارات قواتنا العربية، وتساقط الطائرات الإسرائيلية بالعشرات، وقفز طياريها بالمظلات، حتى قبل إصابتها.

لقد وصلتنا أخبار معارك مرصد جبل الشيخ، كما شاهدنا جنودنا الأبطال يسقطون الطائرات المعادية الحديثة بأسلحتهم الفردية.

أخيراً فقد توجهنا إلى السفارة السورية، ووضعنا أنفسنا، وكل إمكانياتنا في خدمة المعركة وسط دموع الفرح والافتخار."

وكعادته يطالبني جهاد بتسجيل أحداث، ومجريات الحرب الجارية بدقة، وأمانة، مع نصيحة غالية:" يا أيمن، كن مخلصاً لعينيك الحاذقتين، وأنت تكتب السيناريو فلا ترَ ما يحصل فقط، بل ما خلفه، وهذا هو الأهم."

ملحوظة: صديقتي فاليا تهديك السلام مع قبلة حارة، وهي تردد كثيراً هذه الأيام:" أنتم العرب تستطيعون تحقيق المعجزات عندما تتكاتفون."

خاتماً رسالته بالقول: قلوبنا معكم سيروا قدماً، فالنصر حليف الذين يؤمنون به.

رفيقك المشتاق: جهاد النادر

❖

أرد عليه:" أعتقد أن أحداث 6 تشرين الأول لها ما سبقها من مقدمات، لا يمكن التغاضي عنها يا جهاد. لذلك فهي تحتاج ـ حسب اعتقادي ـ إلى رواية. بعد ذلك نحولها معاً إلى سيناريو. ما رأيك؟"

يجيبني في رسالة مستعجلة، كأنه وافق على اقتراحي:" عندما تسرد روايتك تستطيع اللعب كيفما تريد. فاكتب بتلقائية، وانفتح على العامية عند الضرورة. وليكن هدفك خلق دراما شبيهة بالحياة، مثل أي روائي يحترف صناعة الخيال مع ذلك يخلق شخصياته من لحم ودم.."

مضيفاً:" الكتابة سحر، إنها سلاح، فكلما جلست تكتب تحس أنك اخترقت الجدران من حولك.. لتحلق عالياً. والأمر يعود إليك.. أن تقرأ كثيراً: كتاباً قبل أن تكتب فصلاً في روايتك.. وفصلاً قبل أن تسطر سطراً واحداً.. لا تقبل كل ما يخطر على ذهنك.. أو تسمعه دون تمحيص. ثم إنك مطالب بالاعتناء بتفصيلات ما تكتب ابتداءً من العنوان.. وانتهاءً بآخر كلمة أخيراً لا بد من حالة الوجد العميق.. والقلق مطولاً للوصول إلى رواية فنية."

ثم يقترح علي أن أقدم مشاهد تمثيلية، أحاكم فيها المغتصب الإسرائيلي على احتلاله لأرضنا، مبيناً له أنه الزائل، ونحن ـ أصحابَ الأرض ـ باقون. /

إكليل الغار

جاء منهم نبأ
من هناك
من أرض المعركة:
قمصانهم ليست متسخة
ولا حواجبهم مقطبة
لكن ذقونهم طويلة قليلاً ليس غير.
لم يقولوا: احترقنا
بل قالوا: صمدنا بعيون ضاحكة
وعلى أصداغهم جرح طري.

◆ ناظم حكمت

فيما كان رواد مقهى الجولان يهتفون بصوت جهوري واحد: " الله أكبر، الله أكبر، النصر لنا." مع كل بيان عسكري، تبثه إذاعة دمشق، وتتلوه أغنية فيروز: " خبطة قدمكم ع الأرض هدارة..." التي أصبحت تذاع بعد كل بيان عسكري، يتحدث عن سير المعارك في الجولان، مما أظهرها، وكأنها لحنت خصيصاً لحرب تشرين، ومع اندلاعها، يمتشق أبو معروف طوله أمام رواد المقهى محذراً في صوت واثق: " إسرائيل مثل العقربة يا إخوان، إذا تضايقت يمكن تساوي أي شي."

وبالفعل أغارت طائرات العدو على وسط مدينة دمشق، ملقية صواريخها، وقنابلها الثقيلة، على حي أبي رمانة الآهل بالسكان المدنيين، فدمرت منازله، وأصابت سكانه الآمنين.

ويسرع ميشيل إلى موقع الغارة لتصوير آثار العدوان الهمجي على المدنيين، مستعجلاً زميله موفقاً، الذي يسأل أحد المواطنين في الشارع:

- لماذا لا تلزم بيتك، والطائرات الإسرائيلية تجوب سماء دمشق؟

فيجيبه في ثقة: " المهم هذه الطيارات تقدر ترجع لمطاراتها."

حينذاك تداعى المواطنون للتبرع بالدم، ومساعدة المصابين. وكان تايه في المقدمة كعادته....

مع أن صوراً غائمة راحت تعبر، بسرعة البرق، ذهنه المشوش، وهو يشاهد من جديد، المواطنين المدنيين، وقد غطتهم الدماء الغزيرة، فترنح قليلاً، يكاد يسقط من طوله، لا سيما حين طالعته دمية تمزقت أحشاؤها، ونزف الدم من فمها الصغير، لكن أحد المسعفين سنده، حتى استعاد وعيه من جراء الصدمة.

/ يومذاك، وقد بدت الانفجارات قريبة، صعدتُ إلى سطح منزلنا في الزفتية، أرقب ما يحصل، فرأيت بضع طائرات فانتوم سوداء على ارتفاع منخفض، تصب حممها على السكان الآمنين، تحت أنظار أهالي مدينة دمشق، الذين اعتلوا أسطحة منازلهم دون أن تهز الغارة البربرية - كأنهم اعتادوا عليها - معنوياتهم. بل راحت أعينهم، في أمل راسخ بالنصر، تتابع

معركة نسورنا، وصواريخ دفاعنا الجوي مع الطائرات المغيرة. فلما انتهت، بتناثر أربع منها في الجو، أسرعوا يرفعون الركام، وينقذون المصابين، بعدما تحولت البيوت الآمنة إلى ركام، والسكان المدنيون، شيوخاً وأطفالاً ونساءً، إلى قتلى وجرحى. /

❖

(.. رغم الاشتباكات المتواصلة كنت أجد الوقت، لأكتب في هذا الدفتر شيئاً من ذكرياتي، وأمانيّ التي أحلم أن أحققها، كأن الكتابة أصبحت عندي، بعد وفاة نجمة، المعادل للحياة:" أنا أكتب إذاً أنا حي."

لقد أحببتها، والتجأت إلي هرباً من إجبارها على الزواج من ابن عمها الملقب بالشيخ جاسم....

عندما قابلتها في البستان، برفقة حازم، أخبرتها أنني أموت فيها فتأوهت، وللمرة الأولى تفتح عينيها الخضراوين على وسعهما، لتنظر إلي بإمعان، وإذ رأت التأوه في عيني، هي التي لم تكن تحس حتى بوجودي، بينما أشعر بالاختناق كلما أشاحت وجهها عني، أمسكت يدي، ووضعتها على خدها، فبقيت مسمراً في مكاني، لا أتحرك كمن أصابته سكتة، وهي تحكي لي عن تقليدهم في الزواج:" عادة تدخل البنت والشاب عند أسرة، بعد أيام تأتي هذه الأسرة إلى عائلة البنت، وتطلب يدها باسم الشاب، وفي الغالب تكون الموافقة يا أستاذ."

أخيراً سألتني:" هل تتزوجني؟"

فتزوجتها على سنة الله ورسوله وسط مراسم تقليدية. وفي بيتنا الذي استأجرته، وسط بلدة دوما قريباً من مدينة دمشق، كبرت نجمة، وامتشق طولها حتى أنها لم تعد تحس بالحرج، وهي تمشي إلى جواري، ثم قصت شعرها كما أحب، وشعّت عيناها في سمائي الحزينة، كنجمتين في ليل طويل. بينما راح جسمها ينتفخ، وتحجر نهداها. فلما أخبرتني بأنها حامل كدت أطير من الفرح، لذا أخذت بيدها إلى السرير طالباً منها عدم مغادرته إلى أن تلد، فسألتني:" شو بدك أجيب لك؟"

ـ منك كل شي حلو.

وتعاود سؤالي بلهفة ودلع:" صحيح حبيبي ولد ، ولا بنت؟"

حين لا أرد تقول:" إذا كان ولد بدي ياه فنان مثلك."

فاضيف:" وإذا بنت بدي ياها نجمة مثلك."

كثيراً ما أحسست بألم في صدري، شاعراً بأنني أكاد أموت من الوجع، ولم يستطع الأطباء فعل شيء، فراحت، في الأيام الأخيرة، تضع يدها على المكان الذي أحدده بالضبط، وتبدأ في تدليكه بنعومة، وحنان، ثم تطلب مني أن أغفو، بعدما هدأ الألم، فيأخذني النعاس، كأنها أصبحت تمتلك سر حياتي، فلما ماتت تحت عملية الولادة انقطع الحبل الذي يربطني بالحياة، فقررت أن أخوض الحرب، التي تأكدت أنها قادمة لا محالة.

ملحوظة: لم أكن بحاجة لأن أحزن على نجمة، فالنجوم لا تموت، قد تختفي نهاراً لتضيء في الليل عتمة الأرض: إنها حارسة الحياة، ومشعلها الأبدي حتى تقوم الساعة يا ناس.)

❖

وفي المشفى العسكري 601 طالعت تايه رائحة العقاقير، وتأوهات المرضى وأنينهم الموجع، فلما رآه الدكتور عزمي تعرف إليه من فوره:" أهلاً بالأستاذ المحترم."

وأردف:" كيفك أستاذ ملحم."

ولم يستهجن تايه ـ الذي راح يساعده كممرض متمرس، بعدما مضى الدكتور حلمي الغانم إلى بيته، ليرتاح قليلاً من الإجهاد ـ ما تسمعه أذناه، هاجساً داخله:" **يمكن اختلط الأمر على هذا الدكتور نتيجة الاستنفار المتواصل من أول الحرب!"**

تلازما معاً لمدة طويلة استجابة لنداء الواجب الوطني، فتصادقا بإخلاص، لذلك يسأله الدكتور عزمي في أثناء إعلان المذياع عن رفع العلم السوري فوق مدينة القنيطرة غداً:" شو رأيك نروح سوا."

وبالفعل صعد الدكتور حلمي سيارته الجيب العسكرية المكشوفة، وانطلق باتجاه المدينة المحررة، يحدوه الأمل الوطيد:" **بالتأكيد سيكون**

العالم أحسن حالاً عندما يرجع كل إنسان إلى وطنه، ليمارس إنسانيته فيه"....

رجل لم يقتله الانتظار. بل قربه من حلمه الأكبر، بأن يعود مثل الطيور المهاجرة إلى مدينة القدس، ليفتتح عيادته هناك، فلما أخبروه أن القنيطرة تحررت أيقن أنها الخطوة الأولى باتجاه القدس، التي يؤكد عليها الأستاذ عامر، في دفتره المصبوغ بالدم، إذ يقول في ثقة عارمة:

(مع استمرار حرب الاستنزاف، تلك الحرب التي رفضنا فيها الاستسلام إلى واقع الحال، فحوَّل مقاتلونا خرق العدو في جيب الجولان بالقطاع الشمالي إلى جحيم، يُدمر آلياته العسكرية، ويحرق جنوده، ويحرمهم من الراحة طوال الوقت، ليلاً ونهاراً، تخيلت نفسي أرد على دعوة وزير الحرب الإسرائيلي موشي دايان للمراسلين إلى مؤتمر صحفي بفندق سمير أميس في وسط مدينة دمشق، ودعوة زوجته لصديقتها على أكلة حلويات شامية في سوق الصالحية بأن أدعو جميع صحفيي العالم، وأحراره الشرفاء، لنشرب نخب تحرير فلسطين في قلب مدينة القدس.)

تقول الحكاية المأثورة:" جاء الإسرائيليون بأيديهم السوداء.. أرهبوا الناس بأعمالهم الفظيعة.. حين قصفوا أنحاء مختلفة من سورية بوحشية.. وبربرية سافرة.. إذ دمرت الطائرات المعادية حياً بكامله في بلدة داعل.. التابعة لمحافظة درعا.. يحتوي مدرسة ابتدائية للأطفال.. وأبادت عائلة عن بكرة أبيها.

وفي سكوفيا قصفت طائرات العدو حياً سكنياً من أحياء القرية، ودمرته بالكامل على من فيه من نساء وأطفال وشيوخ، خلال احتفالاتنا في السابع من نيسان عام 1967، وقد بلغ عدد الضحايا 49 بين شهيد وجريح.

هذا على سبيل المثال لا الحصر...

ثم احتلوا الجولان، وفظعوا فيه:

- في الدوكة(منطقة البطيحة) جمعوا ما استطاعوا من أبنائها، بعدما دخلوها، واختاروا عشرة: تسعة شبان وامرأة، أوقفوهم على نسق واحد إلى جدار، وعلى مرأى من أهالي القرية أطلقوا عليهم النار من الخلف، فسقطوا

مضرجين بدمائهم. ثم قام قائد فرقة الإعدام بتوجيه طلقة الخلاص إلى رؤوس الضحايا.

ـ أصر سكان قرية الدردارة على البقاء في بيوتهم وأرضهم. فقامت القوات الإسرائيلية بتجميع عدد من الشبان، ونفذت فيهم مجزرة جماعية على مرأى من أهالي القرية، ما دفع الآخرين لمغادرتها خوفاً على حياتهم، وحياة أبنائهم.

ـ كذلك في الخشنية التي نفذت فيها القوات الإسرائيلية مجزرة جماعية على مرأى من أهاليها الذين شاهدوا بأم أعينهم عمليات القتل والتمثيل بالجثث، إضافة إلى قصف القرية ب 85 قذيفة دمرتها تدميراً كاملاً، بعدها قامت القوات الإسرائيلية بوضع الجثث على فوهات مدافع الدبابات، وطافت بهم في شوارع القرية، ثم أطلقوا النار عليهم مجدداً، ومثلوا بجثثهم.

ـ مجزرة القنيطرة حيث قصفوا المدينة بخمس قنابل زنة الواحدة منها 500 كغ، ما أدى إلى استشهاد عدد كبير من سكانها، وجرح الكثيرين. وهذا غيض من فيض...

لقد اختطفوا شمس الجولان إلى كهف بعيد. فتململت البيوت تحت الظلام الدامس.. هجرها أصحابها خوفاً على نسائهم وأطفالهم من المذابح العديدة البشعة التي ارتكبتها إسرائيل.. وتناقلتها وسائل الإعلام بكثير من المبالغة، والتهويل....

بعد احتلال الجولان قام العدو الإسرائيلي بتهجير سكانه قسراً من 159 قرية و146 مزرعة إضافة إلى مدينتي فيق والقنيطرة بعد أن قتل جنوده، واحتجزوا عدداً من السكان بحجة اشتراكهم في المعارك التي حدثت، وقد بلغ عدد الذين هُجروا أكثر من 131 ألف نسمة، فيما تمسكت ست قرى، يقارب عدد سكانها عشرة آلاف مواطن، في شمال الجولان بأرضها، وصمدت ضد أساليب التنكيل بها هي: مجدل شمس، بقعاثا، مسعدة، عين قنية، الغجر، وسحيتا التي تم تهجير، وطرد سكانها عام 71 ودمرت بالكامل، ليحولها العدو إلى معسكر لجنوده. لذا فقدت

الأشجار خضرتها اليانعة.. جفت الأنهار.. والقلوب التي كان يملؤها الحب انكسرت. لكن أبناء الوطن الميامين استطاعوا الوصول إلى الكهف المحروس بنجمة سداسية، وقرصان، برتبة جنرال، يضع عصابة سوداء على عينه اليسرى، ليحطموا قيود الشمس، فأشرقت يوم الأربعاء 26 حزيران 1974 إذ خرج المحتلون صاغرين."

لذلك صار يقال في بلادنا:" بالشمس والحرية كليهما يعيش الإنسان"....

لقد قاتلت التجريدة المغربية" الفوج المغربي" منذ لحظة الحرب الأولى، قتال الأسود، وكبدت العدو أفدح الخسائر في القوات والعتاد: هم أيضاً لديهم مدينة عامرة اسمها القنيطرة، أخشى أن تلحقها همجية الإسرائيليين يوماً ما.

ها هم أبطال جيش التحرير الفلسطيني" لواء حطين" في الطليعة يتقدمون إلى النسق الأول لقتال العدو جنباً إلى جنب مع إخوانهم السوريين، فيما تنفذ الكتيبة 411 إنزالاً جوياً رأسياً على قمة تل الفرس، وتستولي على نقطة استناد العدو الحصينة هناك بعد مقاومة إسرائيلية شديدة.

هذا مقاتل عراقي بطل، من اللواء 12 دبابات، جاء من قاعدة انطلاقه في العراق مباشرة لخوض المعركة ضد القوات الإسرائيلية التي اخترقت القطاع الشمالي للجبهة باتجاه مدينة دمشق - لقد تحركت الدبابات العراقية على جنازيرها في وضع جاهزية قتالية تامة - حيث قوبلت في كل مكان مرت به بزغاريد الفرح وتحية الإكبار، وعندما طلب بعض الجنود الطعام قُدم لهم على طبق من المحبة والامتنان العميق. حتى إن بعض المواطنين قام بإعداد مائدة كبيرة في بيته، لكن الجنود كانوا مستعجلين: ملؤوا مطراتهم ماء، وأخذوا أرغفة خبز التنور، ومضوا مودعين بدعوات النصر والعودة سالمين.

هذا بطل أردني مغوار، جاء باتجاه موقعة الفداء في الجولان، عبر حدودنا المشتركة، يمتطي دبابته السنتريون، الشبيهة بدبابات العدو، منقضاً عليها في جسارة واقتدار، وهو يردد الوصية الخالدة:" إنما تقاتلون على أرض عربية هي أرضكم."

وآخر سعودي جاء ميدان البسالة مدافعاً عن الأرض العربية في وجه القوات الإسرائيلية الغازية.

لقد أضحى القتال مواجهة ـ في هذا السهل الذي كان أخضر ـ فعندما تقدمت الدبابات المعادية لخرق دفاعاتنا، على خطوط القطاع الشمالي للجبهة، اصطدمت بها دباباتنا العربية، فشلت حركتها، ثم قفز جنودنا الأشاوس، ليشتبكوا مع المعتدين بالسلاح الأبيض، وأحياناً بالأيدي، وشد القبضة على الخناق، أقرأ على آخر ورقة، كتبها الأستاذ عامر:

(كنت بحاجة إلى قليل من الوقت لأدون مجريات المعارك الشرسة التي خضناها ببسالة، لكن فجأة جف الحبر من قلمي، فبحثت في الصفحات التالية لم أجد إلا بقع دماء حمراء.)

وإذ تشرق الشمس، تضيء المكان، كأنه نهار واعد، له بقايا في فلسطين، تنطلق أغنية مصطفى نصري:"

لمين العرس لمين العيد

لمين الشمس ال ع القرميد..."

فنرى جنودنا فوق دباباتهم، رافعين إشارات النصر، بعدما أجبروا الدبابات المعادية على التراجع بالقوة. تلك، على مرأى العين، بضع دبابات مدمرة، من طراز سنتريون، تدمغها النجمة السداسية. وثمة إلى جوارها زهرة باسقة، تخترق خوذة إسرائيلية سوداء.

غيث بخيل

هنالك عند التلال تلال
تنام وتصحو على عهدنا
وناس هم الحب أيامهم
هدوء انتظار شجي الغنا
ربوع مدى العين صفصافها
على كل ماء وها فانحنى
فيا قلب كم شردتنا الرياح
تعال سنرجع هيا بنا

ونغرق في دافئات المنى

نزار قباني/ فيروز

تدخل أم عايد بيتها المهدم كباقي بيوت القنيطرة، يتبعها عايد، فليس ثمة باب. مع ذلك تدخله مادة يدها قدامها، كما لو أنها تفتحه. لكنها راحت تتعثر بأكوام الحجارة المتساقطة من جدرانه، فتوقفت طالبة من عايد أن يخبرها بما يراه.

-البيت كله مخرب يمه.

وصمت للحظة، ثم انتبه إلى الزاوية الشرقية، فأردف:" ما عدا غرفة الحجر. شي ما بيتصدق: كأنه السقف عامل مظلة عليها، والحيطان، بعد مو مهبطة، حاميتها."

عندما سمعت أمه ذلك ابتسمت متوجهة نحوها، فأوقفها، حتى يزيل ركام الحجارة من طريقها. وإذ دخلتها تقدمت مباشرة نحو صندوق خشبي مزخرف، كأنه صندوق عرس، بينما راح عايد، بعد فترة غياب طويلة، يستعيد ذكرى صور قديمة ـ بالأبيض والأسود ـ كأنه يراها للمرة الأولى، وزعت على الجدران:

لوالده في ريعان الشباب،

لوالديه في ثياب الزفاف،

لوالده مع مجموعة كبيرة من رفاقه الفدائيين.

يرفع عايد رأسه عالياً، فإذا صور الشيخ عز الدين القسام، عبد القادر الحسيني، فوزي القاوقجي، سلطان باشا الأطرش، وصور أخرى، ربما من أيام الثورة السورية الكبرى، وثورة ال 36 في فلسطين، لثوار لا يعرفهم، ربما استشهدوا قبل ولادته، وأخرى لصلاح الدين الأيوبي، وعنترة بن شداد.

وإذ فتحت أمه صندوقها بتؤدة وحرص ظاهر راحت تتلمس ما في داخله، بينما هو يرقبها عن كثب: كوفية والده ناصعة البياض كالثلج،

عقاله الغليظ، مع شماغ أحمر غامق،

بذته المموهة ملطخة بالدم.

بسطاره العسكري،

بندقيته القديمة، وحزام رصاص كامل،

أخيراً مجموعة خرائط عسكرية، سحبها من الصندوق، وفردها فإذا هي لفلسطين.

وكأنها اطمأنت على إرثها الغالي، تلفتت إليه فجأة:" خلينا نزور مقبرة الشهدا يا عايد، مشتاقة سلم على أبوك."

❖

على تلة قريبة من مدينة القنيطرة، يقف أبو معروف، يسترجع صوراً من تلك الأيام الماضية في حنين:" الثكنة العسكرية بجانب سينما الاندلس على طريق المنصورة، إلى جوارها براكيات عديدة لبيع السندويش.. والبنك العربي الكويتي في حركة دائبة، بينما يعانق شيخ راهباً، ويسيران معاً في حي العرب."

ينظر إلى أطلال مدينة القنيطرة: السرايا الحكومية.. جامع الشركس.. حي النصارى.. والكنيسة الكبيرة جهة الشرق.. على بعد منها، في الجهة الغربية، بقايا ثانوية أحمد مريود.. وهنالك في الخط النهائي للكنيسة مشفى الجولان.. الذي حولته قوات العدو إلى حقل للرماية.. وتلك مقبرة الشهداء.

يتفقد هذه المعالم الحضارية في اشتياق، كالعائد بعد سفر طويل، ويتحسر داخله، إذ أحالتها بربرية إسرائيل إلى ركام من الحجارة، بعدما نبشت حتى القبور.

فجأة تظهر سيارة جيب عسكرية مكشوفة، يرفرف فوقها علم فلسطين، فيلتقط لها ميشيل صورة، وهو يحدس:" **ما برحت القنيطرة أول الغيث، وصولاً إلى تحرير كل الأراضي العربية المحتلة."**

عندما نزل الدكتور حلمي الغانم من سيارته، توجه إلى الركن القصي من حديقة منزله، ليشاهد النموذج المصغر، الذي صنعه من الجبصين، لقبة المسجد الأقصى، أيام سكنه في مدينة القنيطرة، مسترجعاً ذكرى والديه....

بعد مجزرة دير ياسين، المجاورة لمدينة القدس، هجر معظم السكان منازلهم، هرباً من الفظائع التي ترتكبها عصابتا شتيرن والهاغاناه. لكن والديه لم يتركا منزلهما. بل بقيا هناك منتظرين عودته. حينذاك كان في

الطريق إلى جامعة دمشق، ليدرس الطب فيها.

شوق يحمله إلى شغف الحكاية، كي لا يكون ارتحال جديد، فيتجرع حزنه في اعتزاز: " **طوبى للقابعين على جمر جراحهم هناك.**"

❖

وقف أبو يوسف عميشة، معه أحفاده، على مشارف القنيطرة، ثم انحنى على الأرض، وراح يرسم فوق التراب خريطة منزله، الذي كان مبنياً من الحجر، في قريته الحدودية، دلهم على غرفة المعيشة، والمطبخ الواسع، ثم توقف طويلاً أمام غرفة الضيوف ذات النوافذ المتعددة الكبيرة، والقريبة من الباب الخارجي. فسأله أحدهم: " ومن وين الطريق لفلسطين؟"

أشار بيده جهة الغرب: " من هون بتروِّح على فلسطين يا جدي، ومن هون على لبنان. هيك على الأردن، وطبعاً هدا طريق الشام ما بيتوِّه حدا."

- يعني القنيطرة بتوصل على كل هالبلدان يا جدي؟

- أي يا عين جدك. ولا ليش الإسرائيليين دمروها؟

يمتشق طوله متوجهاً نحو قريته: " **اشتقتلك.. اشتقت لترابك.. لعشبك الأخضر الطري.. لحجارك.. لعقارب أرضك.. وحيَّاتك.. وشجرات الزيتون كمان.**"

وتذكر بستانه الذي زرعه إلى جوار الوادي هناك: كانت الأرض تلاً أجرد بميل قاس نحو هاوية سحيقة، فاستفزه المنظر، وقرر العمل. لذا أمضى سنوات عدة يقتلع الصخور من تربة ذلك التل، ويسوي أرضه، ثم جعله مدرجات، زرعها أشجار زيتون بشكل منتظم، يغري الناظرين.

ها هو الآن يتوجه إلى أحفاده: " هاي صار لنا 26 سنة من يوم ما أخرجونا - بقوة السلاح - من أرضنا اللي ورثناها أب عن جد، وجد عن جد، لما جنود جيش الاحتلال أجبرونا على ركوب سياراتهم العسكرية الكبيرة، نحنا وماشيتنا، ليرمونا على جسر بنات يعقوب يا جدي."

يستدرك في نظرة تفاؤل نحو البعيد: " بس معليش: هياتها القنيطرة تحررت، ومشوار الألف ميل يبدا بخطوة يا شباب"....

ظل أبو يوسف عميشة يردد انتظروني حتى يوم الاثنين. إلى أن مات فعلاً يوم الاثنين، وهو اليوم الذي نزح فيه عن قريته التي كانت على خط الهدنة بعد نكبة 48، ثم احتلتها إسرائيل عام 67. ولعله توقع أنه كما نزح عنها يوم الاثنين سيعود إليها في اليوم نفسه، لذلك تمنى أن يدفنوه في مقبرتها، فلما أخبره واحد من جماعة "الختيارية" بأن إسرائيل سوت كل شيء فيها مع الأرض قال:

ـ رغم ذلك يا جماعة: تراب القرية اللي ولدت فيها يبقى أرحم، وأحن على جسم البني آدم، من أي تراب غيره.

وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بثوان أشار إلى الشيخ عبد الستار، فاقترب منه، ليُسرَّ في أذنه بضع كلمات. فلما سألناه:" شو همس أبو يوسف بإذنك يا شيخنا؟"

أجاب:" حط أمانة برقبتي، ورقبة كل واحد منكم، أن ننقل عظامه، وندفنها بقريته هُناك بعد ما تتحرر."

❖

/ وأنا أتابع سيري إلى ناصية تنتصب وسط الساحة العامة، حيث سيقام الاحتفال بعيد التحرير، تطالعني نجاة بثوبها الأبيض، وشالها الأزرق....

كنا يومذاك عند حنفية الجامع وسط جمهرة من الفتيات، بعدما احتفلنا ـ أنا ونجاة فقط ـ بعيد ميلادي، على طريقتنا إذ أحضرت قطعتي كاتو، وشمعتين. فقدمت لي كيس ورق، وهمست في أذني:" لا تفتحه إلا بالبيت."

لكنني لا أصبر، أنزوي جانباً، وأخرج ما فيه، فإذا كنزة جميلة مغزولة باليد، إذ تراها رفيقتها وصال، التي أصبحت مؤخراً تتحاشاها، كي نكون وحدنا، تطلق زغرودة فرح، تسكتها نجاة برشقة ماء في وجهها، ثم إغلاق فمها الكبير بيسراها، مع قرصة قرب الحلمة باليد اليمين:" لا تشلقي البنات علينا يا حمارة."

وأُحرَج من فعلتي السخيفة هذه، لذا أمضي ساكتاً، ولا تتكلم طوال الطريق، حتى إذا ما اقترينا من المنعطف باتجاه الزفتية اعتذرتُ طالباً الصفح

والغفران:" أنا غلطان يا نجاة سامحيني."

ترد، وهي متجهمة على غير عادتها:" بشرط تهديني هدية!"

- شو هي؟

- تكتب عني.

وإذ هززت رأسي بالإيجاب ابتسمتْ:" وشو ح تسميني؟"

- قمر أسمر في الزفتية.

- إذاً ما رح موت.

شعر أسود، عينان شاحبتان، وساقان من مرمر، إذ كانت، حين لا أحد غيرنا عند الحنفية الجديدة، التي افتتحتها بلدية الميدان، باحتفال مهيب على طريق مساكن الزاهرة بالطرف الشرقي للزفتية، ترفع ثوبها، وتغسل ساقيها بالماء، فهي لا تطيق لبس البيجاما، كما أخبرتني./

❖

يحس مهيب بالإرهاق، فيسند ظهره إلى جدار قريب، وهو يحتضن رأسه بين كفيه، مسترجعاً أيامه في الزفتية، حين كان والده ينهره بقسوة طوال الوقت، ليقرع صوته أذنيه مثل خبط طبول، فأصبح لا يسمع إلا بالصراخ، كأنه أطرش. ويسترجع صورة حاكمة أم الشامة التي احتضنته، وواسته طوال الوقت:" **شو قلبك أبيض يا خالتي حاكمة!**" ثم يغمض عينيه جالساً على الأرض. فجأة يفتحهما على شيء طري وناعم، يدغدغ كاحليه، فإذا هي قطة صغيرة، تقترب منه أكثر فأكثر، حتى تدخل بين قدميه، فيُضيِّق عليها الخناق، وهو يتخيل أنه يعصرها بينهما، حتى يخنقها. لحظتئذ تذكر أباه، وقد أحكم القبض على رأسه بين ركبتيه، وأخذ يضربه على أنحاء جسمه، لذا تخلى عن محاصرتها. ثم امتدت يده إلى رأسها، يمسد عليه، بينما راحت تموء بصوت حنون. لكنه فجأة صرخ في وجهها كعادته بصوت عال، فجفلت. ثم هربت تعدو مسرعة من أمامه، ولم تعد رغم ندائه المتكرر لها:" تعي بيس بيس."

❖

/ هو البوح يمحو زيف الكلام، فلا ترتلر قميص سواك تبرد.

يا أنت تهتك ستر الماضي على ما فيه من وجع مقيم، فيجرحك الأمس الحزين:

ـ فرغ المكان أخلينا بيوت الزفتية لبنايات عالية، ومحلق جنوبي، يمر من وسطها، إلا الشجرة الوحيدة الجرداء، تقاوم متشبثة بأرضها، فرغم خلوها من الورق الأخضر ـ ترى هل قلبها أخضر؟ ـ ظلت منتصبة تؤكد حكمتها الخالدة: من أراد العيش فعليه الصمود مهما قست الظروف. لذلك مضى بعض سكان الزفتية إلى عرطوز.. السيدة زينب.. سبينة.. الدويلعة.. نهر عيشة.. بستان حلاوة.. وغيرها، لسان حالهم يقول بصمت خانق: "**نزوح.. وراء نزوح.. والأقدام مازالت في سير حثيث.. لا ينتهي إلا بالرجوع إلى الأرض الأولى هنالك في الجولان**".

بدوا لي كسفن تائهة، تدفعها الريح في كل اتجاه، بعدما بعدت عن مستقرها، أرضها الأولى، أو الرحم الأول على حد تعبير نجاة.

راحت حاكمة أم الشامة تنظر إلى الزفتية نظرات حزينة، تاركة بابها، للمرة الأولى في حياتها، بلا قفل. إذ نزعته من الباب، لتحتفظ به.

لقد استيقظت متأخرة، كعادتها في هذا اليوم الخريفي الصاخب، حملت قفل بيتها فقط، تاركة البيت بما فيه، وهي تردد قولتها المأثورة في سرها: "**الريح لعبت ببابي**." ثم أردفت في حزن طاغ: "**والبرد رح ياكل روحي يا ناس**."

فأسترجع أيامها في الزفتية إذ كثيراً ما شاهدتها تلتقط مهيباً، وهو نائم على أكياس الورق، أمام دكان أبيه، فتأخذه لينام عندها. ثم راحت تخيط ثيابه الممزقة، وتطعمه، وتحممه، كأنه ابنها. وهي إضافة لذلك وحدها التي دافعت عنه عندما يضربه أبوه بقسوته المعتادة.

ثمة نسمات قارسة تلسعها، فتفرك يديها ببعضهما، ثم تدفئ وجهها، ليبقى الأمل في القادم غداً، بعدما فر زوجها إلى مكان مجهول، حين علم أن الشرطة تتهمه بقتل أبي مهيب، بسبب علاقته المشبوهة بها. وقد جاءت بالفعل دورية من قسم الميدان، تبحث عنه مراراً.

تلوّح لي بيدها مودعة، لمعت عيناها ببريق خاطف نفذ إلى قلبي مباشرة

كنصل سيف، فتكرج من عيني دمعتان حارقتان، سرعان ما أمسحهما عن خدي ـ كي لاينتبه أبي ـ وأنا أراها تمضي، تتلفت حولها، كأن أحداً ما يتبعها. لكن لا أحد. أخيراً نظرت إلي، على غير العادة، بصلف، وبرود، وشيء آخر....

بعدما هدموا بيوت الزفتية بطريقة التخريب، بحيث لا يستطيع أحد العودة إليها، ملأ الغبار زواياها، عششت فيها العناكب، فبدت منازل أشباح، وقد كانت تعج بالحياة قبل قليل، راحت الجرذان تسرح وتمرح فيها، ثم أوت إليها الحيوانات السائبة، فعجت بالخواء المميت.

يومذاك ذهب الطلاب إلى مدارسهم ظهراً، وحين رجعوا عند الغروب تفاجؤوا بأن بيوتهم مهبطة ـ أسماه بعضهم يوم التهبيط العظيم ـ بل مخربة، أو مدمرة، كأنها تعرضت لهجوم وحشي، ولم يجدوا أهلهم الذين كانوا يسكنونها. فتاه العديد منهم، لا يعرفون أين يذهبون، أو كيف عليهم أن يتوجهوا لملاقاة أهلهم. لذا ظل بعضهم عدة أيام في ضياع، وتوهان مؤلم، حتى التأم شمل الأسر من جديد.

مساء تحولت الشمس إلى قرص دامٍ، ينذر بخطر داهم، ثم تلبدت السماء بالغيوم القاتمة، وبدأ الرعد يهدر، أعقبه برق، أحال تلك الليلة جحيماً حارقاً.

*دمع يغطي مقلة البوح الحزين:" **يا لها خاتمة، لا تشتهى، والسلام**."*

بعد أيام عدت إلى زفتيتنا المنكوبة فرأيت كلباً عجوزاً أعرفه: كثيراً ما طارده أطفال الزفتية، وحصروه في زاوية ضيقة، ثم راحوا يوسعونه ضرباً مبرحاً، ويرمونه بحجارتهم الجارحة، وينغزونه بعصيهم الطويلة في أماكن حساسة من جسده.

عندما شاهدني وقف يلوِّح بذيله، كأنه يرحب بي، قبل أن يعود إلى جلسته المتهالكة. بدا مستوحشاً، وإذ أدرت وجهي عنه راح ينبح، كأنه يسألني عن أهل الزفتية الذين كانوا هنا قبل تهديمها. مشيت بضع خطوات، فعاد ينبح باستجداء، وتقدم، حتى أصبح عند مدخل بيت متهدم، وهو يهمهم داخله، كأن لسان حاله يقول:" **ليت هؤلاء الأطفال الشياطين يعودون، رغم أنهم لا يحترمون كلباً عجوزاً مثلي."/**

وحتى نلتقي...

"من هان الترابَ قلامةَ ظفر
فكل التراب يهون..."

يوم السادس والعشرين من شهر حزيران عام أربعة وسبعين وتسعمئة وألف حين تهاطلت ـ كما ندف الثلج، أو زهر الياسمين الأبيض ـ حبات الأرز، التي استقبل بها المواطنون قائد حرب التحرير الفريق حافظ الأسد، رئيس الجمهورية، الذي وصل بقامته الفارعة، وابتسامته الموحية، وخطوته المديدة الواثقة، إلى الساحة العامة عند الساعة الثانية وأربعين دقيقة، في لحظة تاريخية جليلة: حيا أبناء الوطن، وقبَّل علمه، ثم رفعه شامخاً، كي يخفق نابضاً من جديد، في سماء مدينة القنيطرة المحررة راية للنصر المؤزر، وسط مشهد ملحمي لن تنساه ذاكرة سورية، معلناً:" أن إرادة الشعب لا يمكن أن تُقهَر، وأن الوطن فوق كل شيء، وعلينا أن نستمر بالإعداد لطرد العدو من كل شبر من أرضنا العربية المحتلة." فتعالى صوت طائراتنا الحربية، محلقة في تشكيلات جميلة، ابتهاجاً بعودة المدينة إلى حضن الوطن الأم، وأطلق حازم حمامته البيضاء، لترفرف عالياً، لحظتئذ قام الرجل المقعد واقفاً على رجليه، يصفق مع الجموع، ويهلل فرحاً، وسط استغراب ابنته الشابة، وسرورها البالغ، واستعاد الأستاذ ملحم ذاكرته....

بدا ساهماً، وقد انطرح على الأرض، ماداً ذراعيه كيفما اتفق، تغطيه زهرات الياسمين الأبيض، كما في آخر لقاء مع بشرى، ثم قام ممتشقاً طوله، بعدما كان مثل من يمشي في نومه.

سار متعثراً أول الأمر، كأنه يتعلم المشي لتوه. ثم تناسقت خطاه رويداً

رويداً. وكما نسي كل شيء بعد صدمته بأمه وأخته اللتين قتلتهما القذائف الإسرائيلية المنصبة على بيته المجاور لمخفر الشرطة، عاد ليتذكر الآن كل شيء: طفولته في القنيطرة، وأمه التي ربته مع أخته لينا....

كانت أصغر منه، تحب الدمى كثيراً، ولديها دمية جميلة، تعتني بها طوال الوقت: خلال عدوان حزيران، عندما قصفت إسرائيل مدينة القنيطرة بالقنابل الثقيلة، شاهد تلك الدمية إلى جوار أخته القتيلة، وقد تمزقت أحشاؤها، ونزف الدم من فمها الصغير.

يتذكر حبه لبشرى الذي ألهمه الشِعر الجميل....

صارت تترقبه في شرفتها العاشقة على أحر من الجمر، إلى أن ينتهي من دروسه الطويلة، ويأتي في شوق عارم:" بحبك يا بشرى."

تسأله متغنجة:" شو دليلك على الحب؟"

يجثو على ركبتيه، ماداً ذراعيه المشرعين، كيفما اتفق، نحوها في ابتهال:" تطلعي بعيوني." ثم ينطرح أرضاً، فترميه بكمشة ياسمين، يتناثر فوقه كالثلج، وهو يتلو على أسماعها آخر ما كتبه لها في وجد حالم:

شيء أدركه لكني — إذ ألمسه يهرب مني

شيء في صدري يختلج — ينساب كبرق في ذهني

لحظاتٍ أفرح فإذا بي — طرباً أهتز كالغصن

وتراني أجلس مكتئباً — أتثاقل حتى من جفني

نغمات ضجت في قلبي — عن إنس تصدر أو جن

صاخبة حيرى مسرعة — تجذبني فأُشد للحن

ألاحقها فأضيع نفسي — ثم أعود لأبحث عني

❖

مع استعادته لذاكرته، كأنه ما خرج من مدينة القنيطرة، وسنوات الاحتلال ما كانت، وجد نفسه يركض في شوارعها، ليقف أمام منزل إلى جواره آخر مهدم، وقد انتصبت سارية فوقها علم، عرف أنه المخفر المجاور لبيته، الذي تعرَّض للقصف العنيف، والمركز، يومذاك.

هاهي حيطان البيوت الطينية المهدمة، وقد نبتت فيها أعشاب خضراء طرية رغم التدمير المتعمد، فامتشق طوله كالرمح، متقدماً وسط الجموع المتزاحمة حول الساحة العامة في مدينة القنيطرة، حيث رفع السيد الرئيس العلم السوري عالياً منذ لحظات قليلة. شاهده أبو معروف، فتقدم منه مهللاً:" الحمد لله على سلامتك يا تايه."

يستوقفه بلطف:" أنا اسمي ملحم يا عمي."

يتأمله الدكتور حلمي، متسائلاً:" **هل كان فقدانه للذاكرة طوق نجاة، فلا يتشتت عقله، وهو يرى أمه وأخته قتيلتين أمام عينيه؟**"

ويستذكر الدكتور عزمي أيام تيهه المرة، هو الآخر، بعدما انقطعت عنه أخبار مريم:" كل مين سألته عنها أكّد أنه ما شافها يا أبو معروف."

رد عليه:" أيامها ما كان حدا فاضي لحدا."

يعقب الدكتور حلمي بشاعريته المعهودة:" في الحب نفتح عيوننا على الآخِر، أما الحرب فتعتم عيون العالم يا حكيم "

❖

فيما الدكتور عزمي قادم إلى بيته، وجد البوابة مفتوحة، بعدما عُزِّلت من الحجارة بشكل متقن، فحدس داخله:" **كأن أحداً ما جهّز الطريق، ليستقبل البيت أصحابه بعد غياب!**"

كما بدت الياسمينة مسقية قبل قليل. مد يده تلمس تربتها، إذا هي رطبة:" إذاً مريم هنا."

وتساءل في سره:" **هل مازالت ممشوقة القد كشجرة حور، وعلى خديها طراوة أوراق الريحان؟ هل مازال ثدياها تلتين في سهل من الحنطة، دفؤهما يعادل دفء الأرض في يوم ربيعي؟ وشعرها الأسود الطويل مافتئ ينسدل كالليل، على كتفيها، وصدرها يشمخ في إباء؟"....**

يدلعها مريومة، عاشت معه، وكانت في حياته السعادة، والهناء، لو بادلوه بأحلى امرأة في الكون ما بادلها، توقظه بابتسامة عذبة، تحضر له الفطور، وإبريقاً من الميرمية، يشربانه معاً، تحت الياسمينة التي يحبها

كثيراً. ثم تودعه عند الباب بقبلة. وعندما يمضي لإسعاف مريض، تلاحقه بنظراتها من نافذة البيت، فيرنو إليها من بعيد ملوحاً في لهفة، لتتقابل عيونهما يغمرها الحب الصافي، وإذ يعود يمتلئ البيت بالورد، ليصير بستان زهور ملونة، وهي زهرة البستان.

ومريم التي سدت ثغرة الجدار الغربي، ثم قالت لحازم:" يمه خلي عينك على البيت، ولما تشوف حدا فات ناديني".

فسألها:" وين رايحة؟"

- على الباص.

ثم نظرت إلى بيتها في حنين مرٍّ حارق، وإلى تلك اليافطة التي أعلنت الحياة من جديد، وهي تبتهل في سرها:" **يارب رجعتني على بيتي بعد سبع سنين، رجع لي زوجي، يا رزاق، يا كريم.**"

ثم صعدت الباص المزركش بألوان زاهية، مقررة أن تعود أدراجها من مدينة القنيطرة إلى الزفتية بعكس جهتها المرجوة، فالبيت مهدم بالكامل، ولا مجال للسكن فيه، تحس بضرورة أن تودع الياسمينة، التي أصبحت تحبها كثيراً، بعدما جمعتهما معاً في جلسات ما أحلاها، أو كأنها سمعت صوتها تناديها بإصرار:" يا مريم وينِك؟"

تصغي أكثر، فإذا هي تكمل كلامها:" الدكتور رجع، وصار بالبيت."

فانطلقت مسرعة. وهناك تحت الياسمينة المشتاقة إليهما معاً، التقيا، ففاحت رائحة الياسمين، تعبق من صدريهما.

عندما شاهدها الدكتور عزمي وجدها، كما تركها: في عينيها أحزان الجولان وكبرياؤه. فأحس كم افتقد دفء كلامها.. وعذوبة تعاملها:" **كانت نعومة الحرير في يديها.**" هكذا حدس، وهو يشاهد كفيها الخشنتين من العمل المجهد في مزرعة أبي محروس.

نظر كل منهما، في عيني الآخر، فرأى خضرة الأشجار، خصب السهول، وطهارة البوادي، حتى إذا ما ابتسمت له بدت أسنان اللؤلؤ في فمها، وغارت شمس حزيران، وهو يقول لها:

- والله مر اليوم عليَّ أطول من سنة وأنتِ غايبة يا مريومة.

بينما راح حازم يرفع العلم عالياً، ويركض به، ليرفرف خفاقاً، تتبعه حمامته البيضاء.

ولم تفاجئ تلك الحمامة أحداً، فلطالما رافقته مثل ظله. لكن الملفت للنظر هذا السرب من الحمامات البيض، حيث تحولت سماء مدينة القنيطرة إلى فضاء أبيض وسط الهديل.

وأكد الدكتور حلمي بعذوبة كلماته المألوفة: "إنها كف الأرض، بعدما عادت حرة، تطلق حمامها الأبيض، ليضاء الأفق بلون السلام الجميل."

❖

يحاول نصر عبور الشارع مع جموع الناس، لكنه يتأخر، فيتجاوزونه، ليبقى وحيداً، يترقب الجو في ذعر خشية أن تصطاده طائرة معادية، وهو يعبر الطريق المكشوف....

بعدما كان يتأتئ في الكلام، آكلاً نصف حروف الكلمة التي ينطقها صمت تماماً مع قيام حرب تشرين إلى أن استعاد صوته مع إعلان رفع العلم فوق مدينة القنيطرة المحررة، لكنه مازال يرتعب من صوت الطائرات. أخيراً يأتي كهل متهالك على نفسه، يدب على الأرض، متوكئاً على عصا عجوز مثله، فيستظل به نصر مثل طفل، ويعبر إلى جواره. ينتبه إليه الكهل، فيمسك بيده، حتى يسلمه إلى أخيه اسكندر الذي يعتذر للكهل في خجل:
- والله يا عمي حاولنا كثير نقنعه إنها طياراتنا اللي بالجو، ما في فائدة.

فيرد عليه الكهل الحكيم: "كان لازم يحارب مع اللي حاربوا بتشرين، لحتى يقتنع يا بني."

❖

ويحدِّث الرقيب الأول طلعة زوجته الشامية هدى عن اليوم الأول للحرب، معرجاً على ما شاهده بأم عينه، إذ حين أُعطيت الأوامر بالتقدم إلى النسق الأول صعد رئيس أركان كتيبته إحدى الدبابات المتقدمة، فخرج الخبير السوفييتي فلاديمير ليودعه، وراح يلوح له بيده، فناداه: "تعال فلاديمير روح

معنا، وبنرجع سوا." فأحس فلاديمير بالحرج ألا يلبي دعوة رئيس الأركان، وهو مستشاره، وصديقه الشخصي، عاشا معاً عدة سنوات لا يفترقان في السراء والضراء، فما كان منه إلا أن تقدم، وصعد ليجلس إلى جواره. مع أن الأوامر العليا اقتضت أن يبقى الخبراء السوفييت عند النسق الثاني.

ويردف طلعة في حماس جارف:" يومها انطلقنا بدباباتنا، حولها جنود المشاة. لكن، بعدما جاءتنا النيران من الخلف، اعتقدنا أنها نيران صديقة، تصوَّب علينا بالخطأ. بيد أننا اكتشفنا أنها دشم إسرائيلية محصنة، ومجهزة على أكمل وجه، لتتصيدنا من تحت الأرض. عندئذ التطى جنود المشاة وراء الأكمات والحفر المتوافرة، لأنهم أصبحوا مكشوفين لنيران العدو من تلك الدشم، وبقيت دباباتنا وحدها، تطارد فلول دبابات العدو. حينذاك شاهدت بام عيني قائد الكتيبة، وهو ينزل في جوف دبابته ال م. ت. 72 الحديثة، ويرمي على تلك الدبابات التي احتال بعضها بأن وجه فوهة مدفعه باتجاه الخلف، أو نحو الأسفل، كي تغافلنا من الوراء، وترمينا بقذائفها الحارقة في حيلة إسرائيلية معروفة عبر التاريخ. ثم أخذ جهاز اللاسلكي ودوى صوته هادراً:" من رياض إلى جميع الوحدات: أرجوكم عودوا إلى القتال فوراً." فجأة بُلغنا عبر جهاز اللاسلكي أن النيران تشتعل بدبابتنا. غير أن السائق أخبرني بأن الأجهزة عنده لا تشير إلى وجود إصابة في الدبابة. فنزلت أتفقدها وجدت أن جنزيرها أُستهدف بقذيفة لم تكن دقيقة، فاشتعلت النيران ببقايا الشحم عليه. لذلك بقينا نرمي على العدو إلى أن أصيب المدفع، وصار لا بد من فتح الأغطية عند الرمي، وإلا خنقنا غاز القذيفة التي نرميها. وهكذا عدنا نرمي دبابات العدو المتراجعة، بعدما دمرنا تلك التي خلفناها وراءنا، إلى أن انفجرت سبطانة المدفع. فانتقلنا إلى دبابة أخرى. وبقينا نقاتل في حماس واندفاع كبيرين، رغم حاجتنا الماسة للمؤن والذخيرة، حتى أشرفنا على بحيرة طبريا. فنزلت، وخضت فيها....

هو ليس متأكداً من خوضه في مياهها فعلاً، أو ربما شبِّه له، لأنه في تلك اللحظة العظيمة اختلط عليه الأمر، فمزج الحلم بالواقع، وكأن لهذه

البحيرة تأثيراً أقرب إلى السحر، عندما يراها المرء تحت أشعة شمس المغيب.

ويكمل في غصة خانقة:" في اليوم الرابع، ونحن نصد الهجوم المعاكس للعدو، وجدنا دبابة رئيس الأركان معطلة، لكنها ليست مدمرة، ولم نجد الخبير السوفييتي فلاديمير يا هدى."

❖

تحتضن مريم- التي لوحتها الشمس الحارقة في مزرعة أبي محروس، فأصبحت سمراء نحيلة، كعود القصب - زوجها في حميمية، ليلتقط لهما أبو معروف صورة تذكارية تحت اليافطة المعدنية أولاً، ثم تحت الياسمينة، التي انتعشت بعدما سقاها حازم.

لم تحرق الشمس وجهها فقط، بل احترق قلبها أيضاً على ابنها، يعذبه البيك أبو محروس، وهو يلاحقه في مزرعته، محاولاً الضغط عليها من خلاله، لترضخ لنزواته الخبيثة.

ها هو حازم يُخرج شبابته، من جيب قميصه الداخلي، ليعزف عليها....

للحظة أحس بأنه يرى نجمة في ثوب زفافها الأبيض، وهي تتعلق بذراع الأستاذ عامر، الذي يتأنق في هندامه مثل عادته، عندما كان يمر قريباً منهما، بينما هما يلعبان معاً، وقد رسمت على الأرض عدة مربعات، وراحت تلقي قطعة الحجر الملساء داخلها، ثم تقفز برجل واحدة متحاشيةً الخطوط بكل حيوية ورشاقة. وعلى البعد لمح شاباً في لباس مموه، يحمل بندقية كلاشينكوف، تتدلى على جنبيه عدة قنابل يدوية، حسبه الفدائي مهران.

وفيما والده يشجعه تستغرب أمه ما تسمع:" كأنه غير حازم اللي كان يعزف!"

- شو قصدك؟

- هي أول مرة بيعزف حلو يا أبو حازم!

لذا يقترب منه ينظر في عينيه المتوثبتين، فيطالعه الأمل في غد أفضل. ثم يحتضنه بشوق عارم، وهو يتلمس جسده عضواً عضواً، كأنه يتأكد أنه استعاد حقيقةَ ابنه، الذي افتقده منذ سبع سنوات.

بعد ذلك يُخرج بذة عسكرية أحضرها له، فينزوي حازم مع أمه في ركن بعيد يلبسها، ثم يعود. إذا هي على مقاسه بالضبط. وسط دهشة مريم وذهولها:

ـ كيف عرفت قياسه؟

ـ بعد ما غبتِ حسيت إنك رح تجيبي ولد مش بنت. وصرت كل يوم احسب عمره، وكيف شكله، وقديش صار طوله، متوقع اننا نلتقي، حتى التقينا فعلاً.

وتنتهز مريم الفرصة لتقول:

ـ أصبح لازم تعترف إنو إحساسي كان صادق من البداية.

فيرفع يمينه بالتحية العسكرية:

ـ أمرِك سيدتي.

ثم يناديه قائلاً:" وجبتلك بوط عسكري."

فيركض حازم إلى سيارة اللاندروفر يحضره، ويتفاجأان به، قد انتعله. فيربت أبوه على كتفه:" حازم جدع."

يشير بسبابتيه الصغيرتين إلى النجمتين على كتفيه متسائلاً:" وهدول؟"

ـ هيك صرت ملازم بطل.

ثم ينظر إلى مريم بكل حب:

ـ تعرفي مريم: لهفتي لأني أقابلك، وأنا حاسس إنك ولدتِ، وصار لي جذر يربطني بالحياة، خلاني أصمد، وأتحمل فترة الاضراب عن الطعام بالمعتقل، بعد ما عمل الكوماندوس الإسرائيلي إنزال على المعسكر اللي كنت فيه.

ويستوضح أبو معروف ما يسمع: كيف دكتور؟

ـ ما أنا كنت أسير يا أبو معروف. ولما حسوا الإسرائيليين حالتي ميؤوس منها، وما رح أتراجع، وآكل ولو وصلت لحد الموت، انجبروا يسلموني للصليب الأحمر، حتى ما يتحملوا مسؤوليتي، وهو رجعني على سورية.

❖

كان المواطنون، في القرى المحاذية للجزء الذي مازال محتلاً من الجولان الحبيب، حين يلتقون بالصحفي موفق، ويرون الكاميرة مع ميشيل تنفرج أساريرهم، ويروحون يتحدثون إليهما بعفوية محببة، كما لو أنهم أصدقاء قدماء:" لا نشعر بالأمان لأن ثمة عدواً يجاورنا، لقد قسَّم العدو العائلات إلى قسمين واحد هنا في الجانب المحرر، والآخر تحت الاحتلال."

❖

على بعد يُسمع نداء عايد:" الحقني يا شيخ عبد الستار."

ويأتي صوبه يلهث، قائلاً:" دخيلك شيخنا."

- خير يا عايد؟

- أمي يا شيخ دخلت مقبرة الشهدا، وما عدت لقيتها....

على حين غرة، وقد خفت نور الشمس قليلاً، يتخيل عايد أمه تنزرع على سفح رابية قريبة، قدماها تنغرسان في الأرض، ثم ترفع يديها، فإذا هما أغصان شجرة مورقة، تعشش بين أغصانها العصافير، بينما عقد الأطفال حلقة دبكتهم، يمرحون حولها في سرور.

- على مهلك، واحكِ لي بالتفصيل.

- دخلنا سوا مقبرة الشهدا، قرينا الفاتحة عند قبر أبوي، وتركتها عنده، بعدين رحت أتمشى عند الباب، لما رجعت فتشت المقبرة شبر شبر، ما لقيتها، كأنها فص ملح ذاب.

ويأخذان طريقهما إلى مقبرة الشهداء، بينما يتأثر الشيخ جاسم بما يراه من مشاهد الدمار والتخريب، فيقول:" شايف ضرار: إسرائيل مدمرة المدينة كلها."

- المهم يا شيخ تلاقي الكلب عامر، وتخلَّص عليه.

- بالله معك حق.

يسيران معاً، فيسمعان من إحدى الحافلات الصغيرة نداء ناعماً:" نجمة، عجلي يا نجمة."

عندما سمع الشيخ جاسم اسم نجمة بقي يلاحقه، مقرراً أنها اللحظة

المواتية، ليطلق عليها النار لأنها جلبت له العار حين لم ترضَ به زوجاً، وهو الشيخ ابن الشيخ، وذهبت خطيفة مع هذا الأستاذ عامر:" **لما أقتلها رح يظهر، فأخلص عليه هو الثاني.**"

لذلك يأخذ وضعية الاستعداد، وينتظر...

فجأة يعاود الصوت متسائلاً:" نجمة ما خلصتِ؟"

وتتقدم امرأة من الحافلة مجدداً:" خلصينا يا نجمة تأخرنا."

وفيما يأخذ الشيخ جاسم وضعية الاستعداد للرمي، يُخرج لسانه، ليبلل به إصبعه الوسطى، ثم يمسح فوهة المسدس، ويصوب بإحكام ودقة: عينه، سدادة المسدس، أسفل ومنتصف باب الحافلة الصغيرة. تمر لحظات ترقب ثقيلة، ثم تنزل فتاة في الثالثة من عمرها. في يدها كرتونة، تسألها المرأة في لطف ولين:" ورجيني شو رسمتِ يا نجمة؟"

تنظر، فإذا هي خربشات طفولية، لكنها تحمل بذور موهبة، إذ رسمت حصاناً يطير.

لذا يخبئ الشيخ جاسم مسدسه تحت ثيابه في مغلفه الجلدي، الذي أحكم تثبيته على جنبه الأيسر كما كان. ويتقدم منهما:" مرحبا يا مطموزيل."

- يا هلا بالشيخ جاسم.

يتفاجأ:" وتعرفين اسمي؟"

- ما هو صاحبك طول الوقت، يناديلك: يا شيخ جاسم. يا شيخ جاسم.

ثم تسأله في مودة:" صحيح هو ليش سموك شيخ، وإنت شاب حلو، مو ختيار؟"

فتنتفخ أوداجه، وهو يرد في زهو يمازحها:" كانوا كلما إجوا ينادوني على الصلاة بالجامع يلاقوني نايم. فوجدوا أفضل طريقة أصير إمام عليهم لما يصلون، لحتى ما أتأخر."

- وبطلت تنام؟

- شلون شايفتيني؟

- صاحي، وزين، ما شا الله عليك.

ويردف في صرامة: "آني شيخ وابن شيخ يا مطموزيل."

فتعاود سؤاله مجدداً: " طيب يا شيخ: وليش هذي العباية والدنيا صيف؟

فيرد عليها: " هو إنتِ ما سمعتِ أبو نواس يقول: وداوها بالتي كانت هي الداء؟

تبقى صامتة، لا تجيب، فينظر في عينيها الخضراوين موضحاً وجهة نظره:" يعني هذي العباية هي اللي ترد عني برد الشتا، وتحجب عني حرارة الشمس بالصيف. وِش قلتِ؟

-قلت: لله في خلقه شؤون.

لكن ضراراً يقاطعهما: " لا تآخذينا حنا ندور على صديقنا الأستاذ عامر."

وينظر إليه الشيخ جاسم مستغرباً لفظة صديقنا - ينطقها بالجيم طبعاً - فيغمزه ضرار، وهو يعض على شفته السفلى، لذلك يؤكد مثله:" أي بالله الأستاذ عامر صديقنا."

وتجيب سميرة مقلدة لهجتهما البدوية:" صديقكم الأستاذ عامر، الله يرحمه: انصاب بالمرة الأولى. ثم رجع التحق بقطعته العسكرية، واستشهد. وزوجته نجمة ماتت، وهي تولد هذي البنية اللي اسمها نجمة على اسم امها."

- والأخت ايش اسمها ؟

- أنا سميرة عمة نجمة.

- تشرفنا يا مطموزيل سميرة.

وتسرد قصتها:" قبل حرب الـ67 جيت زيارة لبيت عمي بالزبداني، ولما صارت الحرب نزحوا أهلي من القنيطرة. على الطريق مات أبي وأمي وتصوّب عامر، وبقي فترة طويلة ضايع قبل ما أتعرف على الجماعة اللي جابوه معهم، ووصلوه على بيتنا بالشام حد الزفتية."

وتكمل في تأثر بالغ:" الله يرحمه ظل مع بنته حتى صار عمرها سنتين، بعديها قرر يتطوع، لما حس أن الحرب قربت، فتركها عندي."

وتحكي له أن نجمة الصغيرة كلما نظرت إلى السماء رأت نجمة تشع، كأنها تغمزها، فتقول:" تلك أمي." حتى أنها - في الآونة الأخيرة - صارت لا

تنام قبل أن ترى تلك النجمة، وتلوح لها: "تصبحين على خير." لتغفو بعد ذلك قريرة العين، تراودها الأحلام السعيدة.

❖

/ كان الفرح جماعياً كلٌّ ينتظر الوعد هنا حيث القنيطرة نسمة أمل باللقاء، وأنا قادم إليها كي أقابل حبيبتي نجاة....

لا بد أنها الآن أميرة سماوية، تضع تاجاً من الغار حول هامتها، وعلى رأسها طنجرة الألمنيوم الكبيرة، تنزلها أرضاً، ثم تسقي منها مساكب الورد هناك. بعد ذلك تأخذ كتاباً، من الكتب التي أهديتها إياها، لتقرأ فيه، وهي تحكي لرفيقتها عني:" بيكتب شعر."

- شعره حلو؟

- كثير.

فهل أوقظها من نوم طال؟ لأخبرها أنني أحببتها أكثر من الدنيا كلها، ثم أشدها إلى قلبي الموجع بغيابها، فتعدني، رغم مرارة أيامي، بربيع قادم، وأنا أردد في أمل:" أوراقي تنطق باسمك، تغيبين تموت الكلمات في فمي، فلمن أكتب بعدك يا نجاة؟ /

❖

في ذلك اليوم البهي بقيت الساحة العامة وسط مدينة القنيطرة حافلة بالناس، كأنه العيد السعيد. فبعد الانتظار الطويل لابد من إيفاء النذر. هكذا يبر أبو معروف بقسمه: ألا يكون العرس إلا بعد التحرير.

كم تمنى أن يكون في بلدته، لكنه قال داخله:" **غداً عندما تتحرر مجدل شمس سنعيد العرس فيها.**"

لذلك علت الزغاريد، وارتدت بشرى ثوب زفافها الوردي، مسرورة بعودة حبيبها الغائب منذ سبع سنوات. وعاد ملحم إلى الشعر، يقول لها:

جودي بوصل كفانا افتراقا

وحسب عليل الهوى ما لاقى

ترد عليه:

شفيعي لديك حنيني إليك — وليس لدي سواه شفيعُ
فيا من سكنت سويدا فؤادي — عظيم حنيني إليك منيعُ
شريعة الحب أن لا تغالي — إذا طال هجر فعود سريعُ

❖

وفيما حلقت في الجو أسراب من الحمام الأبيض، وسط الهديل الأليف، عقب النقيب ناجي:" الآن أتمنى من كل قلبي لو أننا ندخل الحرب مجدداً، ولن أتوانى عن الانطلاق إلى بحيرة طبريا، خائضاً في مياهها حتى قمة رأسي. صحيح أنني لم أصل إليها في حرب تشرين، لكن هذا الأمل سيبقى مزروعاً فيَّ، إيماناً واثقاً بالرجوع، وتحريرالجولان، وفلسطين كلها، لن أنساه ما حييت."

للحظة أحس بحضور المساعد عثمان الذي استشهد خلال حرب الاستنزاف، التي دامت 81 يوماً، ورُفع إلى رتبة ملازم، إلى جواره كعادتهما معاً، فغشت عينيه موجةُ دمع من جديد.

وشرد مسترجعاً صورة والده الذي ما برح يطالبه ببناء بيت له في قريته الساحلية. تمنى حينذاك لو يستطيع مصارحته بأنه ما زال يشعر بالغصة كلما زارها، لأنها تذكره بحبيبته عبير. لكنه كان يجيبه:

- أنا بدي أسكن بالجولان يا بيي.

أما الآن فيشعر برغبة جارفة أن يلبي طلب والده، كأن الانتصار في الحرب محا الجرح العصي على النسيان الذي خلفته عبير:" **حبها كان الشرارة التي أوقدت حطب أيامي، لكن معارك الجولان أنضجتني، فلم أعد مهزوماً في ميدان القتال، كما في الحب.**"

وصار، قبل أن ينام، يحتضن طيفها، ليروح في الحلم: يداعب شعرها الأشقر، ويرشف شهداً من شفتيها، يحس طعم العسل على لسانه، فيطوِّق خصرها بذراعيه، يُدني رأسها من قلبه، ويروح في النومة السابعة.

❖

يقترب ضرار ليهمس في أذن الشيخ جاسم:" رأيي لازم تقتل نجمة يا شيخ."

- وش هذا الهرج؟

- لعاد أريد أرجع، أخبِّر الربع بعد إذنك.

ويرد عليه ساخراً:" لأننا ما قدرنا ننتقم لشرف القبيلة من بنت صغيرة!"

ويكمل دون أن يتيح له فرصة الرد:" تبغي المسدس تقتلها بنفسك؟"

- لا. هذا واجبك انت.

- لعاد امش من وجهي سوَّد الله قراك: جينا نقتله مات بالحرب. وماتت نجمة، هي وعم تولد. خلاص. نقطة. انتهى الموضوع.

يبتعد ضرار عدة خطوات، وهو ينظر إلى الشيخ جاسم في ندم:" **شو كنت أتمنى يقتل عامر لحتى تظل لي نجمة، وآخذ المشيخة وهو بالسجن. لكن يا خسارة.**"

ويبتعد مسرعاً، يلوِّح بيديه على غير عادته، إذ كان يرجع بعد مسافة قصيرة، فينقز قلب الشيخ جاسم، وتمتد يده إلى جيبه، يجدها خالية من النقود، فيبهت قائلاً في سره:" **سرقني قليل الأصل، وهرب.**"

إذ تشاهده سميرة مرتبكاً يفتش جيوبه الداخلية بانزعاج، وهي تتقدم صوب الدبكة، تغمزه:" الشيخ يعرف يدبك؟"

ينتفض:" شنو دبكة؟ شنو عرس؟ أنا عندي مهمة، لازم أكملها."

فتبتسم له، وهي تشده من يده:" بعدين تكملها يا شيخ."

فيخلع عباءته السوداء، ليدبك مع سميرة بلهفة، ممسكاً يدها الصغيرة في ود طافح. لكنه فجأة ينتبه، فيرفع يد سميرة أمام وجهه، وهو يقول فرِحاً:" مثل يد بنت عمي نجمة."

ويتخيلها إلى جواره، فيبتسم لها. بينما تهمس سميرة في أذنه:" لمعلوماتك يا شيخ: عندنا بناية ثلاث طوابق بالقنيطرة."

❖

ووسط أهازيج العرس المفرحة، والزغاريد المتعالية من كل مكان،

يصوب أبو معروف بصره إلى الجانب الآخر: ثمة مواقع عسكرية.. تطل على السهول الخضراء.. حقول ألغام من جميع الجهات.. وأسلاك شائكة.. وراءها مساحات.. سويت بالرمل الناعم.. لاكتشاف أي محاولة تسلل.. يقوم بها أبناء البلد الواحد. صورة مضطربة.. تنزف صمتها الملغم بوجود معاد.. يجعلها خارطة للموت.. فإذا الهواء محاصر إلى درجة الاختناق.. الأفق رمادي داكن.. والسماء كذلك.

يشرد للحظة، يتأمل قريته، المسماة اقحوانة الجولان، وهو يحبها إلى درجة العبادة، :" **كأنها عروس، تتلألأ تحت شمس الغروب على وعد بشروق دائم."**

لقد حفظ دروبها عن ظهر قلب، آملاً كل صباح أن يعود إليها. ها هي على مرمى النظر: من شرفات بيوتها تناثر الورد، بينما تزقزق مواكب العصافير في سمائها، مطلقة ألحانها العذبة طوال الوقت. غير أنها محاصرة بالموت إذ أقام الجيش الإسرائيلي معسكراً له وسط بيوتها السكنية.

ثمة ظلال أشباح ترتدي عتمتها جلباباً أسود تبدت عن بعد.. حيث ترامت على جانبي الطريق الموصل إليها لافتات صفراء.. معلقة على أسلاك شوكية مهترئة، كُتب عليها الأهالي بخط مقروء:" خطر.. أمامك حقل ألغام."

فجأة تمر سيارة عسكرية إسرائيلية، ينزل منها جنديان، ينزعان تلك اليافطة، ثم يرميانها بعيداً، وهما يتضاحكان في تشف وحقد. فتنهمر من عينيه دموع حارقة، يمسحها، وهو يرى ابنه معروفاً طفلاً صغيراً معفراً بالتراب، كأنه خارج لتوه من العمل في حقلته. ها هو يتدرب حتى إذا ما تصلب عوده، واشتد ساعده، راح يفكك تلك الألغام الإسرائيلية، ثم يزرعها أمام مركبات العدو، وجنوده. بعد ذلك يقتحم مخازن أسلحته، ليستخدمها ضده، متنقلاً من مكان إلى مكان، في جولاننا السليب، فاتحاً فجوة في أسلاكهم الشائكة، وحقول ألغامهم الكثيرة، باتجاه الحبيبة فلسطين....

يوجد في الجولان 60 معسكراً للجيش الإسرائيلي، أحدها وسط البيوت المأهولة بالسكان في مجدل شمس. كما زرعت إسرائيل حقول ألغام

في أكثر من 76 حقلاً متداخلاً مع القرى، والتجمعات السكنية، ومناطق الرعي، ما أدى إلى وقوع ضحايا من أبناء الجولان: شهداء، وإعاقات دائمة، وتشوهات، غالبيتهم من الأطفال والنساء.

بدا جو مجدل شمس متلبداً بالسواد، جراء الدخان الكثيف من آليات إسرائيلية مصفحة، تتجول في شوارعها، معكرة صفوها بالضجيج المزعج، ورائحة البارود، فيما تتزاحم وفود القرى المحتلة حول النصب التذكاري لقائد الثورة السورية سلطان باشا الأطرش، لتنطلق جموع المواطنين، رافضين الهوية الإسرائيلية في مظاهرات صاخبة، وهم يرفعون العلم السوري، متوعدين بمواجهات عارمة

❖

وإذ تخرج أم عايد من مقبرة الشهداء، وهي تمشي في ثقة، ودون تعثر، رغم الحفر التي خلفها الإسرائيليون عندما نبشوا هذه القبور لسرقة الأسنان الذهبية من أفواه الموتى، يشاهدها حازم الذي يرتدي البذة العسكرية، على كتفيه نجمتان تلمعان، فيسرع إليها، يخبرها في سرور:" خالتي أم عايد، رجع أبوي مثل ما قلت."

ـ الحمد لله على سلامته يا حازم.

يحدق في عينيها الخضراوين يرى خضرة الأشجار، وألق الصباح القادم، فيسألها:" أوصلك لعند عايد؟"

ـ لا يا ستي. أنا هون ما بدي حدا يوصلني. سلم لي على أبوك.

ويهز رأسه بالإيجاب، وهو يلوّح بالعلم الذي يرفعه عالياً. لكن عاصفة قوية تهبُّ، فيطير من يده. يراه، نزل على مسافة قريبة، ويتبعه مجتازاً شريط الأسلاك الشائكة.

إذ يصبح خارجه يحس بأن خيط بوطه العسكري قد فُكّ، فينزل ويربطه جيداً، ثم ينزوي، ليمدُّ يديه: يسراه في الأمام، ويمينه في الخلف، ضاماً أصابعه بقوة، ماداً السبابة كالفوهة، وقد رفع إبهاميه كشعيرتين، أخيراً يبتسم في حبور:" صرت أعرف أصوب، بعدما كنت ما أقدر أفتح

عين، وأغمض الثانية."

فجأة يسمع صوت عايد، الذي حضر برفقة الشيخ عبد الستار، يحذره:" خليك مكانك يا حازم، إنت بحقل ألغام."

غير أنه يتقدم، لاحقاً علمه، الذي راح يطير صوب الأراضي، التي مازالت محتلة، ومع كل هبة ريح يحلّق عالياً متجهاً نحو فلسطين، بينما تتهيأ شمس تغرب وراء التلال، لتظهر في صباح قادم، ويكتمل النهار...

مراجعي:

- مسيرة تحرير الجولان(1967 -2007) تأليف العميد الركن المتقاعد الدكتور رزق إلياس.

- الحرب الفدائية في فلسطين: العقيد محمد الشاعر ط 3 بيروت 1969.

- القنيطرة المدينة الشهيدة إصدار إدارة المساحة العسكرية ـ دمشق أيلول/ سبتمبر 1975.

وقرأت أغلب ما كتب عن جولاننا الحبيب كما استمعت إلى الكثير من حكايات أبنائه الأعزاء...

ملاحظات القارئ

مسرد

أيمن الحسن

مهندس مدني من قرية العمارنة ـ منطقة جرابلس ـ محافظة حلب.

عضو اتحاد الكتاب العرب ـ جمعية القصة والرواية.

صدر له:

- **محاولة.. في رصد ما حدث** 1994
- **العودة.. ظافراً** جائزة الشارقة للإبداع العربي 1997 بالاشتراك مع انتصار بعلة المرتبة الثانية.
- **شاي** قصص قصيرة 2003
- **عصا موسى** قصص قصيرة جداً 2006
- **زهرة الشغف(بياض مكسور)** الجائزة الأولى في مسابقة المزرعة دورة حنا مينه لعام 2008...

أبعد من نهار: دفاتر الزفتية / أيمن الحسن.- دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠١١.- ٢٥٢ ص؛ ٢٤ سم.- (سلسلة الرواية؛ ٢).

١- ٨١٣, ٠٣ ح س ن أ   ٢- العنوان
٣- الحسن   ٤- السلسلة

مكتبة الأسد


اتحاد الكتاب العرب
Union des Ecrivains Arabes
Damas دمشق

أنتبذ مكاناً قصياً، أستعيد ذكرياتي:

ـ لو أعود إلى بيتَ جدي القومندار، مثلما يلقبونه، إذ يخرج ليلاً، يبحث عن غريب، بقي بلا زاد، فتستقبله حبابتي، ثم يستضيفانه- رغم ضيق الحال- فيا وقت أرجعني لقرية، أعرف درباً، ينسل في عمق الروح إلى كرُّوزتها، هكذا يسمون طريق السيارات، وبيت، يطل على النهر، بناه أبي، وهو يغني مع الصافي وديع:" عمر يا معلم العمار..."

عصراً أجلس على "ساكية" من حطب، كأنها مصطبة، تسورني أصص الريحان، ألمح روضة، تسحب دلواً من الجب، يطير عقلي، أعبر إلى بيتها بجنون، لا أصبر على أحجار، وُضعت وسط الماء، فيتبلل بنطالي الشارلستون:

ـ كيفِك؟

ـ مشتاقة.

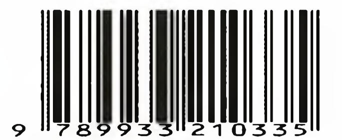
تضيفين:" بعرفك تحب عبد الحليم." وتشغلين المسجلة، تأخذني النشوة، فأشدو معه:" عاشق ليالي الصبر مداح القمر."

تتلقف الفتيات شباك العاشق، فتومئين:" ابن خالي، جاي من الشام."

تحضرين القهوة، وحزمة ورد حمراء، فتطلق صبية زغرودة عرس، تسكتينها: يسراك تكمُّ فمها، أفرح، يطربني نبض الزمن الحالم:" آه يا أيام العطلة الصيفية في قريتي العمارنة...."

مطبعة اتحاد الكتاب العرب

دمشق



(390) ل.س داخل القطر

(520) ل.س خارج القطر